الدكتور حامد عمار

خُطًى.. اجتزناها

بين الفقر والمصادفة إلى حرم الجامعة

سيرة ذاتية

الدار المصرية اللبنانية

خُطَى..
اجتزناها

(بين الفقر والمصادفة إلى حرم الجامعة)

بيانات الفهرسة أثناء النشر
(الإدارة المركزية لدار الكتب)
عمار ، حامد
خطى احتزناها بين الفقر والمصادفة إلى حرم
الجامعة : سيرة ذاتية / حامد عمار . ـ ط 1. ـ
القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2006 .
328 ص ؛ 17×24 سم .
تدمك: 1-965-270-977
عمار ، حامد ـ المذكرات
920

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت ـ تليفون: 3910250
فاكس: 3909618 ـ ص.ب 2022 ـ القاهرة
e-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com
تجهيزات فنية: الإسراء ـ تليفون: 3143632
طبع: آمون ـ تليفون: 7944517 - 7944356
رقم الإيداع: 10052 / 2006

الطبعة الأولى: جماد أول 1427هـ ـ يونيو 2006 م .

خُطًى.. اجتزناها

(بين الفقر والمصادفة إلى حرم الجامعة)

سيرة ذاتية

للدكتور حامد عمار

الدار المصرية اللبنانية


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء إلى الروح الطاهرة

لكل من
والدتي نزهة
مضحيةً بنفيس مصوغاتها،
ووالدي مصطفى
مضطرًا لبيع أخصب قرارايطه،
لكي أمسك بالقلم.
يعلمني ما لم أكن أعلمْ،
من حروف حافزات للهمم،
نحو كل الخيرات والقمم.

وإلى
شريكة حياتي ليلى
أم الوليد البكر والتوأمْ
أَشْعَتِ حياة المودة والسكنْ
رَعَيتِ المسيرة تحقيقًا للحُلُم،
مقاومةً كل المخاطر والوهن،
فتقوى العوافي ويَنْزاح السقم،
وتشتد طاقات العزائم والهمم.

فاتحة الشهية

من الشعر الذى أهواه:

لا .... ياولدى
لابد أن نعلو فوق المأساة.
نتجاوزها لكن لا ننساها.
يومًا سنعيد بناء مدينتنا الحلوه،
قاهرة الأيام والحب الأول.

صلاح عبد الصبور

فى قرون الهمجية،
علموها كل أنواع اللغات الأجنبية.
سلبوها وجهها،
سلبوها صوتها،
سلبوها لونها،
سلبوها زيها الموروث من اكتاف جَدٍ لحفيد.
وغداة اعتقلوها من جديد،
سألوها ما اسمك يا بنت؟
فردت فى هدوء وروية:
عربيةٌ... عربيه.

سميح القاسم

حكايات السيرة



فاتحة السيرة

مع بلوغ الخامسة والثمانين من العمر، وقد تزاحمت ضغوط الأسرة، وبعض الزملاء، والناشر، تستثيرنى لكى أسجل سيرتى الذاتية لتستوى كتابًا حافلًا بالذكريات. ومن ثم عقدت العزم، أخيرًا وبعد طول تردد، على اقتحام هذه المغامرة تسجيلًا بالقلم. وقد درجت كثيرًا على أن استمتع بسرد حكاياتها أو مقاطع منها أو أحداثًا من مجرياتها شفاهة من حين لآخر فى بعض أجواء السمر والإمتاع والمؤانسة.

وفى جلسة من اجتماعات المجلس الأعلى للثقافة استحثنى الأخ الفاضل والمؤرخ الثقة أ.د. رءوف عباس إلى الوفاء لأجيال اليوم والغد بالإقدام على كتابة سيرتى الذاتية. فأبديت له ما اشعر به من تهيب، على اعتبار أنها لا تتضمن ما فى سيرته الذاتية (خطى مشيناها) من قضايا ومشاهد تاريخية وجامعية، تَدَافع معها بما عرف عنه من قوة الإرادة وصلابة الموقف، وكرامة الأستاذ الجامعي، وفى حقبة زمانية عايشها وانشغلت بها معظم الأجيال الراهنة على أرض مصر. هذا فضلا عن أننى لا امتلك ما يمتلكه من ذاكرة المؤرخ وبراعة السرد ونفاذ التعبير. ومع ذلك شجعنى بإلحاح راجيًا أن أقدم على السعى والمحاولة.

ونمت واستيقظت مع هذه المصادر من التحريض، على نوع من أحلام المنام واليقظة متسائلًا: كيف يمكن لذاكرتى أن تستجمع الذكريات من مواقع ومواقف وعلاقات ومعاملات وأشخاص وتواريخ ومشاهد امتدت خلال خمسة وثمانين عامًا، وقد وهن الفكر، وتآكلت الذاكرة، وتراخى الجهد. وساعتها مر على ذاكرتى دعاء رئيس جامعة صنعاء الأسبق وشاعر اليمن المبدع عبد العزيز المقالح:

يا سيد الحرفِ والعشبِ والليلِ
هبْ لى بقايا حرفِ
مُبرأةً من غبارِ الكلام

ثم أخذت أتساءل كذلك: ماذا سوف تنتظمه محاور هذه السيرة، كما هو الشأن فى سير رجال السياسة، أو الأدب، أو الفن، أو قادة الحروب، أو مؤرخين مثل رءوف، أو حتى من كتابة حكائين واصفين لما شاهدوه أو اختبروه كالجبرتى، أو الرحالة العرب كابن جبير وابن بطوطه، أو مدافعين عن منهج فكرى فلسفى مثل زكى نجيب محمود، أو مناضلين عن دور مؤسسة ثقافية أو علمية مثل أحمد لطفى السيد، أول رئيس لجامعة القاهرة/ الملك فؤاد الأول سابقًا.

أستعرض فى مخيلتى هذه الكوكبة من كتاب السير الذاتية وغيرهم، فلا أجد لى موقعًا بينهم. ثم توقفت قليلًا فأتذكر أننى قمت بمحاولة كتابة قدر من ذكريات الطفولة والشباب لمجلة الهلال عام ١٩٧٦ ضمن ما تنشره فى باب (التكوين) لحياة المفكرين فى مختلف آفاق المعرفة. وقد أكسبتنى مراجعة ما كتبته فيها من ذكريات عزمًا وثقة لأن أبذل ما وسعنى من جهد وطاقة فى الإمساك بالقلم مع السيجارة وفنجان القهوة، لأفكر فى الإطار والتوجه الذى سأسلكه فى معالجة حقبة سيرتى من جديد فى مختلف مراحلها، وما اضطربت به من شئون وشجون.

كذلك استقر فى ذهنى أنه من حق الشيوخ أن يسترجعوا ماضيهم بما يستطيعونه من تنظيم لذكرياتهم ودفتر أحوالهم من أجل تقييمه الذاتي، لعلهم يفيدون من

مواصلة مسيرتهم من دروسها، وفى مدها وجزرها، طالما كان فى العمر بقية بمشيئة الله. وربما يكون فيها بعض الهداية للشباب، وهو يرنو ببصره إلى أفق الزمن مما قد يجعله أكثر وعيًا بحاضره ومستقبله.

واهتديت إلى أن يكون محورها ضفيرة مؤلفة من خصلة رئيسية متمثلة فى مراحل النقلة، تكيفًا وتكييفًا، من محيط قرية بدائية فى صعيد مصر تكاد أن تكون منعزلة عن العالم عند ولادتى عام (١٩٢١م)، وممتدة إلى أن دخلت حرم الجامعة طالبًا ثم أستاذًا بها على الصعيد الوطني، ومستشارًا للأمم المتحدة على الصعيد الدولي.

وتلتف حول تلك الضفيرة الرئيسية شعيرات متراكمة عبر الزمن من الخبرات والمشاعر والشخصيات والصعاب والعقبات وآفاق النجاح والإحباط، وغير ذلك من "جرن الحصاد" مما أفرزته وواجهته الضفيرة فى تراكمها خلال النقلة الواسعة فى مراحلها المختلفة. ومن أهمها مسببات الفقر وضيق ذات اليد، وطوالع الحظ والصدف من يأس يعقبه الفرج، ومن أحداث مفاجئة غير متوقعة، تنغلق معها الأبواب لتنفتح بعدها بأسباب مفاجئة وغير متوقعة كذلك. ويحيط بها فى جميع الحالات كرم المولى سبحانه، ورضى الوالدين ودعواتها، فضلًا عن السياقات المجتمعية المتداخلة مع الضفيرة حركة وتحريكا لها فى طول المسيرة وعرضها.

وتنعكس تلك الضفيرة فى لفائفها وتعقدها على مرآة فيها صورتى وذاتى. ويجرى سرد السيرة والمسيرة كما لو كنت أرى نفسى فى تلك المرآة، أتحدث عن نفسى إلى نفسى بذكريات عايشتها من فكر وفعل وأحاسيس وانطباعات، حلوها ومرها، إمتاعها وإحباطها، وثوقها وشكوكها، حبها وكرهها، غضبها وهدوءها. ومن ثم لم ألجم نفسى عن التعبير عما أشعر به أو أعتز به أو أزهو به أو أرهبه وأخشاه أو أمقته، أو أنقده أو أرضاه أو أنكره.

وبعبارة أخرى لم يكن إطارى أو دائرتى أن أدعو قاصدًا أو فى المقام الأول إلى أمر ما، أو ناهيًا عن مسلك ما، وإن تطرقت إلى شيء من هذا أو ذاك فهو أمر

ضرورى اقتضته خبرتى ومشاعرى. ولتكن هذه السيرة هديتى إلى نفسى فى عيد ميلادى القادم بعد شهرين بإذن الله. ولعل هذا التمركز حول الذات مما يمكن أن أتفرد به بفضل ما حبانى الله من بسطة فى العمر لم تتوفر لمعظم الأحياء من القراء – أطال الله أعمارهم- حين يقرؤنها. وهى فى جميع الأحوال نقلات حضارية وثقافية قد يتعرض فريق من المصريين لها، لكن الغالبية - فيما أحسب - قد لا يتجاوز تعرضها لمثله إلا فى قدر ضئيل من خبراتها وأجوائها.

إن مسيرتى رحلة طويلة مذهلة من مجتمع الزراعة البدائى واقتصاد الكفاف والاكتفاء بموارده الذاتية، إنتاجًا واستهلاكًا، إلى مرحلة آفاق مجتمع العولمة وعصر المعلوماتية والسوق العالمية، وثورات الهندسة الوراثية والسماوات المفتوحة برسائلها الفضائية.

وقد تعلمت من " بلدياتى " الأسوانى الكاتب العملاق عباس العقاد أن لا فضيلة فيما يطلق عليه " تواضع الضعفاء ". فلم إذن اسلك هذا النوع من التواضع المفتعل، وقد منحنى الله فسحة فى العمر وبسطة فى الرزق وزادًا معرفيًا معقولًا؟! ومن ثم لا ضير فى أن أتحدث عن صورتى فى مرآتى مزهوًا بما بلغته واتسمت به من ملامح الوجود الإنسانى ومقوماته. وعلى حد تعبير عالم النفس الشهير (إرك فروم)، من لا يحب نفسه، فلن يستطيع أن يحب غيره. والوعى بحب الذات مختلف تمامًا عن آفة النرجسية القهرية التى تفتقد الوعى والتدبر فيما تقوم به أو فيما تراه بداخلها.

ثم إن هذه السيرة الذاتية هى بعد هذا وقبله رسالة أعبر من خلال سطورها بعميق المودة والتقدير لكل من أعاننى فى طريقها، ولكل من عايشت وتعاملت معهم من الأبناء والأحفاد والأصدقاء. إنها فى نهاية المطاف من أريج (عطر الأحباب).

وهكذا تم تبرير استدعاء الذكريات وإطالة النظر فى المرآة لما سبق من لحظات تولى مسئوليات العمل والانخراط فى معمعان الحياة، كما أن مساحة مرآتى فيما

تلاها قد اتسعت وامتدت أبعادها لتعكس ما حول موقع الذات من الأنماط والتفاعلات فى عوالم الأشياء والأحداث والبشر. ومن خلالها تكشف لى ما تنطوى عليه حركة الواقع من نمو وانكماش ومن مظاهر العدل والقهر، والمعلن والباطن، والحقيقة والزبد، والمحاسن والأضداد. واستوعبت مرآتى كذلك ما تخيلته وابتغيته من بدائل وأمنيات مستقبلية حول تلك العوالم، وما تأملته من حسابات الجمع والطرح والضرب والقسمة فى دينامياتها، وما اضطربت به من إيجابيات وسلبيات، ومن عمران وخسران، خلال مسيرة النقلات الحضارية التى عايشتها مصريًّا وعربيًّا وعالميًّا.

ولا يخالجنى الغرور أو التزيد فى إيراد ذكرياتى بأن كثيرًا من مقاطعها وإحداثها ومما عانيته من الضيق والمكاره، أو مما انشرح له الصدر من النشوة والإمتاع قد يعتبر أمورًا متفردة فى مسيرتى، وأن قليلًا أو كثيرًا من البشر قد عانوها وصادفوها كما أسلفت، ومع ذلك فهى فى نوعية سياقها العام وفى صدماتها الحادة أو انطلاقاتها الفسيحة، قد يكون لها خصوصياتها. أحسب أن ملايين المصريين قد تعرضوا لمآسى الفقر، لكن طفولتى وصباى وشبابى كان مما يطلق عليه الفقر (الذكر) الخانق، وهو ما حاولت اجتيازه، كذلك واجه غيرى صدمات الحظ والصدف المحيطة لتنبلج بعدها عجائب الفرج، لكنها فى تقديرى، لم تتوافر وتتابع لديهم فى كل نقلة أو تحول فى حياتهم بوتيرة مطردة مفاجئة بمثل ما تعرضت لها.

ومع ذلك فقد ترسخت تلك الظروف فى قاع الذات لتمثل قوى دافقة للدفاع والمقاومة والثقة بالنفس، هيأت لى من الإيمان بأن من (زرع حصد، ومن جد وجد). وكنت أشعر دائمًا بقوة السند المستمد من رضى الوالدين وإرضائهم وتحقيق أمنياتهم، وأن " عين الحسود " يمكن دائمًا تعطيل مفعولها، وأنه ما أصدق الحق تبارك وتعالى حين يقول فى قرآنه المجيد (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى) والضرورى هو أن يسعى المرء حتى وإن لم يتوقع جزاء أو يتصور نوعه ومداه.

أتذكر فى هذه اللحظة مثالًا موضحًا لعجائب نقلاتى متمثلًا فى كيف أننى لم أذهب إلى طبيب للعلاج فى مصر، حتى حين تخرجت فى الجامعة رغم ما تعرضت له من أوجاع وجروح منذ طفولتى تداويها أمى بالأعشاب أو بمسحوق البن، أو بمهارة حلاق القرية فى الفصد والحجامة. وكان أول ذهابى للطبيب فى القاهرة عام ١٩٤٢م من أجل مشكلة رواسب زلالية فى البول كادت أن تحرمنى من الالتحاق بمعهد التربية أو من البعثة إلى الخارج عام ١٩٤٦م، وكان العلاج فى كلتا الحالتين بالإكثار من شرب اللبن والامتناع عن أكل اللحوم.

ثم أذهب إلى لندن لأعانى من احتقان فى اللوزتين، فيحيلنى مكتب البعثات إلى جراح فى شارع الأطباء المشهورين (هارلى ستريت) للتخلص منها. وفى حجرته يمر بى على صور من المغنين والمغنيات، والممثلين والممثلات ممن أجرى لهم العملية، وعادت أصواتهم، كما قال، صادحة شجية أحسن مما كانت. ولم يكن لدى ساعتها أى لحظة من القلق فأنا مع جراح فى هارلى ستريت. تنتهى العملية، وأفيق من تخدير البنج بعد مدة أطول مما هو منتظر عادة. والجراح إلى جوارى يسألنى: هل تدخن أو تشرب الكحول فأجبت بالنفى فى الحالتين. وكانت ملاحظته أن ذلك هو مرد التأثير الأطول فى الإفاقة من البنج فى حالتى. ثم يرينى اللوزتين فى زجاجة متغزلًا بقوله: هذه خبرة، لا ينبغى لأى إنسان ألا يمر بها

This is an experience no one should miss !!

أخرج من العيادة متحسسًا موقع اللوزتين، وأتعجب كيف يمكن للإنسان أن يعيش دون لوزتين. ثم وما حال أولئك الفقراء من الفلاحين فى سلوا الذين يعيشون بها ومعها طوال حياتهم مهما كانت أحوال حلوقهم. أليست هذه نقلة ذات مساحة حضارية واسعة تهزنى وتهز تفكيرى وتدعونى للتأمل فيمن يملكون ومن لا يملكون فى احتمال الآلام؟

وهنا أتذكر اليوم عدد الأطباء الذين أتردد عليهم، وعدد المختبرات ومراكز

الأشعة والرنين المغناطيسى التى تختبرني، إلى جانب عدد الأقراص التى أتناولها: هذه للصدر والقلب، وللمخ والمخيخ، وتلك للعظام والعينين والضغط، أتناولها بعد أو قبل وجبات الطعام الثلاث... ماذا أحدث العلم وقرينته التكنولوجيا فى عالم الطب من علاج، شريطة أن تكون قادرًا على تحمل تكلفتها الباهظة.

أذكر هذا المثل مع إيجازه،لعله يقدم صورة من صور أحداث النقلة الحضارية التى مررت بها وما أثارته من دلالات وتأملات، ومما حاولت أن أعنى بها، وأنا انظر إلى مرآتى وصور الضفيرة فى تشكلها.

وأود أن أوضح أخيرًا أن ما أودعته فى هذا الكتاب إنما جاء صورة من السرد أو الرصد التاريخى لما استدعيت من ذكرياتي، على أساس تواردها فى تتابع المراحل الزمنية من طفولتى حتى اليوم. وسجلتها كما تقاطرت لى عفو الخاطر وحسب ما تهيأ من مخزون الذاكرة. وكم عانيت من خيانة الذاكرة، حين أتذكر واقعة أو حدثًا دون تاريخه، أو كتابا دون مؤلفه، أو الاسم الأولى للمؤلف دون بقيته. لكنها فى بعض الأحيان كانت تجيئ إلى معتذرةً بعد كتابة عدد من السطور؛ لأملأ ما تركت من فراغات فى الأسماء أو الكتب أو التواريخ، بل وتذكرنى أحيانًا بأحداث أخرى فأسجلها على التو حتى لا تضيع. وربما قد أدى ذلك إلى بعض التكرار وإن اختلفت التفاصيل والسياقات.

كذلك ارتأيت أن أصنف ذكرياتى فى محورين أساسيين: أحدهما وصف النقلات والتحولات عبر الزمان والمكان، من القرية إلى المدرسة فى المدينة إلى الجامعة فى العاصمة إلى العمل، فالبعثة إلى لندن إلى الالتحاق بالأمم المتحدة. ويمتزج المحور الثانى بمشاعري، صعودًا وهبوطًا، إنجازا وإحباطًا، تكيفًا وتعجبًا، قبولًا ورفضًا، تقديرًا وتجاهلًا، لما عايشت وما صادفت، وما دبرت. وتخلل المحوران بعض ما رأيت وفكرت فى بعض الهموم التربوية والثقافية والاجتماعية.

ومع محاولتى لوضع ذكرياتى فى تصنيف يبدو منطقيًا إلا أن تداعيات الخواطر

كانت تسوقنى إلى دروبها فى وتداعيات جانبية مرتبطة قليلًا أو كثيرًا مع ما سبقها. وقد تتخلف بعض الذكريات عن موضعها المنطقى لتتدافع فى مواقف أخرى، وقد تضطرنى أحيانًا إلى تكرار بعضها زاعمة أنها تستحق التأكيد بالمعاودة إليها. وفى جميع الحالات لم يكن مقصدى تحرير كتاب فنى بمنهج علمى متسق. ومبلغ القول فى هذه السيرة أنها حكايات وذكريات ألفيتها كما هى منعكسة فى مرآة مسيرتى، بما فيها من مواقف ورؤى وقناعات.

أما بعد....

فإنى أحمد الله على ما أتاحه لى من بقية فى العمر لهذه السيرة والمسيرة بعبلها ووبرها، وبها قدمت وأخرت خلال شهر تسارع فيه نبض الكتابة دون توقف أو تدقيق أو تأنق، وأنا أدلف إلى عتبة الخامسة والثمانين. وألفيت قلمى مع الذاكرة، منسابًا من جراء ما حرضنى عليه كل الأحباب والأصدقاء، وبخاصة الناشر الكريم الأستاذ محمد رشاد رئيس مجلس إدارة الدار المصرية للنشر، والدار العربية للكتاب، والهاز الصديق الفاضل أ.د. رءوف عباس الذى سعيت إلى استلهام كتاب سيرته الذاتية المتوهجة (مشيناها خطى) المنشورة فى كتاب (مجلة الهلال). كذلك لا أنسى ما كنت استشعره بين الحين والآخر من وخز الطلب الذى لايفتأ ترديده الحفيد المريد أ.د. محسن خضر بقسم أصول التربية فى الكلية كل مرة ألقاه، حين يذكرنى بأنه قد آن الأوان لمغامرة كتابة السيرة الذاتية. إليهم وإلى أمى وأبي، وإلى أسرتى، وزوجتى وأولادي، وإلى كل من دفعنى إلى إنجاز هذه المهمة أقدم شكرى وامتناني.

ولا يفوتنى أن أسجل كل من تدخل أو أعان على تشكيل واستكمال مراحل المسيرة، ماديا ومعنويًا، من أهل سلوا بحرى وبخاصة العون المادى والمعنوى من شيخ العرب (أحمد السيد درويش)، وأخص بالذكر الشيخ الكريم المضياف (مدنى أبو هاشم) عمدة سلوا قبلى الأسبق، ومن (المصراوية) ومن معلمى (جلال أفندي)

فى المدرسة الإلزامية الذى فتح لى الطريق للتمدرس الحديث. والدعوات "يرحمه الله" إلى المعلم مرسى الذى احترف القفلطة والنجارة للسفن والذى أقمت فى بيته بأسوان، وإلى آل مشالى لدعمهم المادى ونفوذ وساطاتهم وتزكياتهم، وإلى (العاصى) الذى كان الدليل والمرشد إلى مطالب الالتحاق بالمدرسة الثانوية، وإلى الحاج (عبد الغفور) من كبار تجار أسوان، وغيرهم ممن تشملهم أحداث السيرة، وقد انتقلوا إلى رحمة الله، جزيل العرفان، والدعاء إليه بأن يجزيهم أفضل الجزاء لقاء ما قدموا لى من وافر العطاء.

وفى مسيرتى العلمية أتوجه بخالص التقدير لكل أساتذة كلية الآداب (جامعة الملك فؤاد الأول / القاهرة حاليًا) ممن تعلمت على أيديهم قيمة المعرفة وعشق الكتاب. وأخص بالذكر عملاق التاريخ الحديث الأستاذ شفيق غربال، ومنارة التاريخ الإسلامى الأستاذ عبد الحميد العبادي، وصداقة الأستاذية مع د. جمال سرور، وشموخ المعرفة والثقافة الجغرافية عند د. محمد عوض، وسحر المحاضر وحيوية الشباب لدى د. سليمان حزين، وهالة الفكر الفلسفى لدى د. إبراهيم بيومى مدكور. ولن أنسى كذلك رفاق الطريق وهموم المهنة من أساتذة كليات التربية بجامعة عين شمس ومن الزملاء فى الجامعات الأخرى.

ولن يفوتنى أن أذكر أهمية خبراتى مع قسم أصول التربية مقدرًا لما يحيطوننى به أحيانًا من مودة وتقدير، واثقًا من أنهم جميعا، أساتذة ومدرسين ومعاونى هيئة التدريس والسكرتارية والعمال حريصون على قيم التوافق وروح الجماعة التى تؤدى إلى دفعة معنوية عالية فى العمل والإنتاج والإشراف. ولن يتأتى هذا إلا إذا تخلصنا جميعا نحن أعضاء القسم والكلية من التنافس الفردى ومظاهر الاستعلاء والشللية، واللغط التافه، والعباءات الرثة والمهاترات السخيفة. الإمكانات هائلة ولابد من تفجيرها وتوظيفها فى خدمة التعليم والتعلم، تغذية واكتسابًا وإبداعًا.

وبمشاعر حزينة أتذكر من رحلوا عن هذا القسم من أخصب العقول من تلامذتي، الذين ينبغي التأسي بهم فكرًا وشغفًا بالتجديد وتقديسًا لواجبات الأستاذية: حسان، وعبدالسميع، وعبد المقصود، وعبد الراضي، وستظل ذكراهم الطيبة ملء الأفواه والقلوب.

كذلك لن أنسى تلامذتى فى بقية أقسام الكلية، الفقيد الغالى فؤاد أبو حطب، وسليمان الخضري، وأنور الشرقاوي، ومن الصحة النفسية حامد زهران وطلعت منصور وعبد العزيز الشخص. واذكر من عمالقة جيلى أ.د.صابر سليم ومن تلامذتى فى قسم المناهج وطرق التدريس محمد المفتى، وفتحى يونس، ومحمود الناقة، ومعهم وليم عبيد، وحسن شحاته. ومن قسم التربية المقارنة عبد الغنى عبود وشاكر محمد فتحى، وأمين النبوي، لقد تركوا جميعًا بصماتهم الواضحة فى تحديث المعرفة التربوية والنفسية فى كلية التربية.

وتحية تقدير وتمنيات لباقة من الأصدقاء فى بقية كليات وجامعات أخرى من تلامذتى وأصدقائي، منهم مع حفظ الألقاب:

من جامعة حلوان:

محمد الجوهرى رئيس الجامعة الأسبق، أحمد حجي، أميل فهمى شنوده، محمد عبد الخالق، عبد اللطيف محمود من كلية التربية.

من جامعة القاهرة:

على الدين هلال، أحمد زايد عميد كلية الآداب، ومصطفى عبد السميع، ونادية جمال الدين، وسمير بركات، وإلهام عبد الحميد، ومنى عبد الكريم من معهد الدراسات والبحوث التربوية، وتمام حسان، وحسن عبد الشافى من كلية دار العلوم.

من جامعة المنصورة:

أحمد أمين حمزة رئيس الجامعة الأسبق، جابر طلبه، عبد الرحمن الشيخ، ورشدى طعيمه، وحسن عبد العال...

من جامعة الزقازيق:

حسن البيلاوى عميد كلية التربية الأسبق، صفاء عبد العزيز أحمد، أحمد رفاعى (عميد الكلية)، وصبرى الحوت.

من جامعة طنطا:

إبراهيم عصمت مطاوع، محمد الطيب عبد الظاهر، عبد الفتاح تركي، سهام العراقي.

من جامعة الفيوم:

يوسف سيد محمود عميد كلية التربية، محمد محمد السكران، شفيق ويصا، ومن كلية الآداب محمد عبد الرحمن الشرنوبي.

من جامعة جنوب الوادى:

أحمد الرشيدى وأحمد السيد عميد الكلية الحالى.

من جامعة الإسكندرية:

أحمد أبو زيد (آداب)، شبل بدران عميد كلية التربية، كمال نجيب، عبد الفتاح حجاج.

من جامعة المنيا:

بسيونى عميرة.

من جامعة عين شمس:

المرحوم حسن غلاب رئيس الجامعة الأسبق، يونان لبيب، سيدة الكاشف، عبد الباسط عبد المعطي، عمر الفاروق، سمير نعيم، عائشة شكري، قدرى حفني، محبات أبو عميره، نادية يوسف كمال، محمد عامر.

من جامعة أسيوط:

عبد الله السيد.

من المركز القومى للدراسات التربوية:

رسمى عبد الملك، أحمد يوسف سعد، كمال مغيث.

وأخيرًا وليس أخرًا، أبادل أسرتى العلمية من أعضاء هيئة التدريس ومعاونيهم تقديرًا بتقدير، وقلبًا بقلب، وكتفًا بكتف، وهم مع حفظ الألقاب:

شكري، ضياء، علي، إبراهيم، ومصطفى، غنيمه، سعيد، محسن، فكرى، نعيمة، لمياء، أشرف، فتحية، صفاء، دينا.

ومن (الزغاليل) الأحفاد (كما يطلق عليهم الكاتب الصحفى الثاقب أ. لبيب السباعى):

أحمد، محمد، مصطفى، عاشور، فاطمة الزهراء، أفراح، هناء، هبه، أمل، مروه، هاله، وإيمان.

ومن السكرتارية السيدتين:

خديجة، إيمان، وأشرف طابع هذه الحكايات.

وممن يقومون بتقديم الخدمات لنا:

عبد اللطيف، وأحمد، وسيد، وعاطف، وفؤاد....

لهم جميعا أطيب التمنيات،،،



تلك هى بعض الأسماء التى استطاعت الذاكرة بعد عصرها من استدعاءاتهم، وغيرهم كثيرون ممن لم تستطع هذه الذاكرة استخراجهم من مخازنها وأرجو أن تحتفظ بهم " عهدة " لاستدعاءات أخرى. وأجد من الواجب أن أحيى أعدادًا كبيرة من العلماء والأدباء والفنانين، أعضاء اللجان النوعية فى المجلس الأعلى للثقافة الذين كان لهم تأثير عميق فى فكرى وتوجهاتى الثقافية.

وفى جميع الأحوال فتلك كوكبة من التلاميذ والمريدين والأصدقاء حرصت على أن يكونوا فى مسك الختام لهذه الفاتحة، لما يسود بينى وبينهم من تفاعلات أخوية مثمرة ومن تبادل آيات المودة والتقدير.

ومن بين يستحقون تصنيفًا خاصًا من تلامذتى ورفاقى أ.د. نبيل نوفل التربوى الصوفى، العابد فى محراب المعرفة، والعاشق للكتاب، والأخ الفاضل الوفى أ.د.أحمد المهدى عبد الحليم القارئ النهم وصاحب الفكر المقتحم، وأ.د. حسن البيلاوى، الابن البار أبدًا والمريد سندًا.

وقد لا تعنى قائمة تلامذتى وزملائى القارئ العادى خارج نطاق الجامعة، لكن مرآتى الخاصة لا تنفك عن إبراز صورهم ودلالاتها بالنسبة لى مع كل دورة للأرض حول الشمس.

ومن بين السادة الوزراء ممن أثروا فى حياتى تشجيعًا وعونًا وعملًا أتذكر بكل الاحترام والتقدير اثنين، هما:

أ.د. حسين كامل بهاء الدين وزير التربية والتعليم الأسبق.

أ.د. مفيد شهاب وزير التعليم العالى والدولة للبحث العلمى الأسبق.

وإنى لاحتفظ لهما بأطيب الذكريات وبكل الإعزاز والاعتزاز.

ومن الثروة التربوية فى مصر، اغترفت من معين الأستاذ المخلص والحازم فى أداء رسالته إسماعيل القباني، ومن حلاوة منطق د. عبد العزيز القوصي، وعمق التفكير والتحليل العلمى لدى الأستاذ فؤاد جلال.

وفى دراستى بمعهد التربية بجامعة لندن، أذكر بكل إجلال استلهام فكر (كارل مانهايم) وعذوبة تأملات وخبرات د.(لاوريز)، والأستاذية الجادة والرعاية المثلى فى الإشراف والأزمات د.(مارجريت ريد) التى أوصت بنشر رسالتى للدكتوراه، وتفضلت بكتابة مقدمة لها.

أولئك ممن تشكلت حياتى بهم ومعهم، أوردتها هنا، كما وردت فى نص حكايات السيرة وأحداثها عرفانا ووفاء، خصوصًا وأن قيمة الوفاء قد تآكلت فى مجتمعنا بصورة عامة، وفى أجوائنا الجامعية بخاصة مما يدركه جميع العاملين فى مؤسساتها. ولعل الإمام ابن حزم الأندلسى لم يكن مبالغًا فى كتابه (طوق الحمامة بين الإلف والإيلاف) حين قرن استحالة الوفاء فى ثلاثية المستحيلات (الغول والعنقاء والخل الوفي).

وأخيرًا تنطق صور مرآتى بأن الفقر حالة لا يلام إلا من كان السبب فيها، والحظ إنما يشيع حين لا يكون فى المجتمع منطق معلوم، أو قانون يراعى ويحترم، أو عدل يوفر الطمأنينة والتوقع. ومن ثم تقول صور مرآتى لزوم النضال من أجل تحريك الواقع حقًا وواجبا لا مهرب منه. والإمام الشافعى يؤكد هنا:

إنى رأيت وقوف الماء يُفسدهُ

إن سال طاب، وإن لم يجرِ لم يَطبِ

وكما يقول الشاعر (ممدوح الشيخ) كما لو كان شعارًا لكل تربوي:

كأنى منذ ابتداء الخليقة أقاتلْ

أقاتلُ من علّموا طفلنا مفردات الخرس

أقاتلُ كى تستطيل السنابلْ

وحتى تغرد فى الرئتين البلابلْ

أقاتلُ من أجل ألا أقاتلْ

وبهذا الإيقاع الموسيقى أنهى افتتاحية سيرتى ومسيرتى – خطى اجتزناها بين الفقر والمصادفة إلى حرم الجامعة، لعلها تجذب القارئ وتفتح شهيته.



الحكاية الأولى
الطفولة فى قرية سلوا

الوليد فى قريته:

فى أحضان الجبل بصخوره الرملية وترسباته الطفلية وتبعثر كثبانه من الحصى والتراب، وفى مطلع السنة الأولى من الخماسية الأولى للقرن المنصرم، أى فى ٢٥ فبراير عام ١٩٢١م كان مسقط رأسى بقرية سلوا بحري. وهى تقع فى منتصف المسافة بين بندر (أسوان) عاصمة المديرية (المحافظة) جنوبا وبندر (ادفو) عاصمة المركز. وليس بينهما إلا موقع حضرى واحد هو بندر كوم أمبو، وبقية العمران البشرى قرى ونجوع وعزب.

وكانت المديرية فى مجملها إذ ذاك فى شبه عزلة عن بقية ربوع المملكة المصرية، محرومة من معظم مرافق العمران والخدمات سوى النذر اليسير من رموزها فى الحواضر الأربع (أدفو وكوم أمبو وأسوان وعنيبة " فى النوبة"). وقضى عليها أن تكون ملجأ عقوبة أو منفى لما لا ظهر له وإبعادًا للمغضوب عليهم والضالين.

وكانت قرية سلوا قمة من قمم عزلة الريف، الذى كان ينوء بآيات الفقر والحرمان والنسيان.

ولدت فى تلك القرية وبيئتها، وقد كنت أول طفل ذكر فى أسرة الشيخ مصطفى، سبقتنى أخت سميت (شراقة) قد حيرنى معنى هذا الاسم الذى كنا ننطقه على علاته. وعندما كبرت وتعلمت ظلت تراودنى حيرتى فى دلالة اسمها حتى اهتديت أخيرًا وأخيرًا جدًا إلى أنه تخفيف لنطق (إشراقة) كما يحدث كثيرًا فى ترخيم بعض الأسماء العربية. وهى تسمية لطيفة مبدعة من قبل الوالد رحمه الله. ثم تتابعت الزيادة الأسرية لتضم إخوتى أحمد وآمنة ومحمد، إتباعًا لما كان يردده الوالد من القول المأثور بأن (خير الأسماء ما عُبِّد وحُمِّد)؛ أى المنسوبة إلى عبد متصف باسم من أسماء الله الحسنى أو من الأسماء التى اقترنت بالرسول (ﷺ) وآل بيته.

وأحسب أننى ولدت وفى فمى "ملعقة" من معدن، ومن ثم كنت محظوظًا فى طفولتى المبكرة؛ حيث يندر اقتناء الملاعق من أى معدن لدى الأسرة الريفية السلاوية فى ذلك الزمن. ومن ثم يمكننى القول بأننى ولدت وفى فمى ملعقة فضية فى التعبيرات النسبية التى يتمتع بها أهل الثراء الحضرى فى هذه الأيام. وترمز الملعقة المعدنية (الفضية) إلى أننى ولدت على مرتبة قطنية، وليس على حصير، وتولت ولادتى أحسن الدايات ذات الخبرة والسمعة الحسنة والتكلفة الباهظة فى حساب تلك الإيام. وكانت والدتى (نزهة بنت عم أبي) - رحمها الله - تذكرنى بها عندما كبرت كلما جاءت الداية إلى زيارتنا، وتكرمها بأطيب ما لدينا فى البيت من ضيافة. ثم أن هذا الوليد أول ذكر فى الأسرة سوف يحمل اسم العائلة فى مقبل الأيام، وجدير به أن يحظى بكل اهتمام.

لكننى ولدت نحيفا، ويبدو أننى كنت اقل بكثير من الأوزان المعيارية الجيدة للوزن، ولم يكن تقدير ذلك قائمًا على أى ميزان بطبيعة الحال. ولما أحست والدتى بذلك أدركت أن حليبها ليس كافيًا لكى يزداد نموى. لذلك لم تتردد فى أن تدعم رضاعتها بلبن امرأة من الجيران مليئة الجسم، أطفالها يكتنزون لحمًا وشحمًا، فاتفقت معها على أن تتولى إرضاعى مع إحدى أطفالها التى ترضعها علّي اكتسب من حليبها ما تقدمه لأطفالها. وقد تم ذلك فعلًا حتى تم فطامى بعد أكثر من عامين تدليلًا.

وعندما بلغت الحلم كانت الأسرتان تذكراني بذلك وبأختي (نفيسة) من الرضاع، وبأن الشرع لا يسمح لكلينا بالزواج لأننا رضعنا من صدر واحد مشترك. ومع هذه الأم التي شاركت في إرضاعي، كنت أشعر نحوها بالتقدير لما قامت به من رعاية طول حياتي. وكانت والدتي تقدم لها بعض الهدايا من طعام أو أقماع السكر والشاي كلما نجحت في امتحان عندما التحقت بالمدرسة، إذ كانت تطلب منها أن تدعو لي بالتوفيق قبيل الامتحانات.

وحول ما يرتبط بالرضاع وما يقتضيه من قيم الوفاء بالوالدة أو المرضعة استرجع حادثة أم جعفر البرمكي التي أخذت تتوسل للخليفة العباسي هارون الرشيد كي لا يقتل ابنها ووزيره، مذكرة إياه بأنها أرضعته من ثديها. لكن خوف الرشيد من تزايد نفوذ البرامكة على عرشه، طغى على كل المشاعر العاطفية الإنسانية، فالدنيا لمن غلب، ولا مكان فيها للعواطف حين تصطدم بالسياسة والسلطان.

عقدة النحافة والإصابة بأمراض القرية:

ومن قبيل الاستطراد فيما كانت تسببه لي القامة النحيفة من عنت نفسي زمنا طويلًا، وجدتني أتردد على الأطباء بعد عودتي من البعثة في الخارج عام ١٩٥٢، سائلًا عن علاج ودواء لهذه النحافة. ومرد ذلك إلى أنني أدركت من سياق قيمنا الثقافية السائدة أن للشخص " ضخم الجثة عبل الشوى " قدرًا من المهابة والاحترام، حين يطل على المجالس ومع الأقران، وبخاصة عند الاشتغال بمهنة التدريس. ومع كل النصائح الطبية والغذائية ظل وزني ثابتًا، وإن زاد فأقصى إمكاناته كيلو جرامًا واحدا. ولم أتوقف عن هذا الهاجس حتى عندما اشتغلت مع هيئة الأمم المتحدة في لبنان، فذهبت إلى طبيب الهيئة، وشرحت له مشكلتي النفسية. وطلب مني أن أشرح له ظروف طفولتي المبكرة في ريف سلوا بحري. وبعد فترة من إعمال فكره أجابني الطبيب (أنت تحمد ربك على أنك ما تزال على قيد الحياة.

يبدو أنك فى طفولتك الباكره قد أصابك إسهال كثير متكرر، ووصل بك الجفاف إلى حافة الخطر، لكن. الترموستات لديك قد وصل إلى مرحلة من التوازن حيث مدخلاته قدر مخرجاته) وشكرته على هذا التشخيص حامدًا الله على أننى على قيد الحياة.

وعادت بى الذاكرة إلى ما كانت تذكره لى والدتى بأنها كانت تعانى من "شليط مصاريني" أى الإسهال المتكرر بلغة العصر، وهو ما يعالجه الطب الحديث بمحلول الجفاف. وليس فى القرية إذ ذاك وحدة صحية، ولم أذكر أن طبيبًا قد جاء لزيارة مريض فيها. وكان أقصى ما تناولته من علاج معتمدًا على الأعشاب من "السخبر والحرجل والدمسيسة " دواء لكل أمراض المعدة. وحتى أقراص الأسبرين لم تكن معروفة للصداع الذى كان يداوى عن طريق " لبخة من الحنى " (الحناء) ورباط قوى حول الرأس، حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولًا. وعند اشتداد الصداع كان يستدعى أحد الورعين من المشايخ لقراءة " تعزيمة " على مصدر الألم أو كتابة حجاب ينام مع المريض، أو كتابة آيات من القرآن الكريم على ورقة، تغمس فى طبق به بعض الماء؛ ليشرب المريض من محلوله الحبري.

وقد تعرضت لأمراض القرية الشائعة الأخرى مثل (عمص العينين أى الرمد الصديدي)، وكان علاجي " بالفصد " بموس الحلاق على مقربة من موقع العينين، مع المواظبة على غسل الوجه بالماء والصابون بعد التئام (الفصاد) مع أن الصابون (النابلسى) كان نادرًا ما يستعمل فى القرية إلا لدى الميسورين نسبيًّا. وعانيت من كى (الحجامة) فى عنقي، ولست أتذكر السبب الذى استدعى هذا العلاج الحارق.

مخاطر الطفولة وإصاباتها:

وكانت فترة الطفولة قبل سن الخامسة أو السادسة، أى سن الالتحاق بالكُتَّاب، مرحلة ينبغى إنهاؤها بسرعة لكى يبدأ الطفل فى الاندماج التدريجى مع عالم الكبار والتدريب على بعض مسئوليات العيش. أتذكر من بين ما تعرضت له خلالها من

بعض الحوادث الخطرة، أربعة مخاطر أزعجتنى وآلمتنى رؤية الدم الذى أسالته على جلابيتى.

الموقف الأول: أن تدليل والحرص على عدم إصابتى من (عين الحسود)، قد تطلب أن تخرم أذنى اليمنى لألبس فيها قرطًا من الفضة كما لو كنت بنتًا لا ولدًا. واستمر معى هذا القرط عندما سمح لى بلوغى الثالثة من العمر أن ألعب مع الأطفال خارج البيت. وفى يوم من الأيام استدرجنى أحد الرجال ليحدثنى بعيدًا عن جماعة اللعب، فيفتح ذلك القرص وينتزعه من أذني، ويولى الأدبار مسرعًا. وينزف الدم من أذنى وأهرول نحو البيت، فتدرك والدتى ما حدث، وتغسل أذني، وتهدئ من روعى (الحمد لله اللى جات على كِدِي) وما تزال آثار هذا الخرم فى أذنى اليمنى باقية لا تخطؤها العين الفاحصة.

والموقف الثاني: جاءت الإصابة بشفتى من معركة مع حيوان. وتدليلًا وحرصًا على حمايتى بعد حادث القرط، ألبسونى قلادة من الخيط تتوسطها (حفيضة) من الفضة منقوش عليها جزء من الآية الكريمة (ومن شر حاسد إذا حسد) لكى تحفظنى من (عين الحسود). ويبدو أنها لم تحل بينى وبين تلك العين، أو بينى وبين الخروف. لقد دخلت إلى (زريبة) الماعز والغنم لأقدم لها بعض العلف، وربما كنت ألعب بتلك الحفيظة رافعًا إياها إلى فمى بعد أن ألقيت إليها به، فما كان من ذلك الخروف الهائج إلا أن باغتنى ليدفع بطرف الحفيضة الفضية إلى شفتى فتحدث جرحًا غائرًا فى القسم الأيمن من شفتى العليا، نزف دمًا غزيرًا، ما تزال آثاره ماثلة. وقد حاولت تغطيتها منذ عشرين عامًا بأن أربى شاربًا كثيفًا يختبئ الشق وراءه.

أما الموقف الثالث، وهو أخطرها فقد تسبب فيه قطار السكة الحديد بجرح فى الرأس حدث فى السنة السادسة من العمر حين أسندت إلى مهمات

أصعب، ومنها المساعدة فى جلب المياه من نهر النيل، مصدر الرى للزرع وللإنسان والحيوان. وقد كانت مهمات جلب المياه تقوم بجانب منها أختى الأكبر (إشراقة) حيث تملأ (المَطَر/البلاص) الذى تحمله على رأسها لمسافة ثلاثة كيلومترات من النيل إلى البيت. أما الجانب الأخر فكان يحمله (السقا) فى (قربته) ليفرغه فى (الزير) ليترسب طينه، ولتصفى مسامه فى قاعه ماءً أكثر نقاءً مما يتم استقباله فى إناء فخارى له رقبة ضيقة.

وذات يوم ربما كانت أختى مريضة أو أن (السقاء) تخلف عن المجئ إلى البيت، كلفت بأن أسد العجز المائى المنتظر، ولم تكن هذه هى المرة الأولى فقد قمت بعملية الدعم عدة مرات سابقة. كانت عدتى فى هذه العملية ربط مطرين / بلاصين على جانبى الحمار مشدودين بوتد من الخشب. قمت بالرحلة ذهابا إلى النيل على ظهر الحمار، وملأت "المطرين"، وساعدنى أحد الرجال على إحكام وضعهما يتدليان على جانبى الحمار. وفى منتصف المسافة بين النيل والبيت تمتد السكة الحديدية. وبينما كنت على وشك أن أقطع "شريط السكة"، تعلو صفارات القطار القادم، فينزعج حماري، ويبرطع، فيقذف بى وبما حمل بعد تجاوز شريط السكة. وتقع رأسى على حافة حجر، يحدث جرحًا غائرًا فى الجانب الأيسر من جمجمتى لينزف دمًا غزيرًا. ويتولى واحد من (ولاد الحلال) وضعى على الحمار راكبا معى وساندًا لي.. أصل إلى البيت، تحمد لى والدتى على السلامة أنك لم تقع على شريط السكة ويدهسك القطار.

وأتذكر هذه المرة أن العلاج كان بوضع كمية من البن فى ذلك الجرح، وبقيت فترة أيام أنام على جنبى أو على وجهى تفاديًا لموقع الجرح. وبعد فترة التأم الجرح، وكان من نتائج هذا الحادث أن تم إعفائى من تقديم مساعداتى المائية للبيت بعد ذلك.

أما الموقف الرابع: وهو خاتمة المخاطر فقد حدث فى أعلى ذراعى الأيمن، نتيجة تكليفى بعمل الشاى. وضعت الماء فى (الحلة) وأعددت الشاى والسكر والبراد. ثم أوقدت وابور الجاز ووضعت الحلة على إطار الوابور وبها أربع معالق من الشاي، وعندما غلت المياه، حاولت صبه فى البراد، لكن الحلة انزلقت من يدي. ومن طرطشة مياهها التى تغلى أصاب قدر من مائها المتناثر أعلى ذراعى الأيمن فوق الكوع، وصرخت وكان العلاج زلال البيض هذه المرة. وكانت الإصابة بعيدة عن اليدين. وما تزال آثار الحرق ظاهرة فى ذراعي. وهكذا (الله سلم) فلم تحدث أيًا من الإصابات الأربع تشوها ظاهرا أو معوقًا لممارسة حياتى العادية.

وقد نسبت هذه الأحداث كلها إلى إصابة (عين الحسود). ويبدو أن ارتفاع معدلات الوفاة فى السنوات الخمس الأولى من العمر كانت من بين العوامل التى يعزى إليها الاعتقاد الشائع فى عين الحسود. والواقع أن عمليات الحمل والولادة والرضاعة والنمو فى المرحلة المبكرة محاطة بتقاليد واحترازات واحتياطات سحرية، من بينها (عين الحسود)، التى تتسبب فى ارتفاع معدلات الوفاة الذى تجاوز إذ ذاك نصف معدل المواليد على الأقل. ومن ثم فإن السبب الحقيقى يعزى إلى الظروف البيئية غير الصحية وجهل الأمهات الأميات بشروط الرعاية السليمة للأطفال؛ حيث كانت الأمية لا تقل نسبتها عن ٩٩٪ بين الإناث وأقل من ذلك بقليل جدًا بين الذكور.

احتفال الختان:

ودعنا ننتقل إلى حدث بهيج أذكره فى مفارقة لتلك الأحداث الدامية، وذلكم هو حدث (الطهارة) أو الختان للذكور والذى يتولاه حلاق القرية. وقد تعرضت لهذه التجربة فى سن الرابعة. ويشهد هذا الحدث احتفالات صاخبة بالغناء ودق الدفوف والزغاريد. يبدأ اليوم السابق لعملية إجراء الختان بأن يصطحب (العريس) مجموعة

من الشباب والأطفال ليقوموا بزيارة الأقارب والأصدقاء وأعيان القرية فى منازلهم، يدعونهم لتشريف الحفل فى الليلة التالية بعد صلاة العشاء، والدعوة شفاهية فى الغالب.

وفى ليلة الختان تتم الأفراح فى موقعين أحدهما للنساء فى داخل البيت، والثانى للرجال والأطفال فى أى فضاء خارج البيت أو فى المضيفة التى كانت تسمى (الخيمة) أيضًا. ووسط هذه المظاهر الصاخبة تمد صوانى الطعام بالغموس، وأرغفة (الملتوت) من القمح، الذى لا يأكله معظم أهل القرية إلا فى المناسبات أو عند استضافة المهمين من الغرباء. أما عن (الذبيحة) من لحم الخروف فإنها لا توضع على الصواني، وإنما يتم اختيار أحد الكبار بتقطيعها لتوزيعها على الجالسين حول الصوانى حسب مكاناتهم لديه. وبعد الوليمة يقوم الحاضرون بقراءة الفاتحة والدعاء للعريس بنجاح عملية الختان، وقد ارتدى فوق جلابيته البيضاء (جبة) خضراء، وعلى رأسه طربوش أحمر مزين بالترتر المذهب.

وحين يجلس العريس الطفل أمام الحلاق، وأمامه حصير واسع من سعف النخيل، يقوم (المزين / حلاق القرية) الذى ورث المهنة عن أجداده) بحلق شعر الطفل فى بطء وجزءًا جزءًا قبيل عملية الختان. وخلال فترة الحلاقة يتقاطر الأقارب والأصدقاء بتقديم ما يسمى (بالنقوط) نقدًا أوعينًا من القمح أو الذرة أو الشعير. ويوالى المزين حلاقة جزء من شعر الرأس، أو على الأقل يدَّعى ذلك مع الإعلان عن كل نقوط وصاحبه وقرابته للطفل. ولعله من الضرورى الإشارة هنا إلى المشاركات المتبادلة بالنقوط فى هذه الحالة أو فى الزواج أو الإعداد للحج، حيث تؤدى هذه المشاركة إلى تغطية جزء من النفقات التى تتكلفها فى احتفالاتها، وتسمى أسماء (المنقطين) وبسجيل نقوطهم فى دفتر خاص على أساس أنها واجب يقتضى رده إليهم فى مناسبات مماثلة.

أما بالنسبة لى (عريسًا) فى هذه المناسبة، فقد كنت سعيدًا بلبس القفطان الأبيض

والجبة الخضراء والطربوش المزركش (والمركوب / الحذاء) الأحمر الجديد بدلا من (الجلابية). ومع انبهاري وفقدان تركيزي وسط الصخب والحشد، استغرق بين الحين والآخر في شعور غامر بأهميتي، غير مدرك لعواقب الجراحة فيها بعد، ومركزًا أحيانًا على (السلامات) مع الأقارب والأعيان. وفى مجمل مشاعرى خلال اليومين كنت اشعر بالابتهاج والانشراح، كما كانت الليلة الكبيرة ليلة الختان مناسبة لتأكيد الروابط الأسرية، ومجالًا للفرح والانطلاق لدى النساء والرجال المدعوين فى أحاديثهم وأخبارهم.

ولقد كان الختان ضرورة للطفل الذكر، كما هو ضرورة للطفلة الأنثى وتمتزج فى قطع (حمامة الذكر أو مع عرف ديك الأنثى) - كما يطلق على العملية - المفاهيم الاجتماعية مع الدينية باعتبارها من التقاليد الإسلامية. وكان ختان البنات مقتصرًا على الدائرة النسوية داخل البيت. وبالنسبة للبنت يمثل الختان شرطًا لازما من شروط الزواج. ومن ثم كانت أهمية الإعلان عنه فى احتفال نسوى خاص صاخب أيضًا. وما يزال ختان البنت مطلبًا عامًا شائعًا لا تكاد تستثنى منه أية بنت مهما كانت أوضاع أسرتها. ولعلى أجرؤ على ذكر ما سمعته من عراك بين امرأتين من الكبار حين عايرت إحداهن الأخرى بقولها (يا أم فصاية) أى أنها غير " مختتنة "، وما تزال ختان البنات ممارسة شائعة رغم آراء المجتهدين من الفقهاء بأنها ليست فرضًا ولاسنة، هذا فضلاً عن صدور قانون بمنعها.

اسمى والبيروقراطية:

ويُلح على فى هذه اللحظة ما أتعرض له من البيروقراطية المغلقة فيما يتعلق باسمى الذى أملاه والدى على (الصراف) ليصدر شهادة ميلادى. وفيها ورد اسمى (حامد مصطفى حامد عمار). وعندما أردت أن استخرج بطاقة الرقم القومى، سجلت أسمى كما أعرفه منذ عقود (حامد مصطفى عمار) لكن المسئول عن إصدار البطاقة أصر على أن يلتزم بما ظهر على الكمبيوتر فى تسمية شهادة

الميلاد، فلما ذكرت له أن أسمى الذى أذكره فى كل الشهادات العلمية والمعاملات الرسمية هو الاسم الثلاثى الذى أفضله، لكنه أصر على الاسم الرباعى. ومنذ أن بدأت أتعامل ببطاقة الرقم القومى أخذت تظهر المشكلات فى المفارقة بين الاسمين، ومن ثم لم ينقذنى منها إلا تقديم جواز سفري، وهو وثيقة رسمية، حيث يرد فيها اسمى الثلاثي.

واتباعًا للتقاليد الريفية فى تسمية الأبناء باسم أجدادهم سمِّيتُ ابنى الأكبر (مصطفى)، كما سمى هو ابنه (حامد) ليكون (حامد مصطفى حامد مصطفى حامد عمار) ومع ذلك فابنى يختصر اسمه إلى (مصطفى عمار)، كما اختزلت اسمى المعروف به (حامد عمار).

خـواطـر:

ومع مرور الأيام وتعاقب السنين والأحداث، أخذت أتأمل طالع مولدى فى ٢٥ فبراير، وما قد تكون له صلة بمناسبات أو ارتباط بوقائع مشرقة فى الحياة والمجتمع. وتداعت الخواطر فى اقترانه بمناسبات متعددة. وسعدت أن أجد من بينها تصريح فبراير ١٩٢٣م الذى حصلت مصر بمقتضاه على الاستقلال الذاتي.

ثم قفز إلى ذاكرتى أنه الشهر الذى يحتفى العالم فى اليوم الرابع عشر منه بعيد الحب. كما أنه فى اليوم الثانى والعشرين منه تتعامد فيه الشمس، إله الآلهة عند الفراعنة على قدس الأقداس فى معبد (أبو سمبل)، وربما تأخر والدى فى تسجيل مولدى فى دفتر المواليد عند العمدة أحد عشر يومًا، لتلتقى ولادتى مع عيد الحب، أو تأخر ثلاثة أيام مع تعامد الشمس على معبد "أبو سمبل".

وفى هذه الحالات الثلاث من الاقتران يشى تفاؤل الطالع فى مولدى بأن يسود الوطن الحرص على كرامة المواطن وحريته، وأن يشيع الحب بين البشر، وأن يغمر الإيمان الدينى قلوب الناس بالضياء والسلام.



الحكاية الثانية
مع ملامح المعيشة فى القرية

موقع القرية ومواردها:

"سلوا بحري" قرية كبيرة نسبيًّا بالنسبة لما جاورها وتبعها إداريًّا من القرى والنجوع، لا يزيد عدد سكانها عـن ألفى نسمة، بينها يقدر تعدادها حاليا حوالى (٢٥) ألف نسمة منعزلة عن العالم من حولها، لم يكن يصلها مع القرى القريبة إلا ركائب الحمير، ومع أربع حواضر فى المديرية والقاهرة، سوى قطار السكة الحديد المعروف باسم القطار (القشاش) الذى يقف على محطتها. وتظل الحسرة تملأ صدور(السلواوية) حتى اليوم لأن القطار السريع (المفتخر) لا يأبه لمحطتهم، ويمر عليها مرور غير الكرام.

وفيها وراء شريط السكة الحديد غربًا تمتد حقول المزارع بطينها الخصب حتى شاطىء البحر (النيل) الشرقي. وتختنق مساحاتها الزراعية المحدودة دون هوادة جبال الصحراء الغربية. وتقع المساكن شرقى السكة الحديد حيث تحد توسعها جبال الصحراء الشرقية وكثبانها الرملية الكثيفة، وهكذا تدور الحياة مع خيرات

النيل وجودًا وعدمًا. ولهذا تضيق مساحة الأرض الزراعية، ويظل النيل مصدر الرزق وقوت العيال، وهو بترعه ومساقيه منبع الرى للأرض والبشر. تقوم الزراعة فيه على الرى الموسمى يتبعه الفيضان، الذى يغمر الأرض ويهدد البشر والزرع أحيانا. ويعتبر النيل كذلك منذ أيام الفراعنة، ملاذًا للخصوبة الزوجية، يقصده (العرسان) ليلة الزفاف أو كلما تأخرت بشائر الحمل. كما أن الطريق إليه من القرية لِمَلْء (بلاليص / جرار) الماء تحملها الفتيات والصبايا بزوايا مختلفة ويعتبر هذا المشوار لديهم مع مشقة حمل جراج الماء مجالًا للترويح والتهوية من حبسة البيت، يجرى خلاله تبادل الأخبار والنميمة فى فضاء (الموردة)، التى اصطلح الطريق إلى النيل (مورد الماء) على تسميته.

وعلى مياه النيل كانت الزراعة الغالبة هى حبوب القمح والشعير والذرة الرفيعة (العويجة)، وبعض الخضروات مثل الملوخية والبامية (الويكة) والقرطم والفجل والبصل، قبل أن تطغى عليها زراعة القصب منذ أوائل السبعينيات. ولم تعرف زراعة أشجار الفواكة أيام طفولتي، باستثناء شجرة الجميز القديمة والمعمرة منذ أزمان، والتى كان يغير عليها الشباب بين الحين والآخر عندما تنضج ثمارها. أضف إلى ذلك أشجار النخيل القديمة المعمرة أيضًا مع أصنافها المتعددة ومن أطيبها (السكوتى والقنديلي). وكان غذاؤنا مقتصرًا على تلك الخضروات فلم نعرف طعم الكرنب أو القرنبيط أو الفاصوليا، أو الجزر، أو الطماطم أو البطاطس أو البازلاء. وهكذا كان غذاؤنا مع خضروات القرية المحدودة والتى كانت تطبخ غالبًا (قرديحي) أى بلا زفر؛ أى بلا لحم أو دجاج أو حمام فى معظم الحالات، ومع أرغفة الذرة أو الشعير اللهم إلا فى أيام الأعياد والمناسبات الدينية كالمولد النبوى وعاشوراء والعيدين، حيث كنا نستمتع باللحم وبالدجاج والحمام وبرغيف الملتوت من القمح.

وأذكر أن والدتى كانت تخصنى وهى تطبخ على (الكانون/ الموقد) بكبد وفحت (كلاوي) الدجاج والحمام بمجرد أن تستوى، وتؤثرنى بها دون بقية أفراد الأسرة

على اعتبارى أتعلم فى الكتاب والمدرسة الإلزامية، ومع ذلك بقيت نحيفًا حتى بالمقارنة ببقية الأخوة والأخوات !!

وكنا نأكل معًا كأسرة من طبق أو ماجور واحد، ومن عيش مشترك، أما (سيد الطعام) من اللحوم فكان الوالد هو الذى يقوم بتوزيعه علينا واحد واحدًا. وتنتهى عملية الأكل فنلعق أصابعنا، ونحن نحمد الله على ما آتانا من رزقه. ولقد كانت أكلة (الصخينة)التى تتكون من قطع البصل الصغيرة مخلوطة بالزيت، مع قليل من اللحم أو الفراخ، وتطبخ فى الطاجن الكبير، من أشهى المأكولات لدىَّ مما تنتهى به من لعق الأصابع مرات ومرات. وتقارب (الصخينة) فى الاستمتاع ولعق الأصابع أكلة (المديدة) وهى من أكلات الصباح، وتسمى أحيانا بـ (العصيدة) مطبوخة من دقيق حب الشعير المطحون على الرحى قبل أن ينضج تمامًا، وتوضع عجينة هذا الدقيق بعد تماسكها فى (ماجور) كبير تنشر لتغطى جانبيه، وفى قعرها السفلى يوضع كثير من اللبن والعسل والسمن. وتمتد إليها الأيدى لتغمس اليد قطعة من العجينة الساخنة فى هذا المركب الدهنى العسلي. ولو أتيح لى صنعها اليوم لفضلتها عن أحسن أصناف (الكورن فليكس).

ومما تعلمناه من قيم قداسة لقمة العيش (الخبز) الإسراع فى التقاطها حين نجدها على الأرض حتى لا تدوسها الأقدام. كذلك كانت للورقة المكتوبة قداستها حتى لا تتعرض للمصير نفسه، نظرًا لما قد يكون مكتوبًا عليها من أسماء الله الحسنى. وإذا كان فى ذلك احترام للقمة العيس (الخبز) والورقة المكتوبة لعامل (الندرة)، فإن إقبال الأطفال على أكل الحلوى أو أكل (الدندرمة – الآيس كريم) فى المدينة تعتبر من سمات الأولاد (المايعين المنحرفين، كما لو كان هذا (التابو) ميكانيزمًا لصيانة القرية من تلوثها بعادات المدنية والتبذير فى استهلاك سلعها. وأنا ما زالت حتى الآن ممن لا يقبلون على الآيس كريم، وسط استغراب الأبناء والأحفاد !!

بيت العائلة:

ولقد تميز بيتنا المبنى من الحجر - كبقية بيوت القرية - بأن جدرانه مبلطة بخليط من الطين والقش من الداخل دون الخارج، مكون من غرفتين للنوم مسقوفتين بالجيز (ساق النخيل) وجريده (فروعه)، ومن ساحة كبيرة مكشوفة أمامها للنوم صيفًا، ومن (شريعة) فى مدخل البيت (انتريه) لاستقبال الضيوف، ومن زريبة للأغنام والماعز، ومن ساحة مكشوفة بها (شونة) للتبن غذاء البقرة والجمل والحمار، التى تربط أمامها، يليها قاعة الطابونة (الفرن) والكانون وتتخلل تلك الأقسام هنا وهناك صوامع للغلال، وتكوينات طينية توضع عليها الأشياء (دواليب)، وبرج لتربية الحمام، ثم تنتهى أقسامه عند غرفة واسعة للدجاج والبح (البط) كما تستخدم دورة مياه للنساء؛ إذ إن دورات مياه الرجال فى الخلاء خارج البيت.

والقسم الخلفى من البيت فيه غرفة للجدة وأخرى للعمة الأرمل، وغرفتان مستقلتان تقطنهما البنت حين تتزوج لتقضى فيهما فترة حتى تنجب، تنتقل بعدها إلى بيت أهل زوجها. وبعبارة أخرى هو بيت تلتقى فيه ثلاثة أجيال مما يعرف باسم الأسرة الممتدة، ويتفاعل فيه الكبار والصغار، مع المواشى والأغنام، ويتحرك فيه سكانه بحذر عندما تنطلق الدجاج والكتاكيت الصغيرة بلونها الأصفر، والبط والأوز فى تمايله للفسحة فى أرجاء البيت مرة أو مرتين فى اليوم. وتلتقى عينا المشاهد بالبرج المحلى وقد علته بعض الحمائم التى خرجت من داخله لتقف على سطحه، تعزف هديلها وتجرى مغازلاتها. وكان الغلام (حامد) يرقب ما اختزن على سقوف البيت من البوص والحطب حيث كان عليه أن ينزل بعضها من عليائه أحيانًا لتستخدم مع ما يختلط بها من (القش) وقودًا للطابونة فى عمل (العيش) وكانون الطبخ ... وكان هذا عالمه الصغير الذى يضطرب فيه من مقومات الحياة.. يشعر الغلام بحركة البهجة للمواشى حين يقدم لها علفها وهى جائعة، وبالطيور حتى تصيح وتزقزق وهى تتسارع نحو التقاط ما ينثر لها من حب وما يقدم لها من

ماء. وكم كان يحزنه حين يرى بعض الكتاكيت (الصيصان)، وهى تترنح من الأعياء يتهددها الفناء.

ومما يلفت نظرى الآن كيف أمكن للطين والقش وجذع النخيل وجريده أن يقيم مساكن متماسكة لا تنهار. وأعجب لما اكتسبت من مهارة واتزان من خلال المران مكنتنى من تسلق الحيطان غير المبلطة من الخارج وأسير عليها وعلى السقوف لأحضر بعض الوقود، دون خوف من اهتزازها أو سقوطها. وأدرك اليوم لم سمى الخبز أو الرغيف باسم(العيش)؛ أى إنه مرادف لكل مقومات الحياة. وهل من وسيلة أخرى فى هذه البيئة بفقرها المدقع (الدكر) ما يسد رمقها، ولو كان (عيش حاف) دون غموس.. وهل لها من تعبير عن أحوالها أبلغ من أنه (فقر دكر)، فى مفارقة معَ ما يمكن أن نطلق عليه (الفقر الأنثى) الذى يكون أكثر عطفًا ورفقًا بالفقراء !!

فى هذه الظروف عاش الغلام (حامد) يتحرك خلال أقسام بيته، آكلًا شاربًا، نائمًا متحركًا مخدومًا وخادمًا. وعندما بلغ الخامسة من العمر، أتيحت له حركة محدودة فى تجواله فى محيط اللعب مع أقرانه من أبناء الجيران وهو حافى القدمين كبقية الأطفال فى جميع الأحوال. وكان من بينهم ما أدهشنى توأم أحدهما مثلنا فى خلقته، أما الآخر فقد كانت تتدلى من عنقه زائدتان رفيعتان كنا نسميهما (بلحتان)، كان يحاول كل منا العبث بهما. وفى لغة القرية يطلق على التوأم (البراسي) لم أعثر لها على أصل فى معاجم اللغة. ننام ونصحو بنفس الجلابية حتى تتسخ تمامًا، وليس للملابس الداخلية موقع على أجسامنا فى مرحلة الطفولة.

تأملات ومخاوف:

وفى ليل الصيف يتمدد الغلام على السرير إلى جانب بقية الأسرة على أسرتها، وهى مصنوعة من خشب النخل وجريده ومفروشة بالحصير من سعفه، وحين كان يتطلع إلى السماء الصافية بنجومها المتلألئة ومتأملًا فى تكوين نجوم الدب القطبي،

حاول ترديد عبارة (بنات نعش شايلات نعش مين قالهن سبع مرات دخل الجنة ومات) بشرط أن يتم ذلك بنفس واحدة دون انقطاع. ويبدو أنها أسطورة يمارسها الأطفال، صيغت لتساعدهم على النوم عندما تتقطع أنفاسهم من تكرارها.

كذلك كانت تجول بخاطره أحيانا فى هذه الحالة من الاسترخاء للنوم ما كانوا يخيفوننا به من المرور أمام الخرائب من البيوت المهدمة ليلًا؛ حيث تسكنها العفاريت التى لا تظهر إلا بعد آذان العشاء. كذلك تضطرب مشاعره ويصيبه بعض القلق قبل النوم حين يتذكر أن هناك الغول الذى يسكن الجبال الشرقية، والذى يفد إلى القرية ليلًا ليوقظ الأطفال من نومهم، ويغريهم بالذهاب معه حيث توجد أمهم، بعبارته الساحرة (بلبح بليبح أمك قدامكم) أى إغراء للطفل بأن أمامه عالم من البلح حيث تكون أمه هناك فى انتظاره إلى حيث يقوده !! ولعل هذه الأسطورة تستهدف أيضًا تحذير الأطفال من التجوال فى اتجاه بعيدًا عن البيت، ويبدو أن لأسطورة الغول صورًا مختلفة فى الأدب الشعبى.

وأتذكر اليوم ما أشار إليه الأمام ابن حزم الأندلسى فى إحدى رسائله (طوق الحمامة فى الإلف والإيلاف) من ذكر الغول كإحدى المستحيلات الثلاثة (الغول والعنقاء والخل الوفى).

وبعد هذه الجولة القصيرة فى أحوال المعيشة فى القرية، وما تعرض له الغلام من أوضاعه الخاصة، يغدو من المفيد إطلالة عامة على المعالم الرئيسية التى اتسمت بها حياة أهل القرية، والتى عايشها الغلام فى تلك الفترة السحيقة من بدايات القرن العشرين.

سلوا تعتمد على نفسها:

لقد كانت الزراعة هى العمل الرئيسى الذى كان يقوم به حوالى ٩٩ فى المائة من السكان، باستثناء ثلاث عائلات تعمل فى التجارة من بقالة وأقمشة، وعائلتين مسيحيتين تديران طاحون غلال وثالثة تعمل فى تفريخ البيض. والملكيات الزراعية

صغيرة للغاية، حجمها نصف فدان فى المتوسط، وما بين طرفى خمسة أفدنة وبضعة قراريط للعائلة التى يبلغ عدد أفرادها ما بين ٥-٧ أفراد. كذلك كان يهاجر بعض الأفراد للعمل فى القاهرة والإسكندرية ممن أطلق عليهم (مصراوية)للاشتغال فى أعمال الحراسة أو الخدمة فى المنازل أو المقاهي.

والقرية فى جملتها كانت تمثل نمطًا من أنماط ما يعرف بالاكتفاء الذاتى واقتصاد الكفاف، تأكل مما تزرع من خبز الذرة الرفيعة والشعير. ولم تكن تعرف من غموس الخضراوات إلا الملوخية والويكة (البامية) والقرطم مع اللبن والمش. أما خبز القمح فهو فى المناسبات وللضيوف مع لحم الدجاج أو الحمام الذى يربى فى البيوت. كذلك لا يعرف أكل اللحم الضاني، وهو النوع الوحيد من اللحوم، إلا يوم السبت الذى ينعقد فيه السوق والذى يأتى إليه الجزارون من أدفو المدينة، كما يفد إليه تجار الأقمشة، ويتم فيه بيع المواشى والدواجن. ويسعد فيه بعض الأطفال بشراء الفول السودانى والحمص. وكانت القرية تستخدم الزيت مما يتم عصره من زيت السمسم والخس فى معصرة العمدة. وكانت تنسج أغطيتها وزعابيطها (لباس الرجال الشتوي) وملاءات النساء (البرده/ التوده) من صوف غنمها لدى نساج القرية. وكانت المرأة إلى جانب عملها المنزلى تقوم بتفصيل الجلاليب وتطريز الطواقي، ولم تكن تستورد القرية من السلع إلا الشاى وقمع السكر والسجائر والصابون والجاز وأقمشة المحلة الكبرى، وكلها من الإنتاج الوطني. وكان الشراء يتم أحيانا بالمقايضة عن طريق الشراء بالحبوب أو البيض أو الدواجن.

وكان بناء المساكن من أحجار الجبال وطين الأرض، وسقوفها من جذوع النخيل وجريده، وكذلك الأسرة من خشب النخيل والأشجار وليفها كما سبقت الإشارة، ومخازن الغلال من الطين، وكذلك الصحون والمواجير لدى فاخورة الفخراني. والخلاصة أن ثقافة القرية المادية وسلعها المحدودة كانت سلعًا محلية إلى جانب ما يأتى من المدينة يوم السوق أو فى المتاجر، ولم تعرف قط سلعًا مستوردة من

خارج مصر، وحتى (المركوب الأحمر) الحذاء الذى يلبسه الفلاحون فى المناسبات، كان إسكافى القرية يقوم بصنعه من جلود الأغنام أو الماعز.

كذلك الشأن فى مجال الخدمات، لم تعرف القرية حتى الأربعينيات الوحدة الصحية، ولم تعرف من الدواء إلا أعشاب الشيح والحرجل وحلف البر والحجامة والبن للجروح. ولم يكن فيها من المؤسسات التعليمية إلا الكتاب، واحدًا فى الناحية "البحرية" وآخر فى الناحية "القبليه"، إلى جانب المدرسة الإلزامية الحكومية للبنين والبنات التى أنشئت عام ١٩٢٤. أما الخدمات الترويحية فكانت ألعابًا تقليدية: المصارعة (السراع) والكرة الشراب، وسباق الجرى والحجلة برجل واحدة. وكان الأطفال يصنعون ألعابهم من الطين، يشكلون به نماذج للحمير والخيل والأبقار وأشكالًا من البوص، كما كان البنات يصنعن الأطباق من سعف النخيل.

الصدمة الثقافية:

لقد كان يوما تاريخيًا حين جاء صراف القرية، وهو من أهالى مدينة جرجا، بذلك الساحر الصوتى (الجرامافون) الذى عربه المجمع اللغوى باسم (الحاكى). وتجمع حوله حشد غفير من الأطفال والشباب والرجال ليسمعوا غناء شجيًا يصدر من تلك الآلة الصماء. ولم يكن القوم يعرفون أيًا من أسماء المغنين، وما كان يعنيهم ذلك كثيرًا حيث اكتفوا بأغانيهم المرتجلة المرددة (لما قابلنى وسلم على.. سلم عليّ) وسط نقر الطبول ودق الدفوف والكفوف.

لكن تلك الآلة المغنية أحدثت لدىّ – وأنا لم أتجاوز الخامسة من عمرى – أول صدمة ثقافية. وكانت كذلك بالنسبة لمن استمعوا إليها من أهل القرية، وقد تردد بينهم تعقيبًا عليها فيما بعد، ومن بينهم والدتى (يا الله!!! الخواجات ما غلبهم إلا الموت). واختزنت تلك المقولة فى عقلى الباطن، حتى انطلقت حين قرأ لنا أستاذنا الجليل محمد شفيق غربال من تاريخ الجبرتى تعليق هذا المؤرخ عند زيارته للمعمل

العلمي، الذى أنشأته الحملة الفرنسية بعد مجيئها إلى مصر، بما يشير إلى ما أصابه من صدمة ثقافية حين عبر عن ذلك بأنه رأى عجبًا ورعبًا، وحين دوت قنابل الفرنسيس الغزاة فى أرجاء القاهرة عام ١٧٩٨ فصاح سكانها (ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف). وكذلك أصابت مؤرخنا الدهشة وهو يشاهد عساكرهم تتدرب فى ساحة الأزهر معبرًا عن ذلك (ومن عجيب أمر الفرنسيس أنهم إذا قالوا لعساكرهم " مارش " تحركوا)، وهو لم يدرك بالطبع أن كلمة (مارش) March بالفرنسية مرادفة للكلمة العربية (تحركوا). لقد كان انبهار الجبرتى المذهل حين زيارته لمخبرهم العلمي (ولهم فيه أمور وأحوال وتراتيب غريبة ينتج عنها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا)، إيذانًا ببداية الوعى بالتحديث فى مصر.

نظام السخرة والفردة:

لقد كان من بين خبراتى فى الصغر، عندما أخذنى والدى معه إلى دوار العمدة، ولم أشهد فيه إلا صخبًا حادًّا، وذكر أسماء وحذف أسماء، والكل عابس وحزين. ولما سألته عما جرى أفاد باختصار أنه اجتماع لاختيار بعض الأفراد من القرية لعمل مهم. وعرفت فيما بعد أن ذلك الحدث لاختيار ما عرف بنظام (الفردة) والمرتبط بتحديد المختارين من مختلف قبائل القرية لصيانة شواطئ الترع والمزارع وتعلية جسورها، حين تزمجر مياه فيضان النيل بمنسوبها العالى فى موسم الصيف.

ولتنفيذ هذا النظام، يصل التنبيه من المديرية إلى مقر العمدة ليرسل إلى مواقع معينة ذلك العدد المحدد من قريته ليتولى تلك المهات. وكان على العمدة ومشايخ (الحصص) من خلال الحوار الصاخب مع رؤساء القبائل من ملاك الأطيان، الذين تتألف منهم القرية تعيين العدد المطلوب من كل قبيلة حسب حجمها، وكثيرًا ما كانت الأهواء تتدخل فى معايير التعيين. وكان معظم طاقم الفردة من فقراء القرية أو من ذوى الملكيات الصغيرة أو من العمال الزراعيين، ولم يكن أمامهم من سبيل للرفض أو التمرد؛ إذ إن مصير الرافض أو المتمرد كان السجن أو الغرامة فى أحسن الأحوال.

وكانت (الفردة) عملًا يقوم على السخرة دون أجر. وتعتبر أيام اختيارها والانتظام فى القيام بها من المواسم الكئيبة فى القرية. وكنت فى طفولتى وحتى بدايات مرحلة تعليمى الثانوى معايشًا لأحداثها مستشعرًا أحاسيس غامضة نحو قسوتها وما يتخللها من مظالم وجبروت. ولا أنسى أنه عندما كان أستاذ التاريخ يشرح لنا فى المدرسة الثانوية كيف تم حفر قناة السويس عن طريق سخرة العمل من فلاحى مصر، وكيف تعرضوا لقسوة العمل حتى الموت، انطلق لسانى مقاطعا (هذا يا أستاذ ما كان يحدث فى نظام الفردة فى قريتنا) واستحسن الأستاذ تلك الملاحظة وأثنى عليها.



الحكاية الثالثة
مصادر المعرفة الريفية

الثقافة الريفية:

يدلف الغلام حامد إلى مطالع السنة السادسة من العمر فيصبح صبيًا قد اشتد عوده، مهيئًا للالتحاق بالكتاب، وهى إحدى طموحات والده، لكى يكون كأبيه مجيدًا للقراءة والكتابة وحافظا للقرآن كله أو بعضه. ومما يستحق التنويه قبل التحاق الصبى بكتاب القرية، الإشارة إلى مصادر المعرفة ومضامينها فى القرية.

القرية مجتمع شبه مغلق تطبق عليه الأمية بظلماتها بين الذكور والإناث. ولعلها كانت مظهرًا من مظاهر التماثل الاجتماعى والثقافى بين سكانها، كما كانت ملابسهم فى مظهرهم. ولم يكن عدد الملمين بالقراءة والكتابة يتجاوز (٥٠) شخصًا ممن تعلموا فى الكتاب القديم، إلى جانب شخص واحد ممن التحقوا بالأزهر فى القاهرة لبضع سنوات. ومن بين هؤلاء الملمين بالقراءة والكتابة (العاجزة) أحيانًا، عمدة القرية، ومشايخ الناحية، ولا تظهر الصحيفة فى أيدى أحد إلا لمامًا، وبصورة متقطعة حين يذهب أحدهم إلى المدينة.

وكما سبقت الإشارة، كان من حسن حظى أن يكون والدى متقنًا للقراءة والكتابة، حسن الخط، إذ كان يجتهد دائمًا فى تحسينه، وحفظت عنه (حسن الخط يزيد الحق وضوحًا). ولذلك كان كاتب القرية المفضل فى تحرير الرسائل والشكاوى والمطالب للأفراد والجماعات، كما كان من بين أصوات القرية فى لقاءات الأهالى مع (الحكام) الذين يفدون إلى القرية بين الحين والآخر. ولم يكن فى بيتنا من المقروء سوى المصحف الشريف، وكتيبات تحوى بعض أحاديث الرسول (ﷺ)، وكتاب لعالم أزهرى من مدينة أدفو، يتحدث فيه عن بعض أحكام الشريعة وكرامات الأولياء، إلى جانب كتاب فى التوحيد. ومن المتوقع أن تخلو المكتبة مما يعرف اليوم بكتب الأطفال أو الكتب الثقافية فى أى مجال.

وتتمثل المعرفة القروية فى أحاديث المشافهة، التى تدور فى مجالسهم المسائية أو فى المناسبات، سواء فى شئون الزراعة ومشكلات الري، ومسائل الضريبة الزراعية ومطالب (الصراف)، الذى يجمع تلك الضريبة على الحيازات الزراعية. كذلك يدور الحديث عن بعض المسائل الفقهية الخاصة بالميراث أو بكرامات الأولياء، وبخاصة حين يحتفون ببعض من ينتسبون إلى أولاد الأولياء حين يفدون إلى القرية. وتحتدم المناقشات أحيانًا فى ما يدور بين القبائل من منازعات بسبب تولى وظائف (العمدية أو الشياخات)، فضلًا عما يستجد من أخبار (المصراوية) العائدين إلى القرية، وما جلبوه من مباهج المدينة.

والخلاصة لقد كان مناخ القرية الثقافى فى عزلته وبتأثير ضيق اليد، معتزًا بثقافته الدينية، ومحيطًا بمعارفه وخبراته فى الفلاحة والأساطير المتوارثة، وبالأنساب القبلية، خصوصًا وأن أهل القرية ينتسبون إلى قبائل الجعافرة، نسبة إلى جعفر الصادق وصولًا إلى الحسين بن على، مع أنهم من أهل السنة، ولا أنسى والدتى وهى تعتز بنسبها حين يقول (إحنا دقيق العلامة والناس ردًّا). ودقيق العلامة هو دقيق القمح بعد غربلته بالغربال الحرير ضيق الفتحات، حيث يتخلص من القشور العالقة به من الرَّدَّة (النُّخالة). وكأنى بها تردد قول الشاعر الجاهلى إذ يفخر بقومه:

ونشرب إن وردنا الماء صفوًا

ويشرب غيرنا كدِرًا وطينــا

ويا لهـا مـن عصبيــة قبليــة!!

ومع ذلك فلديهم حكمة بالغة فى شئون الزراعة كثيرًا ما يتجاهلها المرشدون الزراعيون، وبحكمة اجتماعية لا يعبأ بها الأخصائيون الاجتماعيون، وحتى الساسة المسئولون. وكثيرًا ما يرددون (مد رجلك على قد لحافك)، ومن تقاليد ضيافة عابرى السبيل حين يلجأون إلى دواويرهم، فالشعار المكتوب على المضيفة:

يا ضيفنا لـو زرتنـا لوجدتنـا نحن الضيوف وأنت رب المنزل

وأتذكر هنا أهمية دراسة الأدب الشعبى وتعرف قيمه فى التخطيط والتنفيذ فى مشروعات تنمية المجتمعات الريفية؛ ضمانًا لفاعليتها واستلهامًا لقيم القرية وممارساتها الايجابية.

فى كتاب القرية:

كان من طقوس التهيؤ للالتحاق بالكتاب أن تفصل الوالدة لى ما يسمى بالملابس الداخلية إلى جانب الجلابية الجديدة. وارتداء الملابس الداخلية، من قماش الدمور أو الدبلان صناعة المحلة الكبرى، كان رمزًا من رموز النمو الاجتماعى، انتقالًا من مرحلة (العيال أو الجهال) إلى مرحلة (الصبى) وتتألف من قميص طويل (تقشيطة) وسروال طويل تحت الجلابية. والملابس الجديدة بها فيها الحذاء (المركوب الأحمر) الذى يصنعه الإسكافى، مصدرًا للفرح والزهو فى المناسبات والأعياد، وعادة ما يصاحبها لبس (الطاقية) المطرزة بخيوط ذهبية تكتمل بها طقوس الانتقال فى عملية التطبيع الاجتماعى، تمهيدًا للبس العمامة فى مرحلة المراهقة حين يصبح الصبى فتى ثم رجلًا.

وفى ذلك المحيط الريفى كان الكُتّاب أولى مراحل التعليم والتهذيب، واسمه

كتاب (الشيخ أحمد أبو موسى)، ومن حسن الحظ أن هذا الكتاب الذى التحقت به فى سن الخامسة لم يبعد عن بيتنا إلا بضعة أمتار.. يتألف من غرفتين إحداهما مسقوفة والأخرى مكشوفة، وهو لا يختلف عن النمط الشائع الذى رسمه طه حسين فى كتاب (الأيام)، ويقتصر على تعليم الذكور. وكان شيخه الضرير الذى يسمى (الخطيب) يعتمد على العريف ممن حفظوا القرآن فى تنظيم الكتاب وإدارته، والذى يقوم بتلك المهمة تطوعاً وأجره عند الله تعالى. ويمثل هذا الكتاب الذى عرف باسم (الخلوة) صورة للاكتفاء الذاتى، ألواحه خشبية تمسح الكتابة عليه بالماء، وتعاد بتغطية سطحه بطبقة خفيفة من الطفلة التى تستخلص من أحجار الجبل، ويكتب عليه بقلم البوص من ساق نبات الذرة، وبحبر مصنوع فى البيت من هباب الصاج الذى تخبز عليه الفطائر، مضافًا إليها بذور "القرض" المطحون من فروع الأشجار. ومصروفات الكتاب رغيف ذرة أو شعير تقدم للشيخ كل يوم أو يومين حسب حالة وأسرة المتعلم، ورغيف من القمح أو " براد " شاى عند حفظ بعض الأجزاء من القرآن الكريم. وأوقاته مرتبطة بمواقيت الصلوات، والتى لا تحكمها عقارب الساعة التى لم تكن متاحة لنا ولا لشيخنا، وإنما كان امتداد الظل أو انحساره، إلى جانب الأذان للصلاة، هو المؤشر لتحديد وقت العمل. وفى حالة الاستئذان لقضاء الحاجة فى الخلاء، كانت المدة المسموح بها تقاس بالوقت الذى يجف فيه بصاق العريف أو ينحسر أو يمتد فيه الظل.

وكان التعليم كما هو معروف مقتصرًا على حفظ القرآن وعلى تعلم الحروف والكلمات. وقد تمكنت خلال الثمانية عشر شهرًا التى قضيتها من إكمال جزء (عمَّ) ومن مهارات محدودة فى القراءة والكتابة. وكنا نقضى فى الكتاب منذ مشرق الشمس حتى صلاة الظهر، ننصرف بعدها لتناول ما تيسر فى البيت من غذاء لكى نعود بعد فترة قصيرة إلى الكتاب؛ تحمل معنا الرغيف الذى يمثل مصروفاتنا الدراسية لهذا اليوم. ونستأنف وأمامنا اللوح الذى كتبناه أو كتبه لنا العريف لنضعه أمامنا ووجوهنا إلى الحائط الذى يستند إليه اللوح، لنأخذ فى ترديد ما هو مكتوب

عليه بصوت عال. وإذا ما خفت الصوت صاح الشيخ (اقرءوا ما مطاميس) لتتعالى الأصوات من جديد كل حسب لوحه. ومن المفروض أن يحفظ اللوح حتى نهاية اليوم بعد صلاة العصر. ونستأنف اليوم التالى بتسميع اللوح أمام العريف للمبتدئين وللمتقدمين أمام الشيخ. وبعدها نمسح لوح الأمس لنسجل لوح اليوم. وهكذا دواليك فى عملية متصلة من الكتابة والحفظ والمسح والتسميع.

وكان يوم الخميس هو أمتع أيام الكتاب، يتم فيه التسميع فقط دون كتابة أى جديد، ونختتمه وقوفًا بدعاء جماعى أذكر منه.

مولانا يا مولانا، ياسامع دعانا،

بحرمة محمد، لا تخيب رجانا

يارجا أنت الرجا، ياعظيم المرتجي

تغفر لينا ولسيدنا (شيخ الكتاب)

وبعد هذا الدعاء نغادر الكتاب واحدًا واحدًا بعد أن نقبل يد (سيدنا)، وينطلق كثير من الصبية فى موسم الصيف نحو السباحة فى النيل أو الترعة، رغم تحذيرات سيدنا بعدم هذه الممارسة.

وكان العريف، بين الحين والآخر، يقص علينا ونحن حوالى ٢٠ غلامًا متحلقين حوله جلوسًا على التراب قصصا طريفة، نحفظ من خلالها بعض الآيات الكريمة. منها قصة العمدة الذى استضاف (عزم) أربعًا من حفظة القرآن على العشاء. وكان على صينية الأكل بطة كبيرة، بطلب العمدة ألا يأخذ أحد نصيبه من البطة إلا بعد أن يأتى بآية قرآنية بها اسم ذلك الجزء. تعجل أولهم بقوله (بسم الله الرحمن الرحيم: وفك رقبة) فأخذ الرقبة، وقال الثاني: (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) فأخذ الجناح، وقال الثالث (رب أشرح لى صدري) فأخذ الصدر، أما الرابع فلم يفتح الله عليه بشيء... وأشار عليه العمدة بأن ينام معه فى (المنضرة) فإذا تذكر آية مناسبة فعليه أن يوقظه ويتلو الآية ليأخذ نصيبه. نام القوم لكن الشيخ الرابع لم يستطيع

النوم وتحرق شوقًا لبقية البطة، فقام والتهم ما تبقى. فلما استيقظ العمدة فى الصباح ولم يجد بقية البطة، عنَّف الشيخ على عدم التزامه بما اتفق عليه من شروط، لكن الشيخ بادره (بسم الله الرحمن الرحيم: وطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون).

وأذكر كذلك قصة المرأة المتحدثة بالقرآن؛ أى التى لا تجيب عن أى سؤال إلا بآية قرآنية كريمة، وهى فى طريقها إلى الحج؛ ومن أمثلة تلك القصة حين سئلت: ما اسمك؟ فتقول (بسم الله الرحمن الرحيم: وأذكر فى الكتاب مريم) وما اسم أكبر أبنائك؟ (يايحيى خذ الكتاب بقوة) هل ترغبين فى بعض الطعام؟ (إنى نذرت للرحمن صومًا) وأين تقصدين؟ (ولله على الناس حج البيت) وكيف تعرفين الطريق؟ (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) وتستمر قصة المرأة المتحدثة لتجيب عن الأسئلة فى عشرين آية، كنا نحفظها إلى جانب ما نحفظ من ألواحنا المقررة. ومقصد استطرادى هنا هو تأكيد دور القصة والسياق المتصل بالواقع المفهوم أو المبهر فى تخيله وإثارته للدهشة وقيمته بالنسبة للتعلم فى مرحلة الطفولة. وعمومًا كان يوم الخميس هو اليوم الوحيد الممتع فى الكُتَّاب، وهو كما كان يقول "العريف": تهكمًا (يوم الخميس فرحة المطاميس).

المدرسة الإلزامية:

فى أوائل السنة السادسة من عمر الصبى (حامد) ينتقل من الكتاب – الذى لا علاقة للدولة به إلى مؤسسة تعليمية حديثة تكفلها وتنظم الدراسة فيها. وربما يكون من الأصح أن الصبى قد أخذ يجمع بين المدرسة صباحًا، وبعضًا من الكتاب بعد الظهيرة. وكان وجود مدرسة حكومية فى القرية حدثًا تاريخيًا من نتاج الحركة الوطنية وثورة ١٩١٩، وحصول مصر على الاستقلال الذاتى (نوفمبر ١٩٢٢) بتحفظاته الأربعة.

لقد كان من تداعيات هذا الاستقلال صدور أول دستور مصرى عام ١٩٣٣م، وكان من بين تداعياته صدور قانون التعليم الإلزامى، ومن مواده نشر التعليم،

إلزاميًا ومجانيًا، فيما عرف بالمدارس الإلزامية، وتغيرت تسمياتها فيما بعد إلى المدرسة الأولية. وأنشئت هذه المدرسة الإلزامية عام ١٩٢٥ فى سلوا بحرى بالذات، باعتبارها الموقع الرئيسى لمجموع القرى المحيطة والتابعة لها إداريًا، وهى قرى (الشبيكة، المحيجر، عزبة على سليمان، المساعيد، الشطب، الحجندية الجبلى) وقد تغيرت بعض هذه الأسماء، والواقع أن خدماتها لم تمتد إلى أكثر من سلوا بحرى ونجع المساعيد القريب. بل إن أهالى سلوا لم يقبل عليها منهم إلا نفر قليل؛ حيث كان فصلى يتكون من ١٢ تلميذا، إذ فضل معظم الأهالى استمرار أبنائهم فى كتابى القرية (البحرى والقبلى).

ومع وعى والدى بأهمية التعليم، ألحقنى بالمدرسة الإلزامية الجديدة عام١٩٢٦، كما ألحق أختى الأكبر (إشراقة) بها، ثم بقية أبنائه وبناته فيما بعد. ومدة الدراسة بها أربع سنوات، يعتبر التعليم فيها إلزاميًا لكل طفل بلغ السادسة من العمر. لكن نتيجة لعدم وعى الأهالى بقيمة التعليم، فإن القليل منهم أرسل أبناءه إلى المدرسة الإلزامية، وأقل القليل ممن الحق بناته بها، رغم قانون الإلزام. والذى لم يكن ثمة وسيلة، حتى لتحصيل الغرامة المقررة لتطبيقه؛ نظرًا لعدم إدراك الريفيين لقيمة هذا النوع من التعليم عند إدخاله على القرية، فضلًا عن مواردهم الفقيرة.

وعلى أى حال بدأ الصبى يتعلم فى مؤسسة لها مواعيد دخول وخروج، وبها مقاعد وتخت، ولها مواد دراسية غير تحفيظ القرآن. وتصرف فيها كتب مصورة، ويحدد مواعيد كل درس، وفسحة جرس يدق، وأرض فصولها مبلطة بقوالب من الفخار. وبها أربعة مدرسين وناظر، ممن يلبسون الطرابيش الحمراء على رءوسهم، وكانوا جميعًا من (الأغراب) من المدن فى المديرية وغيرها من مديريات القطر.

لقد كان ذلك جوًّا ومحيطًا مختلفًا تمامًا عن جو الكتاب، الذى يتسم بالصخب والأصوات العالية المختلفة، به كراريس ومحابر وريش وأقلام رصاص. ومع ذلك لم يكن بها دورات مياه، ولم تكن بها حنفيات وإنما مجموعة من (القلل) التى يملؤها فراش المدرسة.

ومما أعجب الصبى كتاب(المطالعة الرشيدة) المحلى بالصور والرسومات، ويتذكر من بين دروسه درسًا عن (الفيل) الذى يتعرف على صورة هذا الحيوان لأول مرة. ومن عباراته (هل رأيت الفيل يا خليل؟ نعم هو هذا يا سعيد. الفيل كبير الجسم، وله نابان طويلان... إلخ). وكان من العسير مع هذا الوصف تخيلى لصورة الفيل، الذى لم أره إلا بعد عشر سنوات عندما التحقت بالجامعة وزرت حديقة الحيوان بجوارها.

ثم هناك درس اسمه (الحساب) أرقام وجمع وطرح وقسمة. ويتذكر الصبى مدرس الحساب، تكسبه قامته الطويلة وما يعلوها من طربوش طويل هيبة ورعبًا. وهو صارم فى ضبط النظام فى الفصل، يتطلب الانتباه وعدم الحركة أو عدم الأصوات أثناء شرحه، حتى لو شاهدنا فئران (العرسة) تصول وتجول فى الفصل، كما لو أنها أرادت أن تشاركنا فيما نتعلم. ولا ينسى الصبى تلك المسألة الحسابية الشفهية التى يطلب منا حلها (أمك سممتك " أطعمتك" بيضتين الصبح، ثم سممتك أربع بيضات فى الغدا والعشا. يبقى اتسممت كام بيضه فى اليوم؟) ولم نكن نشعر بأى إهانة أو ازدراء لنا ولأمهاتنا، إذ أن كل ما يقوله المدرس الأفندى مقبول، بصرف النظر عن الأساليب التربوية المهذبة الحديثة.. وإذا تأخرنا فى الإجابة عن أى مسألة أو أداء واجب منزلى عنَّفنا الأفندى بقوله (بلادكم بهايم).

وكانت تلك الدروس من النظام والطاعة وتقبل كل ما يبدر من الأساتذة على أنه فى مصلحتنا، مع جانب نوع أرق وألطف فى سياق الطاعة المنزلية، معززة لنظام السلطة والتسلط لدور المؤسسات فى حياة الفرد. والواقع أن إحدى اللوائح الوزارية التى أصدرتها وزارة المعارف عن هدف التعليم الإلزامى، هو (تعليم أهل الريف الطاعة والتزامهم بموقعهم الاجتماعى ومهنهم الزراعية). وكأنما كان الأديب الروائى الطيب الصالح يقصدنا فى روايته (موسم الهجرة إلى الشمال)؛ حينما يقرر (إنهم يرسلوننا إلى المدارس لكى نقول لهم نعم).

ومع ذلك فإن دخول بعض الصبية من البنات إلى المدرسة للتعلم مما لم تحظ به أية أنثى من قبل فى هذه القرية التى تسودها الأمية ١٠٠٪ بين النساء، كان ولابد من أن يبعث السرور والرضا لعلى مبارك والشيخ رفاعة الطهطاوى ويبشر بتحقيق أمنيات قاسم أمين. ويتضاعف سرورهم مع زيادة طلائع الفتيات إلى الالتحاق بالمدرسة عامًا بعد عام، وتسر أنظارهم برؤية انطلاقهن فى الطريق إلى المدرسة أو إلى فصولهن بجلابيبهن المزركشة وغطاء رأسهن (المدورية) بألوانها الزاهية، تتدلى فى شفافية من الرأس بجدائل شعرها منسابًا على الكتفين. ولم يكن هناك ما نلحظه اليوم من صرامة حجاب بنات المدارس فى المرحلة الابتدائية. ومهما كان موقفنا من الحجاب وفريضته، فإننى لا أرى مبررًا على الإطلاق لفرضه على فتيات هذه المرحلة مهما كانت التبريرات؛ إذ ليس هناك ما تستند إليه من المطالب الشرعية فى هذا السن.

ولعلى أنهى هذه النقلة الحاسمة فى تعليم البنت فى سلوا بأننى لو كنت اليوم محافظًا لأسوان، لأقمت احتفالًا خاصًا فى القرية بمناسبة تخرج أول فتاة سلواوية من كلية الطب فى جامعة أسيوط منذ عامين. وإذا كانت هناك أفواج من البنات قد التحقن بكليات العلوم أو التربية أو الخدمة الاجتماعية، إلا أن الدكتورة....... هى أول رمز لاقتحام بنات سلوا لكلية الطب. وربما يعزى ذلك إلى عدم وجود كلية للطب ضمن كليات جامعة جنوب الوادى فى مدينة أسوان. ولعله من قبيل الاستطراد فى الصدف الإشارة إلى أن هذه الطبيبة هى بنت لبنت أختى (آمنة) طيب الله ثراها.

وإذا كان الحدث السابق مصدر اعتزاز، إلا أن عملية الضرب بجريدة نخل أو غصن شجرة فى المدرسة الإلزامية تمثل جانبًا لا إنسانيًا من ممارسة مهنة التدريس، وقد كان يظن وقتها على أنها من الممارسات الضرورية والشرعية لفاعلية العملية التعليمية. لكننى لم أتعرض لتلك (الجريدة) الغليظة، ولعل مكانة والدى فى القرية وقدرته على كتابة الشكاوى لأولى الأمر هى التى حمتنى من ذلك الإيلام.

كذلك كان المعلمون يخشون زيارة المفتش، ويعملون لها حساباتهم، وترتيباتها الخاصة. وفى مواجهة عنصر المفاجأة فى زيارته جرى تكليف أحد شباب المزارعين بتولى مسئولية التعرف على أى أفندى قادمًا من أسوان على قطار القشاش الذى يقف على محطة سلوا مرة فى اليوم. وبمجرد أن يتعرف على أنه مفتش يمتطى الشاب ركوبته مسرعًا نحو المدرسة لإبلاغها بالنبأ.

وقد يستغرق وصول المفتش ثلاثة أرباع الساعة حتى يصل مشيًا إلى موقع المدرسة، يتم خلالها تحسين الأوضاع بها إلى أقصى درجة ممكنة من الانتظام والنظافة والترتيب. وكأننا أساليب التزييف والتستر (شنشنة نعرفها من أخزم) كما يقول المثل العربى.

وخلال عمر الصبى (حامد) بعد الخامسة حتى أواخر السادسة، والتحاقه بالمدرسة صباحًا والكتاب ظهيرة، لم تتوقف مهماته فى البيت من نقل أشياء أو تنظيف أشياء، أو القيام بعمل (مرسال) لقضاء حاجات خارج المنزل. ولعل أهمها كان الذهاب إلى إحدى اثنتين من دكاكين القرية حيث يباع الشاى وأقماع السكر أو قراطيس الملح والفلفل وعلب سجائر ماتوسيان التى يحرص الوالد على تدخينها مفضلًا إياها على سجاير كوتاريللى، إلا عند الضرورة، وقد كان رحمه الله مدخنا محترفًا، وقد أصابتنى هذه المحنة عندما ذهبت للدراسة فى إنجلترا. وكان نظام التعامل مع هذا التاجر فى القرية بطريقة (الجرارة) أى يسجل ما اشتريه فى دفتر خاص، لندفع له جملة الحساب فى نهاية الشهر. وكان يتم التعامل معه أحيانا عينيًا عن طريق الحبوب فى مختلف المواسم. كما كنت مسئولًا عن مراعاة جدتى وعمتى وتغذية المواشى أى العملة الكبيرة، وأسند إلى أختى العناية بالطيور أى العملة الصغيرة.

ولعل من أطرف مهماتى كمرسال حين كنت أرسل أرغفة من (خبيز) اليوم الطازج إلى بعض الجيران، الذين لم يقوموا بالخبيز ويحتاجون إلى بعض أرغفة العيش

(الحامي)، وكان هذا ما يجرى من طرفهم نحونا فى الظروف نفسها، كما كان يتم التبادل أحيانا بين جيراننا فى حالات بعض أنواع الطبيخ، وبخاصة فى المناسبات. كذلك كان طعام الإفطار فى رمضان جماعيًّا، حيث يحضر رب الأسرة صينية إلى الخيمة ويتبادلون أطايب الطعام والشراب فيما بينهم.

ولعل أطرف تلك المهمات " المرسالية " التى كنت أكلف بها حين يفتقد الجيران الكبريت لإيقاد النار للطبخ أو لعمل الشاي. وفى محاولتهم التوفير حتى فى أسعار الكبريت مؤشر واضح على مدى حالة الفقر (الدكر) بين أسر هذه القرية. وفى مثل هذا الطلب من الجيران تقوم والدتى بإحضار قطعتين من الحطب الجاف لتضع جمرة بينهما، وحين تشتعل تضعها فى صحن من الفخار لإرسالها معى إلى الجيران مع دوام النفخ فيها أثناء الطريق. ما أبأسها عيشة يعانيها الفلاحون وسط بذخ الإقطاعيين، وبهاء الأمراء، وعظمة جلالة الملك فؤاد الأول بشنباته المبرومة إلى أعلى!!

وكنت أصاحب جدتى (زينب الهنداسية) أحيانا فى أوقات الفراغ نظرًا لضعف بصرها، وإن كانت أحيانا تتجول وحدها وقد تجاوزت الثمانين وعاشت حتى تجاوزت التسعين. وكنت أحس بأنها تمنحنى بركات بدعواتها لهذه المساعدة. وقد كانت تلتقى بالناس حافظة لأسمائهم وأنسابهم وأحوالهم، تتحدث إليهم فى جرأة ودون تحسب، تثنى على هذا، وتذم ذاك، وتتهكم على آخر، والكل يقبلها بنفس راضية داعيًا لها بالصحة وطول العمر. ومن المأثور أن الكبار "بركة" فى البيت وفى القرية.

كذلك كنت أفرح كثيرًا بمكافأتى على ما أقوم به من مهمات منزلية، بالخروج من نطاق البيت إلى حضور دائرة بعض مجالس القرية، حين يصطحبنى والدى إلى بعض تجمعات أصحابه لأتعرف عليهم. كنت أركب وراءه على ظهر حماره ممسكًا به خلال المشوار، سواء فى سلوا بحرى أو سلوا قبلي. وقد حفظت عنه الآية القرآنية

الكريمة التى كان يرددها قبل التحرك (سبحان الذى سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين)، ويذكرنى هذا بما نجده أمامنا من دعاء السفر خلال رحلاتنا فى الطيران الخليجي.

أما بعد:

ذلكم هو موطن طفولى ومصادر ثقافته حتى بداية السابعة من العمر وبكل ما يعنيه، بشرًا، وأرضًا، وعملًا، وسكنًا، ولعبًا، ولباسًا، وغذاءً، وثقافة، وتعليمًا. بيد أن موطنى كان نقطة فى محيط وطنى الأكبر (المملكة المصرية)؛ بحواضرها المدنية الكبرى فى القاهرة والإسكندرية وأسيوط عاصمة الصعيد، ملكها فؤاد الأول، وابنه فاروق أمير الصعيد. وبين هذه المدن كبار ملاك الأرض من الإقطاعيين بمزارعهم وأبعدياتهم الشائعة، ومنهم ممثلون للشعب المحروم فى البرلمان وفى مجلس الشيوخ. لقد كانت مديرية أسوان دائرة انتخابية واحدة لها ممثلان من كبار عائلات الملاك فى مجلس النواب، وآخر فى مجلس الشيوخ، وقد احتكرا هذا التمثيل لعقود عدة، معتمدين على العصبيات القبلية، وبخاصة قبيلة (الجعافرة) التى تعتز بها "سلوا" وما جاورها لمن انتمى لها من أفراد بقية قرى المديرية. وكان المتنافسان عادة من قبيلة (العبابدة) فى مقابل قبيلة الجعافرة. ومن شروط الترشيح تمتع المرشح بملكية وثروة، وقدرة على دفع رسوم الترشيح (أظن أنها ٨٥٠ جنيهًا)، مبلغ رهيب إذ ذاك !!.

اتذكر هؤلاء المرشحين حين يفدون إلى القرية بأزيائهم الفاخرة (الجبة والقفطان والحزام الحريري) يحيون ويسلمون على الأهالي، ويكرمون أهل الرأى بمبالغ نقدية. أذكر أن والدى كان نصيبه عشرة جنيهات، مبلغ سخى بالنسبة له. وفيها أتذكر أنهم لم يكونوا مقدمين لوعود أو تحقيق مطالب، وإنما كان همهم استثارة العصبية القبلية، وهذه كانت كافية بالنسبة لأهل القرية حين ينجح نائب أو شيخ من قبيلتهم لعله ينفعهم يومًا ما.

وهكذا تصبح العصبية قدرًا مقدورًا ومصدرًا وحيدًا لتأكيد الذات – ويظهر أنها ماتزال إلى حد كبير، فثقافة أهل القرية إذ ذاك لا تحمل طموحات يتطلعون إليها، فهم قانعون بأحوالهم، فالقناعة كنز لا يفنى. همومهم صغيرة ينفسون عنها بالشكاوى إلى الحكام فى (عرائض) يكتبونها حول (الفِرْدة) أو نقص مياه الري، أو الاعتداء على حدود أراضيهم الزراعية من الجيران، أو من الاجتراء على المواريث أو من حقوق النفقة على المطلقات. ولقد شاهدت والدى يحرر كثيرًا من هذه الشكاوي، والتى كان جزاؤه عليها جوز حمام أو قمع سكر أو علبة سجاير. ومما يذكر فى صدد كثرة هذه الشكاوى فى هذه القرية ما يقال عن أنهم إذا رأوا فى يد شخص عريضة شكوى تخصه، يتبرع كثيرون بضم أسمائهم إلى اسم صاحب الشكوى، حتى دون أن يسألوا عن مضمونها. وربما كان ذلك تنفيسًا عن مرارة العيش، وصورة من صور إزاحة الظلم والقهر والفقر الذى يعانونه.

وكانت الشكاوى الكبيرة وبخاصة فيما يتعلق بحدود الأرض وسرقة المحصول أو المواريث، تقدم إلى محكمة أهلية تسمى (محكمة الخط) من أعيان القرية المعينين من قبل مدير المديرية بالاشتراك مع ضابط نقطة البوليس. وكانت أحكامها مقبولة أحيانًا، وأحيانًا أخرى غير نافذة.

وفى بعض الحالات كان يتم الاتفاق على تحكيم (مجلس عرب) من بعض وجهاء القرية يتفق عليهم المتخاصمان. ويتم سماع آراء الطرفين. ثم يخلو مجلس العرب بعض الوقت فى حجرة من حجرات المضيفة (الدوار / الخيمة) ويتفق أعضاؤه بالإجماع على حكم معين يصدرونه، ويقرأ الجميع مجلسًا ومتخاصمين (فاتحة الكتاب) بقبوله، ويتبادل الجميع (السلامات) حامدين الله على قطع دابر الفتنة والخصومة. وكثيرًا ما كان (مجلس عرب) أجدى وأقصر طريقًا من دهاليز المحاكم وتكاليفها.

حاشية منهجية:

تلك هى أحوال "سلوا" الثقافية فى مرحلة طفولتى وصباى فى العشرينيات من القرن الماضي، والتى لم يحدث بها سوى تغيرات محدودة حتى أوائل الخمسينيات. مما أشرت إليه هنا، وسجلته فى رسالتى للدكتوراه بجامعة لندن عام ١٩٥٢م، عنوانها:

Growing up in an Egyptian Village, Silwa, Aswan Province 1954

(التنشئة الاجتماعية فى قرية مصرية)

وقد قامت ابنتى نوال بدراسة تتبعية للتعرف على ما طرأ فيها من تغيرات بعد ثلاثين عامًا، وسجلت مظاهر التغير عام ١٩٨٢م، فى رسالتها للدكتوراه من جامعة فلوريدا. ولاحظت تغيرات فى عديد من المظاهر الحضرية، مما تشير إليه صياغة عنوان رسالتها:

An Egyptian Village Growing Up, Silwa, Aswan Province 1983

(النمو فى قرية مصرية)

وقد كان لثورة يوليو ١٩٥٢م فضل العناية بالريف حيث بدأ الاهتمام بنشر المدارس الحديثة فى القرى، وبالتوسع فى الخدمات الصحية، فانتشرت بها مؤسسات التعليم والوحدات الصحية، وامتدت إليها مشروعات المياه النقية والكهرباء مما كان لسلوا نصيب منها، واختفى الكتاب ليحل محله المعاهد الأزهرية. وتحول اقتصاد الكفاف إلى اقتصاد السوق حيث تحولت معظم حقولها من زراعة الحبوب إلى زراعة القصب لتموين مصنع قصب السكر فى كوم أمبو. وتيسرت انتقالات سكانها إلى المدن شمالًا وجنوبًا بالقطار وبالسيارات بعد رصف الطريق الرئيسي، وظهرت المبانى الأسمنتية بدلًا من الحجر إلى غير ذلك من مظاهر التحضر.

وقد أثرت هذه التحولات الحضرية فى عديد من القيم والطموحات

وتربية الأطفال، والغذاء والكساء، وعوامل النظافة الشخصية والبيئية، وفرص العمل. ومع ذلك ظلت عوامل القرابة والقبيلة والنسب الجعفرى وتقاليد التعاون فى السراء والضراء، راسخة مع إلباسها بعض المظاهر الاستهلاكية الحضرية.

لقد جرت منذ خمسينيات القرن الماضى تغيرات متلاحقة فى "سلوا" وفى محافظة أسوان بعامة، متشعبة ومتنوعة فى طولها وعرضها فيزيقيا واقتصاديًا وديمغرافيًا، حتى يصعب على المرء أن يعرف ما كانت عليه منذ عقدين من الزمان، فما بالك بالصورة التى كانت منذ ثمانية عقود مما أحاول وصفه. ولقد تبين أن بعض رجال القرية وشبابها اليوم لا يعرفون بعض ما كان يطلق من مسميات على بعض الأشياء التى كانت توجد أيامى فى المنزل مثل (السفط الطينى/ الدولاب) أو (العنجريب، سرير الحبال الليفية) أو أسماء الطعام (الشلولو/ الملوخية المجففة). كما اختفت أسماء النساء: فصاحة وعطره، وحد الزين وبتول وجلسن، وأسماء الرجال: أبو الروس والعاصى والبلوك. واليوم تسمع عن النيش والمراوح وبنطلون برْمودا والفيديو والمحمول وغيرهما من مستحدثات المدينة الحضرية. وقد اختفت العقارب التى كانت لسعتنى مرتين كانت إحداهما مختبئه داخل مركوبى (حذائى) الأحمر.

أشير فى هذه الحاشية إلى اعتماد بعض الدراسات الاجتماعية على رصد أحوال الريف فى مصر على رسالتى ورسالة ابنتى، متجاهلة ما تم فى تغيرات ومستحدثات كثيرة فى جوانب المعيشة والسلوك والعادات.

ومن أحدث تلك الدراسات ما أطلعت عليه فى كتاب.

Gary Gregg. The Middle East, Cultural Psychology,Oxford University Press, 2005.

ويستنتج هذا الكتاب من الدراستين السابقتين نتائج غير علمية ولا تاريخية فى إصدار الأحكام على الشخصية المصرية وإمكانات تحديثها أو ممارستها للنزعات الديمقراطية.

ولعل باحثًا من جامعة جنوب الوادى يتولى دراسة تتبعية لهذه القرية بعد ثلاثين عامًا من دراستى ابنتى للتعرف على حجم التغيرات ومداها وعمقها.

ومع ذلكم الذى جرى ويجرى فى "سلوا"، تبقى فى صورتها الأولى مسقط رأسى وأحواله القديمة مثار ذكرياتى هنا، متذكرًا ما كان يدعونى به الراحل الكريم أ.د. حلمى عبد الرحمن، مؤسس عمليات التخطيط فى مصر حين نلتقى (أهلًا بدكتور "حلوانه فى سلوانه"). لقد أدمنت الحديث باسم "سلوا"، فى مسيرة حياتي، كما تفعل ابنتى د. نوال إذ أصبحت آثارها وذكرياتها لحمة فى نسيج حياتي، أحبها وأعتز بها وبأهلها وبالأحفاد وأبناء الأحفاد فيها، وبما شهدته من الإقبال الهائل على تعليم أبناءها وبناتها فى مراحل التعليم المختلفة.

ولو كنت أديبًا عالميًا شامخًا مثل نجيب محفوظ حين خلّد حى (الجمالية) وأحياءه وشوارعه، أو أديبا شاعرًا مثل الدكاترة زكى مبارك حين خلَّد مسقط رأسه قرية (سنتريس) من قرى المنوفية، لاستطعت أن اخلد (سلوا) على الخريطة المصرية. ومع هذا العجز فى تكريمها، تظل راسخة مضيئة بين جنباتى ما شاء الله لى أن أعيش.



الحكاية الرابعة
مصادفة الالتحاق بالتعليم الحديث

المدرسة الابتدائية فى أدفو:

يدلف الصبى إلى السنة السابعة فى صيف عام ١٩٢٨م، وهو ما يزال مجدًا فى مدرسته وكُتّابه وفى تحمل مزيد من المسئوليات العائلية. ويأتى والدى لزيارة المدرسة الإلزامية فى أوائل هذا الصيف ليستفسر عن أحوالى الدراسية، ويستقبله (جلال أفندى الأمير)، وهو غير مدرس الحساب الذى كان يقوم بتسميمنا بالبيض. وخلال التباحث فى شأن مستوى تحصيلى الدراسي، وإمكانة انتقالى إلى السنة الثالثة، أثنى على (جلال أفندي) ثناءً طيبًا للغاية، ودعا لى والدى بأن أكمل دراستى بالجدية نفسها حتى تمام السنة الرابعة، نهاية مرحلة التعليم الإلزامى. ثم خطر للمدرس أن يعرض فكرة ربما يتحمس الوالد لها، والتى كانت فى الواقع مفاجأة لم تخطر له فى " الحلم ولا فى العلم " كما يقال.

عرض عليه جلال أفندى وهو من بندر أدفو، بأن يفكر جديًا فى أن أكمل تعليمى فى المدرسة الابتدائية. والمدرسة الابتدائية هى بداية التعليم المدنى الحديث

الذى بدأه محمد على متسلسلًا إلى المرحلة الثانوية فالجامعة، بينما شهادة إتمام الدراسة الإلزامية هى نهاية لطريق مسدود، لا يؤدى إلى أى تعليم منظم لاحق. هذا إلى جانب من ينهى شهادة المدرسة الابتدائية، كما كان يقال، يتمتع بلقب (أفندي).

وبعد فترة من الذهول – كما حكى لى والدى ما دار بينه وبين جلال أفندى – أجاب بأن الفكرة هائلة لكنه لا قبل له باتباعها، فالصبى ما يزال صغير السن، وأنه لا يعرف من سيرعاه فى الغربة. طمأنه المدرس بأن هذه الرعاية ستتكفلها أسرته حيث يستطيع حامد أن يقيم معها فى المنزل نفسه، وسوف تعتبره واحدًا من أحفادها، فلا تحمل هم الإعاشة. يمعن والدى فى التفكير ويرجوه أن يترك له بعض يوم قبل أن يتخذ قراره.

عرض علىَّ والدى هذا الموضوع مشجعًا لى بأن من يحصل على الشهادة من مدرسة البندر سوف تمنحه الحكومة لقب (أفندي). ولست أتذكر ما انتابنى من مشاعر مختلطة عندما أبلغنى بهذا الخبر، ثم عرض الأمر على الوالدة، فكان جوابها أن القرار بيدك (يا أبو حامد)، وليس لى من شأن إلا أن أدعو له – وقد كشفت رأسها متجهة إلى السماء – (يبارك ربنا فى أقلامه، ويوتق حزامه، ويعلِّى مقامه). يلتقى الوالد بالمدرس بعد يومين، ويتم الاتفاق على إلحاقى بمدرسة (ادفو) الابتدائية من بداية العام الدراسى القادم. ولم يكن مطلوبًا منى إلا أن استعد لامتحان القبول الذى سوف يعقد بعد ثلاثة أشهر، فسنى مناسب، وأنه لا مشكلة فى الكشف الطبى أو كشف النظر.

وأخيرًا ذهبت مع والدى إلى أدفو فى المواعيد المحددة للاختبارات بواسطة قطار السكة الحديد (القشاش) لأول مرة، والتقينا بوالد ووالدة (جلال أفندي)، وأولادهم جميعًا قد تزوجوا، ولهم مساكنهم المستقلة. وقد أدهشنى وجود حنفيات للمياه وحمام فى الغرفة الخالية التى ستخصص لي، كما أدهشتنى الشوارع المزدحمة بالمارة والحنطور والكارو، ولم تكن السيارات قد دخلت إلى المدينة بعد. أديت امتحان اللغة العربية التحريرى بما فيه من (الإملاء)، وبعده الامتحان الشفهى فى القراءة.

وفى اليوم التالى كان امتحان الحساب، وكان عدد المتقدمين لا يزيد عن ثلاثين من الأولاد. وبعد إعلان نجاحى بيومين كان على أن أدخل غرفة الكشف الطبي، فراقبت لأول مرة سماعة توضع على القلب، وكشفًا على الفم والأسنان. وبعد ذلك دخلت إلى حجرة كشف النظر، جلست وأغمضت إحدى عينى وطلب منى الطبيب أن انظر إلى لوحة عليها دوائر وحلقات غير مغلقة مختلفة الأحجام. يشير الطبيب بعصا في يده إلى حلقة ثم حلقة فلا أجيب، ولم يدرك الفجوة الثقافية بينى وبينه وبين تلك اللوحة. ويتقدم نحوى ليشرح لى أن المطلوب معرفة اتجاه فتحة الحلقة فوق / تحت، يمين / شمال، وأخيرًا أنجزت مهمة الكشف بنجاح. واكتملت الفرحة عائدًا مع والدى إلى سلوا فى (القشاش). ولم يبق إلا أن يهيئ والدى مصروفات المدرسة وقدرها ثلاثة جنيهات بما فيها وجبة الغداء بالمدرسة، ثم العودة إلى إدفو بعد أسبوعين لشراء البدلة والقميص والشراب والحذاء طقمًا واحدًا طوال العام. زغردت والدتى عند وصولنا إلى البيت، مكررة دعاءها الذى لا زمنى طوال مراحلى الدراسية. ومما تستحق معرفته بالنسبة للتعليم الابتدائي؛ إذ ذاك وجود أربع مدارس ابتدائية فقط فى مديرية (محافظة) أسوان فى امتدادها، واحدة فى عنيبة فى النوبة، وواحدة فى كل من بنادر أسوان المدينة وكوم أمبو وإدفو.

ذكريات ومشاعر مختلطة:

عشت مع (أسرة الأمير) الكريمة التى قامت برعايتى قدر استطاعتها، فالرجل وزوجته قد تجاوزا الخمسين فى تقديرى. بيد أن مقامى فى الغرفة وحيدًا كان يحدث لدى قلقًا فى اللاوعي، وغربة موحشة لا فكاك منها، إلا حين كنت أخرج منها إلى الفضاء الفسيح خارج البيت، واشترى بملاليمى قطعة أو قطعتين من الباذنجان المقلي، وهو ما لم تكن لمعدتى وتذوقى عهد به فى القرية. كما كنت أهرب من هذه الوحدة أحيانا، وبخاصة فى يوم الجمعة، مهرولًا نحو (البربا) ذلك الهيكل الذى بناه البطالسة تعبدًا للآلهة الفرعونية، واكتسابًا لشرعيتهم فى حكم مصر. بيد أن كثيرًا من نقوشها كانت قد عبثت بها الأيدى فى العصور اللاحقة، دون أن أعرف

دواعيها. ومما كان يزعجنى فى تلك الانطلاقة والتجوال حول (البربا) أو بين ممراتها جحافل الزنابير التى تطوف بها بصورة مستمرة ومزعجة ولاسعة أحيانًا.

كان أبناء (أسرة الأمير) قد كبروا واستقلوا عن بيت العائلة، (فجلال أفندي) ما يزال مدرسًا فى مدرسة "سلوا"، (والسيد محمد) من كبار تجار الدخان وبخاصة سجاير (ماتوسيان وكوتاريلي) حيث كنت أقوم بالتردد على متجره بين الحين والآخر، استمتع برؤية الناس بأزيائهم الأفندية والبلدية، وبحركة العربات الكارو أو (الحناطير) التى تقودها الخيل، وبها الخواجات ممن يقصدون إدفو لزيارة البربا. ولا أتذكر أن السيارة الحديثة وتكسياتها قد وصلت إلى المدينة خلال السنة التى قضيتها، مع أنها أحد المراكز الإدارية الأربعة التى تكون مديرية أسوان. ولما كانت تقع على الضفة الغربية لنهر النيل، فقد اقتضى مجيئى من "سلوا" وذهابى إليها فى الإجازات أن أحمل كيس أمتعتى للعبور فى (المعدية) المركب الشراعى إلى الضفة الشرقية حيث محطة السكة الحديد لأركب القطار القشاش، الذى يصل إلى "سلوا" بعد محطتين حيث كان فى استقبالى والدى دائمًا وبعض الأقرباء.

وحين أذكر إدفو وأسرة مضيفى الأمير، كان يلمع فى مخيلتى أحد أبنائها (مصطفى) الذى كان يدرس فى جامعة الملك فؤاد الأول بالقاهرة، ويتخصص فى مجال الآثار الفرعونية. ولقد كانت صورته – مع أننى لم أره – تداعب خيالى باعتباره الجامعى الوحيد الذى سمعت عنه من بندر إدفو. وملأنى هذا إعجابًا، وأثار لدى تساؤلات كيف يصل المرء ليتعلم فى الجامعة. وقد رسخت صورة (مصطفى الأمير) فى نفسى نموذجًا وقدوة، لا أشك فى أنها دفعتنى إلى اختيار قسم التاريخ حين التحقت بالجامعة فيما بعد.

ولم ألتق بهذه القدوة إلا بعد أن عاد هو من بعثته للتخصص فى التاريخ الأثرى لمصر الفرعونية حاصلًا على الدكتوراه من جامعة كمبردج، وقد أصبح أستاذًا فى جامعة القاهرة، وبعد أن عدت أنا من بعثتى فى جامعة لندن للتخصص فى التربية.

وأذكر أن ذلك كان فى منتصف الخمسينيات، حيث عاد بى حديثى معه أيام إقامتى مع أسرته، وتقديرى وعرفانى بفضلها وبفضل أخويه جلال أفندى والسيد محمد، وكانا قد انتقلا إلى رحمة الله. وقد استمر هو أستاذًا فى معهد الآثار بجامعة القاهرة، أستاذًا متميزًا فى تفرغه لعلمه وفى تواضع شخصيته. له إسهامات رائدة فيما فهمت منه، وفيما سمعته من بعض تلامذته فيما بعد من أنه أول من فك طلاسم اللغة الديموطيقية، كإحدى اللغات أو اللهجات الهيروغليفية. ويمثل فى هذا السياق (شمبليون) الفرنسى الذى فك طلاسم حجر رشيد. ولعلنا نذكره، كما ينبغى أن يذكره تاريخ علم الآثار فى مصر، إلى جانب كبار أساتذة هذا العلم العظام، من أمثال سليم حسن، وسامى جبره، وباهور من الرعيل الأول، وأبو بكر، وأحمد بدوى من الرعيل الثانى من علماء الآثار فى مصر ممن عاصرتهم حتى منتصف الستينيات.

وأعود إلى ذكريات مدرسة إدفو الابتدائية، وعودتى إلى قريتى فى مواسم الإجازات. أسترجع شعورى بالمتعة فى ركوب القطار وقد ألفت صعوده والنزول منه والتحرك خلال عرباته. بيد أن العودة إلى المدرسة وغرفتى وحيدًا فى بيت الأمير كانت تفرض معاناتها والتعبير عنها بالدموع أحيانًا، والتى كنت أخفيها على والدتى لسبب آخر، وهو افتراق ابنها البكر عنها. وتظهر نتائج امتحان النقل إلى السنة الثانية الابتدائية، ليكون ترتيبى الثالث فى هذا الصف. يشيع الفرح فى الأسرة، تزغرد الوالدة وأختى إشراقه، يتوافد الأقارب والجيران إلى البيت أو إلى (المنضرة/ الدوار)، أشارك فى تقديم الشاى والسجائر للضيوف.

ومع انتهاء الأسبوع الأول من العطلة، يحدثنى والدى عن احتياجاتى للعام القادم، لكننى بعد تردد واستحياء استجمعت تلقائيتى لأعبر لـه عـن معاناتى من المعيشة فى إدفو، وتطفح الدموع من عينى. تقترب الوالدة لتطلع على سر بكائى، يفصح لها الوالد بالمشكلة – تبادر والدتى بأنه لا داعى إذًا للاستمرار فى إدفو، وليعد أبننا إلى دفء بيته ومدرسته وكتابه فى "سلوا". يطمأنها الوالد

علـى أن الله سوف يوجد لـه مخرجًا للاستمرار فـى التعليم الـذى سـوف يدخلـه فـى زمـرة الأفندية.

ويحتدم الخلاف بين الطرفين، وتكشف الوالدة عن (مقنعتها) غطاء رأسها رافعة رأسها وكفيها داعية (ربنا يرد غربتك يا حامد يا وليد نزهة، بجاه النبى وآل البيت). يصمت والدي، ويربت على كتفي، مطمئنًا والدتى بأن (الله سوف يفرجها). ولقد كانت تلك الفترة عاصفة بالنسبة لي، يسودنى القلق وتتملكنى الحيرة بين موقف أمى وأبي، ولا أجد لدى القدرة على اتخاذ أى موقف أو قرار ذاتي؛ عين بين والدفء والاستقرار والالتصاق بالزرع وعين فى الطموح إلى مرتبة الأفندية، وتخيل ما تقود إليه حياة أكثر طمأنينة فى العيش المرفه، الذى يتمتع به أصحاب الطرابيش والبدل، والمحروم منه أصحاب الجلابيب الزرقاء، وحملة الفؤوس، ورعاة البهائم والمستسلمين لذل (الفِرْدة) والسخرة فى موسم الفيضان.

الانتقال إلى المدرسة الابتدائية فى أسوان:

وتشاء الصدف أن يزور القرية فى ذلك الوقت المرشح لعضوية مجلس الأمة صالح بك مشالى (وهو نائبها لعدة دورات). يعرض عليه والدى مشكلة استمرار تعليم أبنه، يقدم له مبلغ عشرة جنيهات مساعدة فى مواصلة تعليمه. يسلم والدى المبلغ إلى أمي، باعتبارها وزيرة الخزانة، معلقًا بأن هذا رزق الولد... وبعدها بأسبوع تأتى مصادفة أخرى، وأى مصادفة خارقة، حيث يزور القرية مقاول فى أعمال البناء والسفن. وحين يشرح له الوالد مشكلة تعليمي، يعرض عليه فكرة نقله لمواصلة تعليمه فى أسوان. يعده المقاول الكريم بأن يوفر له بيتًا فيها مع أحد عملائه، وأنه سيتكفل بنفقات إقامته طوال مدة الدراسة، واختلطت لدى أمى مشاعر الفرج مع معاناة الفراق.

وهكذا زالت الصعوبات وجاءت المصادفات بفرج الله، وانتقلت إلى مدرسة أسوان الابتدائية للعام الدراسى ١٩٢٨- ١٩٢٩م لأقيم مع أسرة (المعلم مرسي)

وكان من العمال المهرة فى (قلفطة ونجارة السفن•) ولما لم يكن لدى هذه الأسرة حتى نهاية السنوات التى أقمت معها أولاد، فقد تعهدتنى غذاء ونظافة ورعاية طيبة كما لو كنت أحد أبنائها، أسكن فى غرفة إلى جانب غرفتهم، أكل معهم، أتحدث إليهم، أسمع نصائحهم. ووضعوا فى غرفتى (لمبة جاز نمره ١٠) وهى أقوى وسائل الإنارة المنزلية فى ذلك الوقت، الذى لم تمسه أضواء الكهرباء فى حى (الشنقراب)، وهو حى شعبى فقير على الحافة الشرقية من أطراف مدينة أسوان. وعلى المساحة الصحراوية الممتدة أمامه، توجد بعض بيوت الصفيح التى يقال إن سكانها يشتهرون بصناعة (البوظة) -وهى غير مسمى البوظة اللبنانية / الآيس كريم- تصنع من الشعير المخمر، ولها تأثيرات مسكرة.

وفيما وراء هذه العشوائية، كانت تمتد مواقع قبائل البشارية التى كانت تجوس حى الشنقراب وتدخل إلى المدينة لقضاء بعض حاجاتها. ومما كان يثير إعجابى القامة المنتصبة لأهل هذه القبائل بلباسها الملفلف، يلف معظم أجزاء جسمها بقماش أبيض يكشف عن بعض أجزاء صدرها وظهرها، ويتجلى شعرها الأشعث مغروسة فيه شوكة المشط. وألحظ الرجل منهم، وهو يخطو مسرعًا فى ثقة يحمل عصا وراء ظهره ساندا إياها بذراعيه المرفوعتين إلى الخلف. وقد كنت كما كان يفعل بعض أطفال الحي، نسير وراءهم، نتأمل لباسهم أو نستمع إلى أحاديثهم بلغتهم التى لم نفهمها.

وكانت الأسرة الجديدة أمية، فيما عدا بعض القدرات الحسابية البسيطة والمتصلة بقياسات الطول والعرض مما تتطلبه مهنة (القلفطة والنجارة)، لا كتب فى البيت غير كتبى المدرسية، لا صحف ولا سينما فى أسوان المدينة. وكانت مغامراتى الترويحية فى الذهاب مع بعض الأصدقاء من أطفال الحى إلى خزان أسوان، كما كانت (البربا) إلى معبد إدفو مجالًا لانطلاق نفسى وترويحها. وكانت

• القلفطة فن حشو الفراغات فى أخشاب السفن بالليف أو الخيوط الشعرية، وطلائها بالزفت، وتعرف فى المعاجم بعملية (تقفير المراكب) أى ملء فجواتها (بالقفر) أى الزفت.

تتم رحلاتى إلى الخزان خلسة فى بعض الأحيان؛ مما عرضنى للتأنيب وفرك الأذن عقابًا وتأديبًا.

وقد أسعدنى قبيل أن أسافر إلى أسوان ما قدمه ضابط نقطة البوليس فى القرية هدية تشجيعية لي، هى قطعة قماش من الصوف الكاكى الذى يلبسه الضباط شتاء فى ذلك الوقت، لتفصيلها بدلة، وقد كنت فخورًا بها ومعتزا بلبسها شتاء، وقاية ووجاهة من برد أسوان.

أما مدرسة أسوان الابتدائية فقد كانت بناء واسعًا بدورين، وفيها مساحات وقاعات واسعة إلى جانب الفصول. وكانت امتحاناتنا فى النقل وفى الشهادة الابتدائية تحريرية وشفاهية فى اللغتين العربية والإنجليزية. أما المعلمون فقد كان معظمهم من مديريات الشمال، يشعرون بالضيق والتبرم لتعيينهم أو نقلهم إلى أسوان، وهى بلاد فى آخر الدنيا جديرة بالمغضوب عليهم والضالين. لكنهم مع ذلك كانوا يؤدون واجباتهم التدريسية وتصحيح الامتحانات الدورية بكل دقة وانتظام، ولم نكن نعرف شيئًا أو بدعة من نوع الدروس الخصوصية فى أى صورة من صورها.

ولعل من بين أهم ما استمتعت به فى هذه المدرسة انضمامى إلى ما كان يعرف بالقسم المخصوص، وهو فريق يختار لممارسة الألعاب الرياضية المتقدمة كالجرى والقفز على (الحصان) الخشبي، واستخدام ما يعرف باسم (الكلبظرات) أى (كلبز Clubs بالإنجليزية المعربة). وكان عدد الفريق لا يتجاوز (١٥) تلميذًا. كذلك سعدت باختيارى بعد مسابقة بين بعض تلاميذ الصف الرابع لإلقاء كلمة التلاميذ فى الحفل الختامي، الذى أقامته المدرسة فى نهاية ذلك العام الدراسي، وحضره مدير المديرية وجمع غفير من كبار الموظفين والأعيان فى مدينة أسوان. لكن ظروف والدى المالية لم تكن تسمح له بالمشاركة فى ذلك الحفل. وقد تسلمت من مدير المديرية جائزتى الخاصة وهى (ساعة ماركة تفانس)، كما تسلمت مع زملائى من

أعضاء فرق القسم المخصوص (منبهًا). وكانت هاتان المكافأتان يمثلان أول معدات تكنولوجية امتلكها. وعندما عدت بهاتين المكافأتين كان والداى أكثر سعادة منى بما أحرزت، وقد استحقا زغردة والدتى ودعواتها.

ومن المصادفات الجديرة بالتسجيل أن التحاقى بالمدرسة الابتدائية فى أسوان قد أثار الرغبة لدى اثنين من أعيان "سلوا" فى إلحاق ابنيهما بالمدرسة الابتدائية. وكان أحدهما ابن عمدة "سلوا قبلي" الذى ألحق ابنه بالسنة الأولى، وأنا فى السنة الثالثة واشترك فى الإقامة معى فى بيت المعلم مرسى فى حى الشنقراب، لكن ظروفه الصحية لم تمكنه من متابعة الدراسة فانسحب عن مواصلة الالتحاق بالمدرسة فى العام التالي. أما الشخص الآخر فكان من أعيان نجع (الشبيكة) والمسمى حاليًا (السيد سعيد) فقد التحق بعدى فى المدرسة الابتدائية فى (كوم أمبو)، وحصل على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية، ثم رافقنى بعد ذلك بمدرسة الملك فؤاد الأول الثانوية بسوهاج، لكنه لم يكمل دراسته لتعثره وعدم اهتمامه بدروسه، فلم يواصل دراسته وترك المدرسة ليصبح فيها بعد من وجهاء القرية وأعيانها.

ولعلى لا أكون مبالغًا أو متجاوزًا لحقيقة أن اقتحامى التعليم الحكومى الحديث كأول تلميذ من "سلوا" ونجوعها، قد كان خميرة وحافزًا لكثير من أبنائها وبناتها للالتحاق بذلك التعليم، خصوصًا منذ بداية الخمسينيات من القرن الماضى نتيجة لسياسة ثورة يوليو فى توحيد مرحلة التعليم الابتدائى فى مؤسسة واحدة، ألغت التعليم الإلزامى بطرقه المسدودة وتحولت مدارسه إلى مدارس ابتدائية منذ عام ١٩٥٢م. كذلك بنيت مدارس ابتدائية جديدة فى القرى الكبيرة بالمديرية، لكن ظل تعليم البنات مقتصرًا على إتمام المرحلة الابتدائية حتى منتصف الستينيات. وكان أول بنت تغادر القرية للتعلم فى خارجها هى ابنة أختى (زينب) التى التحقت بمدرسة المعلمات الأولية فى أسوان البندر؛ لتصبح بعد تخرجها أول مدرسة من أهل القرية تعلم فى مدارسها.

مع تعليم إخوتي:

وما دمنا بصدد الخميرة التى كونتها لتنشر التعليم فى قرية "سلوا"، أتذكر حالة أخى (أحمد) الذى كان الوليد الذى أعقبنى بعد ثلاث سنوات. لقد توقف تعليمه فى إتمام مرحلة التعليم الإلزامى والانتظام فى الكتاب حتى أتم حفظ القرآن فيه. ويرجع ذلك إلى أن الأحوال المادية للوالد لم تكن ميسرة ليتكفل بتعليمه مع مواصلة تعليمى فى المرحلة الثانوية والجامعية. وتجيىء مصادفته السعيدة فى مناسبة زيارة (الشيخ سيد)، وهو أحد من يتبرك بهم أهل القرية؛ نظرًا لأنه من أحفاد الولى الشيخ أحمد الليثى المدفون فى مقام له وسط موقع مقابرها، ويتردد أهل القرية على تقبيل يديه أثناء زياراته لها. وأثناء استضافة ذلك الحفيد خلال عطلتى الصيفية دارت مناقشة حول مسيرتى التعليمية، واقتصار أخى على التعليم الإلزامى وقيامه بدور العريف فى الكتاب. وأشار (الشيخ سيد) وكان رجلًا مستنيرًا، إلى إمكانية التحاق أخى أحمد بمدرسة المعلمين الأولية فى قنا، والتعليم فيها مجاني، وبها ترتيب لإسكان الطلاب. واقتنع والدى بنصيحته، وقرأ الجمع الحاضر الفاتحة على أن يوفق الله أخى إلى النجاح بهذا المعهد. وفعلًا نجح أخى فى امتحان القبول، وأكمل الدراسة فيه بالمجانية ليتخرج أول مدرس مؤهل للتدريس فى المدرسة الإلزامية بسلوا، ثم الابتدائية وتدرج فى سلك التعليم بعد ذلك، واحتل بعد وفاة الوالد موقع متحدث القرية وكاتبها ومستشارها.

أما الأختين (إشراقة وآمنة) فلم يتجاوز تعليمهما المرحلة الإلزامية. وقد أكملا مرحلتها لتتقنا القراءة والكتابة. أما أخى محمد (آخر العنقود) كما يقال فقد كان أسعد حظا فيما أعتقد، ذلك أنه التحق بالمدرسة الابتدائية التى تحولت من الإلزامية عام ١٩٥٢م، وكنت وقتها قد عدت من بعثتى فى الخارج، وتحملت تكلفة تعليمه حتى التحق بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية متخصصًا فى التاريخ، والتحق بوظيفة أمين للمكتبات حتى تقاعده. وهو اليوم بعد تقاعده منذ سنتين خير عون لى فى كثير من المهمات وقضاء الحاجات.

والخلاصة أن خميرتى قد أشاعت الرغبة فى التعليم الحديث، خصوصا بعد أن أصبح فى "سلوا" ونجوعها الآن (١٢) مدرسة ابتدائية وإعدادية، ومدرستان للتعليم الثانوى العام يشترك فى التعليم بها البنات مع البنين، ومدرستان للتعليم الثانوى الصناعى والتجاري، ومن الغريب ألا تكون فيها مدرسة زراعية. وبها معهدان أزهريان أحدهما للبنين والآخر للبنات. كما توافر لها عدد من الوحدات الصحية والبيطرية، ومراكز ثقافية واجتماعية، ويقال إنها مرشحة لأن تتحول من مجموعة قرى إلى مدينة.ومن الجامعات تخرج من "سلوا" طلاب من كليات الحقوق والآداب والتربية والتجارة، منهم أساتذة فى الكليات الجامعية ومحاسبين ومحامين وصيادلة ومعلمين ونظار ومشرفين فى المؤسسات والإدارات التعليمية ذكورًا ونساء. بيد أنه لم تقتحم كليات الطب أى فتاة حتى عام ١٩٩٩م حين التحق بكلية الطب / جامعة أسيوط حفيدتى الدكتوره (إيمان) وهى بنت بنت أختى آمنة، وهى اليوم طبيبة فى وزارة الصحة تعمل فى قرية الكاجوج والقرى المجاورة لها، وهى على مقربة من "سلوا".

نعود مرة أخرى بعد هذا الاستطراد، إلى الصبى (حامد) الذى هو أنا، وقد أنهى دراسته فى المدرسة الابتدائية فى أسوان. وتظهر النتيجة لأجد ترتيبى الأول بين طلاب المدرسة، ورقم (١٨٠) على مستوى القطر من حوالى سبعة ألف ناجح فيما أتذكر. ومع إعلان النتيجة فى البيت لعلعت الزغاريد وامتدت إلى الجيران، وانعقدت الأفراح والتهانى فى خيمة القبيلة. وغدا اسمى مقترنا بلقب (أفندي) منذ ذاك التاريخ، بدلًا من لقب (الشيخ) السائد فى ألقاب الاحترام فى القرية.



الحكاية الخامسة
مغامرة التعليم الثانوي

فى مدرسة الملك فؤاد الأول الثانوية:

ومع هدوء عاصفة الابتهاج والأفراح والليالى الملاح، بدأ والدى يستفسر من معلمى المدرسة الإلزامية عن مستقبل هذا الغلام باعتبارهم أعلم بنظام التعليم. وكان (جلال أفندي)، الذى فتح لى طريق المدرسة الابتدائية على وشك الانتقال إلى إحدى مدارس القرى القريبة من بلده إدفو، بعد أن قضى خمس سنوات فى مدرسة "سلوا" مشاركًا فى ذلك الاجتياح، وكان صاحب الرأى المتشدد فى السعى إلى مواصلة تعليمى فى مرحلة التعليم الثانوية. وتبدو الصعوبة لدى والدى حين يعلم أنه لا توجد مدرسة ثانوية فى مديرية أسوان، وأن أقرب مدرسة ثانوية فى سوهاج (مديرية جرجا وعاصمتها جرجا) فى ذلك الوقت أى عام ١٩٣١م. وإذا كانت مصروفات ثلاثة جنيهات قد مثلت عبئًا على والدي، فما باله بمصروفات (٢٠) جنيها فى القسم الخارجي، و(٤٠) جنيها فى القسم الداخلي. وكنت حاضرًا لتلك المناقشة. وما زلت مستغرقًا فى مشاعر النجاح الذى أكسبنى ثقة بالنفس، فقلت

لوالدى هذه المرة (ربك يفرجها) فأجابنى هل تعلم أن مصروفات السنة الواحدة بالقسم الداخلى تساوى ثمن فدان طين، فما بالك بمصروفات خمس سنوات.

ويتابع (جلال أفندي) تقديم معلوماته بأنه تيسيرًا لأهالى مديرية أسوان، فإن الحكومة قد قررت قبول المتفوقين من أبنائها بربع مصروفات أى عشرة جنيهات فى السنة، أى ربع فدان، ولم يكن يملك والدى ووالدتى أكثر من ثلاثة أفدنه وأربع قراريط وستة أسهم. واتخذ القرار على تجربة السنة الأولى بالمدرسة فى سوهاج عملًا بالمثل المتفائل (على العبد التدبير وعلى الله التيسير).

ولم يتوان والدى عن إعداد وثائق الالتحاق بمدرسة الملك فؤاد الأول الثانوية فى سوهاج مشتملة على استمارة طلب الالتحاق وشهادة إتمام التعليم الابتدائي، والتماس بطلب منحى المجانية الكاملة فى القسم الداخلي، مقرونًا بـ (شهادة الفقر موقعة من عمدة "سلوا بحري" واثنين من مشايخ (الحصة) بها، ومعتمدة بخاتم مديرية أسوان. وأرسلت مع أحد السلواوية، أتذكر أنه من بيت (العاصي) ليسلمها إلى المدرسة فى سوهاج، وقد كان يعمل فراشًا فى هذه المدرسة، وفى إجازته الصيفية بسلوا. وأى صدف ميسرة هذه !!

وقد كنت أنتظر مع والدى البريد من أسبوع لأسبوع، ظنًا منا بأن المدرسة سوف تقوم بالرد علينا بمجرد وصول الطلب، وما كنا ندرى أن للبيروقراطية أحكامها. وقبل أسبوع من بداية العام الدراسي، أبلغنا (العاصي) بأن اسمى قد ورد فى كشوف المقبولين الجدد بالمدرسة.

ذهبنا على الفور إلى سوهاج، وقد كان (العاصي) مضيفنا دليلنا حين التقينا بالموظف المسئول عن قبول الطلاب، وهنأنا بالقبول، وقدم لنا كشفًا بالاحتياجات اللازم توافرها وشراؤها للالتحاق بالقسم الداخلى. ولما سألناه عن المجانية أشار علينا بأنه يلزم دفع القسط الأول كاملًا مع الرسوم، وقيمته اثنا عشر جنيها، حتى

يتم اعتماد شروط المجانية وانطباقها على حالتي، وقد يستغرق ذلك بعض الوقت، وبعدها يرد إلينا القسط المدفوع.

أصاب والدى الذهول فلم يكن على استعداد لدفع هذا القسط، على اعتبار أن القبول يعنى المجانية أيضًا. طمأنه العاصى على أنه سيدبر له هذا المبلغ، وقد وفى الرجل بوعده مشكورًا، ومترحمًا عليه كلما تذكرت تعليمى فى سوهاج، خاصة وأنه قد استضافنا فى شقته، التى كان يقيم فيها خلال الأسبوع قبل بدء الدراسة.

أما عن لائحة المطلوب منا شراءه للقسم الداخلي، فقد تضمنت:

٢ ملاءة للسرير بمواصفات معينة

٢ كيس مخدة بمواصفات معينة

٢ فوطه وجه

٢ فوطه حمام

١ ناموسية للسرير

١ كيس غسيل

وأعجبتنا كما أقلقتنا هذه القائمة؛ إذ ليس لنا معرفة بمفرداتها الحضارية سوى فوطة (بشكير الوجه)، كما كان علينا أن نشترى بدلة جديدة ذات بنطلون طويل، وليس قصيرًا كما كانت بدلة المدرسة الابتدائية. وقد حمدنا الله بأن ما كان فى جيب والدى قد غطى تكلفة هذه المطالب، والتى لم تتعد فيما أتذكر خمسة جنيهات.

وقد قادنا مرشدنا (العاصي) إلى المتاجر التى تشترى منها هذه الأشياء، نظرًا لخبرته فى هذه المدينة. أنجزنا تلك المهمات، وأحسست بفيض من المشاعر والرهبة بأنى مقبل على عالم آخر من التعليم والحياة يليق بالأفندية.

ذهبنا مع دليلنا إلى عنبر النوم، وبه حوالى (٤٠) سريرًا، فرشها أصحابها واهتدينا إلى رقم سريري، وقام الرجل دليلنا بفرش السرير ووضع المخدة فى كيسها، وترتيب بقية الأشياء فى الدولاب، ثم أخذنا إلى مواقع الحمامات بدورات مياهها، وغرف

أدشاشها وما تمطره من مياه باردة وساخنة. ثم قادنا إلى المطعم وصالة الطعام الفسيحة التى يتناول فيها طلاب الداخلية الوجبات الثلاث، ويشاركهم طلاب القسم الخارجي فى طعام الغداء.

ويبدأ يومى الأول فى المدرسة لأقف مع صفى فى طابور الصباح الذى كان يشرف على تنظيمه ضابط الألعاب الرياضية، الذى عين فى المدرسة بعد تركه الخدمة بالجيش. وبعد انتظام الصفوف يطل علينا ناظر المدرسة والصفوف كلها منتظمة، يسودها الصمت والتطلع إلى هامة الناظر الطويلة وبشرته البيضاء، كما لو كان شركسيًّا. يخلع نظارته ثم يلبسها ليبدأ إعطاءنا تعليماته بالنظام وحسن السير والسلوك، وبالاعتزاز بالتحاقنا بهذه المدرسة، ويهدد ويتوعد كل من يخالف النظام أو يشوشر فى الفصول، أو يتعارك مع زملائه بأقسى العقوبة من ضرب أو وقوف أمام حجرته لساعات أو الطرد أو استدعاء ولى أمره. ثم ينصرف إلى الدور الأعلى لكى يقف أمام غرفته مراقبًا مرور طوابير الفصول واحدًا واحدًا. وهكذا من أول لحظة استطاع أن يفرض هيبته وسلطانه على الطلاب. ولا عجب فقد كانت هيبة ناظر المدرسة الثانوية فى المدينة لا تقل عن هيبة مدير المديرية.

وباختصار بدأت اتكيف مع قواعد الدراسة والحياة فى المدرسة. وكان من أسعد أوقاتها فى بدايات العام الأول استدعائى إلى مكتب (البيه الناظر) ليهنئنى بالحصول على المجانية، وبالذهاب لتسلم ما دفعناه فى القسط الأول نقدًا بعد خصم جنيهين رسومًا أى تسلمت (عشرة جنيهات). أرسلت لوالدى تسع جنيهات واحتفظت بجنيه لمصروفى الخاص، وقد كان جنيها واحدًا كل شهر.

* لقد كانت الحياة فى المدرسة بالنسبة لى واحة فيحاء، مقارنة بما عانيته من حياة فى فترة المدرسة الابتدائية سواء فى إدفو أو فى أسوان، ونعمت هنا بالطعام الجيد المتنوع ووجباته الثلاث، وبالنوم المريح على مرتبة ووسادة وناموسية تتدلى حول السرير لتحمى من الناموس. هذا إلى جانب دورات مياه نظيفة، ودُش

بالماء الساخن، وبقاعة استذكار تضيئها الكهرباء بعد لمبة الجاز. وللاستذكار مواعيد محددة فى أوائل الليل، وعليها مشرفون من المعلمين لضبط النظام والمعاونة فيما يجده الطالب من صعوبة خلال استذكاره.

* أما المدرسون العظام فكانوا نماذج متميزة بعلمها وثقافتها واعتزازها بنفسها، وبالمنشة (مثل ذيل الحصان) ويدها العاجية، التى يحملونها معهم فى غدوهم ورواحهم. وكان عدد منهم ممن عادوا من بعثات للتخصص فى إنجلترا.

* أذكر منهم مع الاحتفاظ بالألقاب "صلاح قطب" مدرس الطبيعة والكيمياء، والذى اصبح عميدًا لكلية التربية جامعة عين شمس ثم رئيسًا للجامعة فيما بعد. ولا أنسى كيف شد انتباهنا وبهرنا فى أول حصة للكيمياء، حين بدأها فى معمل المدرسة بوضع مادة الفسفور فى محلول لتشتعل، وشريط المغناسيوم الذى يولعه فتشع أضواؤه.

* ومن الأساتذة أيضًا "أبوالعينين" مدرس اللغة الإنجليزية، تبدو على سيماه ملامح الشباب، وقد عاد لتوه من إنجلترا فنستمع إلى نطقه بالإنجليزية كما لو كان إنجليزيًا. وقد أصبح فيما بعد رئيسًا لتحرير مجلة الجازيت التى تصدر بالإنجليزية فيما أتذكر.

* وكيف لا أتذكر الأستاذ "روفائيل" مدرس التاريخ، وهو يتماهى مع الأحداث التاريخية شارحًا الثورة الفرنسية، وكأنه أحد رجالها يحرض على الثورة واقتحام الباستيل كما لو كان ميرابو.

* أما مدرس اللغة العربية، فكان بحرًا فى مادته، يتطرق فيما يقدمه إلى أمثلة وحكايات خارج النصوص المقررة، يستمدها من الأغانى ومن ذخائر كتب التراث التى كان يقرأ من كتبها فقرات أحيانا. وأذكر أنه قد كلفنا بكتابة موضوع إنشاء عن أثر الموسيقى والغناء فى حياتنا، ومضى يحكى لنا كيف كان العرب مولعين بالفنون والموسيقى والغناء، كما يستدل بذلك من قصة الخليفة

الأموى معاوية الذى حضر "حفلًا" للغناء، وكان يجلس بجانبه عمرو بن العاص. فلما هز الطرب مشاعر الخليفة أخذ يحرك رجليه ويديه مع إيقاعه. ولما تكرر ذلك التفت إليه عمرو بن العاص، مذكرًا إياه بأن هذا الاهتزاز لا يليق بأمير المؤمنين، فكان رده فى هذا الصدد (أسكت لا أبا لك، كل كريم طروب). وأردف الأستاذ ذلك بمقولة الإمام الغزالى (من لم يهذبه الربيع وإزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج). أتذكر هذا وإقارنه بما تتلوث به عقول بعض طلابنا الجامعيين من تحريم الفنون والمسرح والغناء وكل تعبيرات الإبداع الفني.

* أما مدرس الجغرافيا، فأذكر له إلى جانب لوحات الخرائط وصور الحيوانات والنباتات، ما كان يعرضه علينا من الصور فى المجلة الإنجليزية

National Geographic Magazine.

شقاوة الطلاب الصعايدة:

* كما كان فى المدرسة مدرسون أجانب للغتين الإنجليزية والفرنسية أما مدرس اللغة الإنجليزية واسمه مستر (جونز) فقد كان فى لسانه لثغة ظلت مصدر (تريقتنا) عليه حين نرد عليه بكلمة ثير (سير). وفى إحدى حصصه كلفنا بأن نقدم موجزًا لفقرات من كتاب (قسيس ويكفيلد)Vicar of Wakefield ولما عرضت عليه ما قمت به لم يعجبه، وطلب منى إعادة ما كتبته فهو يريد عبارات قصيرة واضحة مثل Olivia loves Mr. Thornhill. ويبدو أنه لم يتفاءل بتنفيذ ما طلبه، فسألنى ماذا يصنع والدك؟ قلت فلاحًا، فأوصانى بأن أذهب معه لأزرع البصل هناك، فأجبته (لماذا لا تأت معى) بالعربية طبعًا.

أما مدرس اللغة الفرنسية، فقد كان أنيقًا، وكنا نعجب ببدلة (الشارك سكن) البيضاء التى يلبسها أحيانا فى الصيف. ولنا معه حكاية طريفة، مفادها أنه من مقررات تعليم هذه اللغة حفظ بعض القطع الأدبية كالأشعار وأوصاف الطبيعة.

وكان منها قطعة شعرية تتحدث عن قريتي الجميلة Mon beau village أذكر مطلعها:Connais tu mon beau village qui se mire au clair ruisseau?

(أمل أن يكون الهجاء صحيحا) هل تعرف قريتي الجميلة التي تنعكس صورتها على النهر الرائق؟

وكان في فصلنا طالب اسمه مصطفى عمرو، والده من كبار تجار الحرير في أخميم على الضفة الأخرى من النيل، وكان صاحبنا غير مكترث بعملية التعلم بصورة عامة. وقد تصدى لمهمة الزعامة في الفصل لجرأته وعدم اكتراثه، وهو من طلاب القسم الخارجي. وكان علينا أن " نسمِّع هذه القطعة، التي من المفترض أن نكون قد حفظناها عن ظهر قلب. لكن مصطفى الأخميمي لم يعبأ بحفظها، وقبل حصة التسميع جاءته فكرة شيطانية، حين قام بكتابة القطعة كلها كما تنطق فرنسيًّا بحروف عربية على السبورة (كونتى مون بو فيلاج... إلخ). وجاء دوره في التسميع وإذا به يستثير إعجاب المسيو بحفظه مما لم يعهده فيه من قبل. فأثنى عليه، عظيم يا مصطفى. ثم سأله عن معنى (كلير) فتوقف مصطفى عن الإجابة، وقام المسيو بمسح السبورة ليكتب كلمة (كلير) وشرح معناها، وظل مصطفى متوقفا عندما طلب منه أن يقرأ الكلمة ومعناها. ثم أخذ المدرس يدعو بعض الطلاب الضعفاء إلى التسميع، فتوقف الجميع، ثم أخذ يدعو الطلاب المجتهدين فتعثروا أيضًا، حيث إن الفصل كله كان معتمدًا على قراءة ما على السبورة.

وهنا أدرك المسيو الفرق بين مستوى الحفظ قبل مسح السبورة وبعدها، ولم يكن أمامه إلا " يصفِّرنا " جميعًا. ولم يكن أمام "مصطفى " فيما بعد وهو جالس في آخر مقاعد الفصل إلا أن يأخذ بالثأر، فانتهز فرصة مرور المسيو وهو يدير ظهره له أثناء تجواله بين الصفوف ليقذف بنقطة حبر من ريشة قلمه على جاكتة المسيو البيضاء.

* ومن الأحداث الطريفة في تلك الأيام أنه كان يقدم لنا في وجبة الإفطار بيضتان مسلوقتان مرتين في الأسبوع، وفجأة تختصر إلى بيضة واحدة، فيدعونا زعيم

آخر فى القسم الداخلى اسمه (فيكتور) إلى عدم أكل البيض، والتجمهر بعد الإفطار والمطالبة بعودة حقوقنا المغتصبة. ونزحف جميعًا وكان عددنا حوالى ثمانين طالبًا فى القسم الداخلى للتجمع أمام غرفة الناظر الذى لم يخرج لمقابلتنا. لكنه انتظر فرصة طابور الصباح العام؛ ليدعو ثلاثة أسماء من أضخم الأجسام إلى انتظاره أمام غرفته. ويقرر فصلهم من الدراسة لمدة أسبوع مشترطًا عودتهم بعد مقابلة أولياء أمورهم. إزاء ذلك أضربنا عن الدروس، وعن الغداء، فاضطر إلى العفو عن القادة الثلاثة، على إلا نعود إلى الاحتجاجات بهذه الصورة مرة أخرى.

* ومن هذه الشقاوات أذكر فى إحدى السنوات أن مدرس اللغة العربية، الذى كنا نحبه قد تمت ترقيته بنقله إلى إحدى مدارس القاهرة، وجاءنا مكانه مدرس قصير القامة، تغلب على ملامحه الصرامة وعبوس الوجه. فأطلقنا عليه لقب (خنفس أفندي). وذات مرة لم يتردد زعيمنا (مصطفى) من أن يجسد شخصيته، فأحضر معه (خنفسة) ميتة ووضعها على الطاولة التى يضع عليها المدرس دفاتره. فلما قدم إلى الفصل تخوف مما رآه عليها، قائلًا وهو يزيحها عن الطاولة (ما هذا؟)، وكانت الإجابة الجماعية من الفصل واقفين صائحين (خنفس أفندي) مع إدغام (يا) !!

* وعلى النقيض مما سبق كان من بين الذكريات المشعة تربويًّا زيارة الأستاذ على الجارم كبير مفتشى اللغة العربية للمدرسة. وزيارة المفتش كانت من المناسبات التى تجعل المدرسة فى حالة طوارئ. وتصادف أن قدم إلى فصلنا ونحن فى السنة الأولى قسم البكالوريا، وكان الدرس فى متن اللغة حيث كان يعنى هذا المقرر بالتعرف والحفظ على المترادفات فى أسماء الأشياء والصفات والأفعال، وأمثلتها من التعبيرات النثرية والشعرية. وكان اللفظ عند مجيئه ونحن نتعرف على معانى السرور ومرادفاتها منها، مغتبط مبتهج جذل، كما كان واردًا فى

نصوص الكتاب المقرر. شارك المفتش العملاق فى المناقشة، وأضاف إلى صفة (جذل) الواردة فى الكتاب كلمة (جذلان)، مرددًا قول الشاعر:

من سالم الناس يسلم من غوائلهم وبـات وهو قريـر العـين جذلان

وأردف قائلًا إن الكتاب المقرر لا يحوى كل المعرفة، وإنما هو بداياتها، وعليكم أن تستكملوا معارفكم من كتب وقراءات إضافية.

أتذكر هذا مع ما تذكرته من أمور الدراسة والمدرسين فى أيامنا مقارنًا له بما نشهده فى أحوالنا الدراسية المحزنة اليوم، ودون تفصيل أو تعليق!!

معذرة إن أطلت فى سرد ما تذكرته من مجريات الأحداث التعليمية، وشقاوة الطلاب. ولابد من استكمال بنية المرحلة فى المدرسة الثانوية، التى كانت تتألف من قسمين تسمى سنواتها الثلاث الأولى وتنتهى بامتحان (شهادة الكفاءة) ويشترط النجاح فى امتحانها للانتقال إلى السنتين التاليتين، واللتين ينتهيان بما عرف باسم شهادة البكالوريا المؤهلة للالتحاق بالجامعة، وتنقسم إلى شعبتين أدبى وعلمي.

وكانت امتحانات الكفاءة تشمل أسئلة من مقررات السنوات الثلاث، وكذلك البكالوريا من مقررات السنتين، وكانت بذلك عيون الغربالين ضيقة تبقى على سطحيهما عديدًا من الطلاب لتلقى بهم خارج النظام التعليمي.

من همومى النفسية:

أما أحوال (الفتى حامد) الذى هو أنا فإنه مع ما أحس به من راحة ومتعة فى المعيشة، إلا أنه كانت تنتابنى أحيانا مشاعر الغربة أو النقص وسط الغالبية العظمى من الطلاب الموسرين أبناء كبار الموظفين والملاك الزراعيين والتجار، أذكر منهم ابن مدير المديرية، وعائلات الشريف، وأبو رحاب، وعبد الآخر، وأبو سحلي، وعمرو من مديرية جرجا وقنا، وأبو حميد وعبد الغفور من إدفو وأسوان. كما كان معى طالبان من النوبة ممن يتشابهان معى فى المظهر والأحوال الاجتماعية والواقع.. لقد

كان التعليم الثانوي والجامعي حقًا من نصيب الطبقات العليا والبرجوازية أيام الاحتلال البريطاني حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م.

لقد كان مظهري يشي بتواضع حالتي، كما كانت نحافتي وقصر قامتي في مقارنة مع معظم أولئك الموسرين، ومع ما يشترونه من شوكلاته من (كنتين) المدرسة التي لم أعرف طعمها آنذاك. وأذكر أن قيم الكُتاب وأيديولوجية القرية قد وضعت (تابو) على أكل الحلويات والدندرمة (الآيس كريم) مما كان يستمتع بها أهل المدن، على اعتبار أنها من عادات الأولاد (البطالين والمنحرفين) ولا داعي لذكر الصفة باسمها الحقيقي، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. واستمر معي هذا (التابو) حتى اليوم في تناول الآيس كريم بمبررات صحية طبعًا، لكنه انقشع عن أكل الشيكولاته، وإن كنت لست من المغرمين بها، مفضلًا عليها الفول السوداني والحمص مما كنت استمتع به أيام سوق السبت في مرحلة الطفولة بالقرية.

ولعل تفوقي في الدراسة، حيث ترتيبي من الأوائل في كل السنوات، كان من الميكانيزمات التعويضية التي كانت سندًا لثقتي بنفسي وما صاحبها من تقدير الزملاء والمدرسين. ومن بين هذه الميكانيزمات أيضًا اقتحامي لمجالات الألعاب الرياضية من تراث (القسم المخصوص) في مدرسة أسوان الابتدائية. وقد تمكنت في المرحلة الثانية (قسم البكالوريا) أن أصبح في الفريق الأول للمدرسة في تنس الطاولة، وفي كرة القدم والسلة. وكنا نتبارى مع مدرسة قنا الثانوية (قسم خارجي فقط) منذ تأسيسها عام ١٩٣٤م، وكنا ننتصر عليها دائمًا في كرة القدم، فنرسل برقية الفوز في صورة مختصرة متكررة (اثنان كالمعتاد).

لكننا كنا نخسر دائمًا مع فريق كرة القدم في مدرسة أسيوط. وكلفت حين أقامت لنا المدرسة حفلًا أن أقول كلمة لمضيفنا، أذكر منها بعد تقديم الشكر ما كنت قد تعلمته من صياغات الكناية والتورية مشيرًا إلى أن (فريقكم يتميز دائمًا بأنه بارز الصدر، عالي الكعب، لايجاريه فريق في رشاقة وسطه، أو مغازلة أو صعوبة في

دخول مرماه) وقد كان وراء هذه العبارات ما وراءها من التنفيس الصعيدى عن مرارة الهزيمة. بيد أن اللعبة الرياضية الوحيدة التى لم أتمكن من ممارستها كانت (التنس) لأنها كانت تتطلب اشتراكًا قيمته نصف جنيه كل شهر، وكنت أكتفى بمراقبة اللاعبين فى ملعب المدرسة، معجبًا ومتحسرًا لعدم القدرة على اقتحامه. وكان إعجابى بذلك اللاعب الذى كان يلعب وحده مع مدرب خاص له، يمتلك جسمًا رياضيًا رائعًا يدل على نعمائه. وتبين لى أنه كان أحد أبناء الأمراء الذى أرسل أو ربما (نفى) إلى مدرستنا، وكان يقيم فى حجرتين خصصتا له للنوم والأكل والدروس الخصوصية، ولم يختلط معنا فى أى شأن من شئون حياتنا فى المدرسة، وكان تعليقنا كلما رأيناه بقامته وزيه الأبيض اللامع فى ملعب التنس (طبعًا أمير ياعم) !!

وكانت هموم استمرارى فى الدراسة مما كان يشغلنى ويشغل والدى بأكثر مني؛ إذ كان منحها على أساس التفوق فى كل سنة مقرونًا بتقديم بشهادة الفقر كل سنة، كما لو أن الفقر لم يكن قدرًا جاثمًا مقيما ينزاح بعد كل سنة أو فيما بين سنتين. وقد تحقق لدى الشرطان خلال سنوات الدراسة، لكن تكاليف التعليم بخلاف المصروفات مثلت عبئًا ثقيلًا للوفاء بحاجات الملابس والسفر ومصروف الجيب، اقتضت فى سنتى مرحلة البكالوريا تضحية من والدى بيبيع بعض القراريط التى تمتلكها والدتى وأغلى ما عندها من كردان الذهب. ولعل اللجوء إلى بيع قراريط والدتى وليس والدي، مرتبط بأنه كان من أبشع ألوان العار أن يبيع الرجل أرضه، أما بيع أرض الزوجة أو المرأة عمومًا فلم يكن شائنًا بالقدر نفسه. ولا أنسى كذلك ما كان يرسله بعض الأقارب أو الأصدقاء (المصراوية) الذين يعملون فى القاهرة من بعض المعونات العينية كالشرابات أو المناديل أو القمصان.

الفرح بالهدايا والمعونات:

وكان من بين هدايا المعونات الأهلية ما قدمه لى أحد الأقرباء المصراوية وهى قطعة قماش بدلة، وكان ذلك أيضًا فى بداية سنة البكالوريا. فرحت بها أيما فرح،

وطلب منى والدى أن أفصِّلها فى سوهاج، لأن الترزية بها أحسن من ترزية أسوان. والشائع فى عرف القرويين أن كل ما فى الشمال أفضل مما فى الجنوب. اصطحبت القماشة معى إلى سوهاج بعد انقضاء العطلة الصيفية. ومع انشغالى بالدرس والرياضة نسيت مسألة تفصيل القماشة حوالى شهرين، ليذكرنى خطاب من الوالد يستفسر عن أمرها.

لذلك ذهبت فورًا إلى الترزى لتفصيلها مصطحبًا معى أحد زملائى النوبيين، وكانت تكلفتها غالية تقاضى عليها الترزى خمسين قرشًا. وبعدها مباشرة أرسلت برقية إلى الوالد بأقل تكلفة بعبارة (فصلناها بصفين). وعندما حكيت قصة البرقية وصياغتها لزميلى الفاضل المرحوم د. قدرى لطفي، الأستاذ بكلية التربية فى مناهج تدريس اللغة العربية، ضحك ضحكة عالية على نص البرقية قائلا (هذا أبلغ ما قالته العرب) فلما استفسرت عن تعليقه، قال إن البلاغة تتمثل بالإيجاز والتعبير الدقيق عن مقتضى الحال وعن مدى تأثير الرسالة، وفى برقيتك كل هذه المقومات البلاغية!!

من عجائب المصادفات:

* وفى تلك السنة نفسها، عام ١٩٣٦-١٩٣٧م، وما بعدها تلاحقت المصادفات والخبرات العجيبة. أولاها، ما أنعم الله به عليَّ من مصروف للجيب، يخفف من عبثه على والدي. ففى ١٩٣٦م. يزور القرية مدير المديرية، وكانت مثل تلك الزيارة حدثًا مهيبًا فى حياتها. يدور الحديث بين أعيان القرية وضابط نقطة البوليس عن ضرورة الترحيب بالضيف الكبير، واختيار خطيب فى الاحتفال يشكره على تشريفه لديارنا المنسية. ويقع الاختيار على (الأفندي) الوحيد فى القرية. وألقيت خطابى بأعلى ما عندى من صوت، مرتديًا جلابيتى الريفية وعمامتى الصغيرة، مما كنت أتزياه عادة عند مجيئى إلى القرية.

ويبدو أن سعادة المدير قد أعجب بالكلمة، بل لعله كان أكثر إعجابًا بأن يجد فى

هذه القرية متعلمًا مثلي. يتساءل المدير عن هذا الفتى الفلاح، استدعانى لأقول له إنى طالب من أبناء القرية حاصل على شهادة الكفاءة وأكمل دراستى الثانوية فى مدرسة الملك فؤاد الأول فى سوهاج. وأراد أن يتأكد فاستدعى العمدة ليستوثق من معلومة أننى من أبناء هذه القرية، فأفاده بأننى "سلواوي" أبًا عن جد. ثم استدعانى مرة أخرى ليعلن تشجيعه لي، ووعدنى بتقديم مساعدة مالية لاستكمال تعليمي.

وعند عودته إلى أسوان طلب من مجلس المديرية منحى مكافأة تشجيعية قدرها جنيها فى الشهر، وقد تمت زيادتها إلى جنيهين بناءً على التماس قدمه والدي، عندما التحقت بالجامعة.

* أما المصادفة الثانية، فقد ارتبطت بتفاقم الأزمة المالية العالمية وضغوطها على الأحوال فى مصر. وكان من مواقع ترشيد الإنفاق، كما نزعم اليوم، إلغاء مبدأ المجانية فى المدارس كلها مهما كانت أوضاع الطلاب أو استثناءاتهم السابقة. واضطر الوالد إلى التضحية ببيع بعض من قراريطه هذه المرة، فالضرورات تبيح المحظورات. ثم يأتى الفرج ليمن الله على الملك فؤاد بالشفاء من عملية غرغرينة فى رقبته، فيصدر من "نعم إحساناته" بإعفاء العشرة الأوائل فى كل مرحلة تعليمية من المصروفات لذلك العام.. وهكذا كان فضل الله عليّ عظيما.

* أما المصادفة الثالثة فقد اقتضتها زيارة (فاروق ولى العهد وأمير الصعيد) لمدرستنا. ومن برامج الاحتفال بهذه الزيارة اختيار مجموعة من الطلاب وتدريبها على مقطوعة زجلية لإنشادها فى حضرة ولى العهد، أتذكر منها مطلعها:

أيا نَعْسَه وخَبِّريني، يابوى عا النور دا جـاى مِنين

دا النور لَغْلَط فى عيني يا بوى وحياة سِدْنا الحسين

واحتفالاً بهذه المناسبة السعيدة تستمر المقطوعة:

وطبخنا مهلبية، وعَطِينا للجيران

قَرَّقْنا الطوحنية، واضحك لى يا زمان

عيقولوا دمقرطاني، ويحب الناس كتير

لقيتك بحر طامي، يروى حاجة الفقير

وقد تكرَّم بمنح كل طالب من فريق الإنشاد عشرة جنيهات بالكمال والتمام، وافرح لى يا زمان بعد أن أصبح جيبى دافئًا !!

وعلى أثر الاحتفال، احتدم النقاش بين بعض طلاب البكالوريا حول مصداقية ذلك الزجل، ونوع النفاق الذى تضمنه. ومع ابتهاجى بالمشاركة فى تلك المناسبة الملوكية وجنيهاتها العشرة، إلا أن النقاش أشعرنى بما يمكن أن يكون من فجوة بين الخطاب الرسمى ومجريات الواقع وأحواله منذ ذلك التاريخ. والواقع أن الجو العلمى والاجتماعى والسياسى فى المدرسة، كما فى خارجها، كان خصيبًا ومخصبًا خلال سنوات مرحلة البكالوريا بالذات؛ إذ تمخضت داخل الفصل وخارجه صداقات ومنافسات، واحتدمت مناقشات ومناكفات، وتنوعت الآراء والانتماءات الحزبية.

* ومما حظيت به من امتيازات حيث تابعت ترتيبى الأول خلال السنة الأخيرة للبكالوريا، أن خصصت لى ساحة إحدى الفصول لاستذكر فيها بمفردي، وليس ضمن قاعة الاستذكار العامة، مزودًا بالطباشير، وبمعونة من أرجوه من المعلمين. وقد منحت هذا الامتياز خلال الأشهر الثلاثة قبل الامتحان، ولم أخيب أمل المدرسة الذى راهنت عليه.

وتنتهى مرحلة المدرسة الثانوية بشهادتيها الكفاءة والبكالوريا، عام١٩٣٧م والتى كانت آخر أنفاس ذلك النظام للمدرسة الثانوية، فبعدها مباشرة تحول النظام إلى ما عرف بنظام التوجيهية. وقد كان الامتحان النهائى لشهادة البكالوريا ينعقد فى

مدرسة أسيوط؛ ليضم المتقدمين إليه من طلاب مدرسة قنا وسوهاج وأسيوط، حيث كانت الأعداد قليلة. وكانت المدرسة الثانوية متاحة فى عواصم المحافظات، وحوالى خمس مدارس فى القاهرة واثنتين فى الإسكندرية إلى جانب بعض المدارس الخاصة.

تظهر النتيجة ويأتى ترتيبى السادس من بين مجموع الناجحين فى القطر، وتنشر صحيفة الأهرام أسماء العشرة الأوائل، وقد أطلعتنى منذ حوالى خمس سنوات أمينة مكتبة وزارة التربية والتعليم على صحيفة الأهرام، التى بها أسماء العشرة الأوائل فى عام ١٩٣٧م. وأرجو بعد أن تذكرت ذلك، وأنا أكتب هذه السطور أن أصور نسخة من تلك الصحيفة، إن استطعت إلى ذلك سبيلًا.

وقد كان لظهور اسمى فى الصحف لأول مرة وقع عميق بالاعتزاز، كما آثار موجة هادرة من الزغاريد بأن اسم (ولد الشيخ مصطفى فى الجرنان). ومن الصدف العجيبة فى نتائج هذا الامتحان أن تشاركنى فى ترتيب السادس مكرر فتاة اسمها (سيدة إسماعيل الكاشف) ومما يزيد الصدفة عجبًا أن تزاملنى فى كلية الآداب (قسم التاريخ) وأن نتفوق معًا لنتزامن فى دراسات الامتياز، التى توفر للحاصلين على مجموع ٧٥٪ فى امتحان النقل من السنة الأولى إلى الثانية، مع الاستمرار فى الحصول على هذا المجموع حتى نهاية السنة الرابعة من أجل استحقاق درجة (الليسانس الممتازة). وكانت دراسات الامتياز تقوم على اختيار مادة أكاديمية فى التخصص ولغة أجنبية إما ألمانية أو إيطالية فى ذلك الوقت. وتشاء الصدف أن يختار كل منا المادتين نفسيهما (تاريخ إسلامى ولغة إيطالية). وهى اليوم أ.د.سيدة إسماعيل الكاشف، أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية البنات جامعة عين شمس، وإن التقينا فى الجامعة فقد افترقنا فى التخصص والكلية فيما بعد.

ومن عجائب هذه الشهادة عندما أطلعت على تفاصيلها ما أذهلنى من حصولى على الحد الأدنى (٤) درجات من (٢٠) حدًّا أقصى فى امتحان مادة الرسم. وكان

السؤال هو تصحيح منظور ثلاث علب من الحلوى (الملبس)، مرسومة فى ورقة الامتحان خطوطًا مستقيمة، والمطلوب إعادة رسمها فوق مستوى النظر. ويبدو أنه اختلط على الأمر بين فوق المستوى وتحته، كما كان المطلوب رسمًا زخرفيًا لورقة تلصق بتلك العلب. ولم يكن فى خيالى سوى رسم غصن شجرة بأوراقه، وعليه طائر يضع فى منقاره ورقة مكتوبًا عليها (حلوى لذيذة). وهكذا افتقد رسمى كل فهم لمقومات المنظور وخيال الفنان. وربما كانت درجتى أقل من (٤)، وجاءت لجنة المراجعة لتجبرها، بعد أن رأت درجاتى المتميزة فى المواد الأخرى، بما فيها درجة الهندسة التى كانت من مقررات القسم الأدبى... والله سلم على أى حال !!

ونعود إلى نتائج شهادة البكالوريا، وما أعقبها من أفراح وطبول وزمر واستقبال لوفود المهنئين من سلوا وما جاورها من النجوع فى مضيفه القبيلة. استمرت ثلاثة أيام متلاحقة، بل لم تنقطع خلال العطلة الصيفية. وشعرت مع ما ساد من تهنئات واستقبالات بأننى لا انتمى إلى أسرتى وقبيلتى فحسب، وإنما أنتمى إلى القبائل كلها، كما عبر عن ذلك أحد المهنئين (أنت واد القبائل كلها).

ومن تداعيات شهادة البكالوريا ما أذكره من أننى لم أجلس إلا ثلاث مرات أمام صندوق الكاميرا، والذى كان يختفى المصور وراءه تحت قماش أسود عند التصوير، وذلك فى مناسبة الصورة اللازمة لاستمارات التقديم لامتحانات الشهادات بتدائية والكفاءة والبكالوريا. ولم يبق لى منها إلا صورة البكالوريا "متقمشًا " فى البدلة التى فصلتها بصفين، مع الطربوش وربطة العنق. ولما كانت هى الوحيدة لأيام شبابى (١٦عامًا)، حيث لا صور لى فى الطفولة فى سلوا، حرصت على تكبيرها وبروزتها، وهى الصورة الوحيدة لى المعلقة فى بيتى. والحاصل أنه ليس لدى صور شخصية حتى حين كنت فى الجامعة، ويبدو أن عملية التصوير كانت ذات تكلفة عالية نسبيًا فى ذلك الوقت.



وما أدراك ما الجامعة !!

إلى كلية الآداب:

لقد كان الالتحاق بالجامعة مما دارت حوله أحاديث وأسمار التهاني، وكان الإجماع على ضرورة المواصلة والالتحاق بالجامعة؛ إذ من الحرام أن تنقطع الحبال فى نصف البئر دون الارتواء من قاع نبعها، وربّك الذى يسرها فى كل ما مضى، سوف يتولاها بالقليل والجليل مما تبقى. ومع ذلك تبقى هموم الوالد وهمومى التى بدأت استشعر بها أكثر من ذى قبل. وأخذ يجول عقلى بين الكلية التى اختارها، كلية الحقوق أم الآداب، وفى أى قسم من أقسام كل منها من كلية الحقوق التى تخرج القيادات السياسية والقانونية ورمزها السنهوري، وكلية الآداب التى تخرج الشعراء والأدباء ورمزها طه حسين.

أما والدى فكانت همومه تدور حول المصروفات، ومكان السكن، ونفقات السفر إلى جانب ما يمكن أن تسمى بالنفقات النثرية من ملابس وكتب، وكيفية الحصول على المجانية، والاتصال بأهل الذكر والسلطان ممن يمكن اللجوء إليهم والاستعانة بهم، ممن يعرف من أعضاء مجلس النواب أو الشيوخ أو من القيادات

العسكرية الوطنية من أمثال الأسوانى اللواء صالح حرب. وأخذ يعدد مصادر التمويل من بيع الأغنام والماعز وأفراخ الحمام، وما تبقى من ذهب الوالدة، كما أخذ يفكر فيمن يستطيع أن يقترض منهم من أعيان القرية، أو من المصراوية الذين عادوا أخيرًا إلى القرية.

وقد استطاع فعلًا أن يدبر (٢٠) عشرين جنيهًا، منها القسط الأول الذى لابد من سداده حيث مصروفات كلية الآداب عشرون جنيها، وكان هذا من بين جملة العوامل، التى جعلتنى أختارها حيث كانت مصاريف الحقوق (٣٠) ثلاثين جنيهًا. هذا إلى جانب ما ترسب فى ذهنى من قدوة الطالب الجامعى (مصطفى الأمير) منذ إقامتى مع أسرته بإدفو. والجنيهات العشرة الباقية للمصروفات المعيشية الضرورية الأخرى. ومع ذلك كان الأمل معلقًا على الحصول على المجانية التى كانت تتطلب شروط التعليم الثانوى نفسها: شهادة التفوق وشهادة الفقر، وقد تقدمنا بطلب المجانية مع بقية الأوراق التى أرسلناها بالبريد المسجل إلى الكلية.

سافرت مع والدى إلى القاهرة قبل موعد بدء الدراسة بأسبوع، وأقمنا فى فندق البرلمان فى (العتبة الخضراء) والتقينا فى ردهة ذلك الفندق بالصدفة مع النائب منصور المشالي، الذى كان عضوًا فى مجلس النواب بعد استقالته من منصبه الحكومى مديرًا لمصلحة الإحصاء، وكان قد نال قسطًا من تعليمه فى فرنسا. وكانت له مواقف برلمانية وطنية مشرفة فى هجومه على شركة السكر واحتكاراتها ومعاملتها لعمالها، والتى كان مديرها فيها أتذكر (رينيه قطاوي) أحد كبار رجال المال اليهود فى مصر إذ ذاك. تحدث والدى مع النائب المحترم فى شأن التحاقى ومجانيتى فى كلية الآداب، وأبلغه بأنه سوف يتصل باللواء صالح حرب؛ إذ له صلة وثيقة بآل عزام ومنهم أستاذ بكلية الآداب، هو أ.دعبدالوهاب عزام أستاذ الدراسات الفارسية فى الكلية.

وقد تم اتصاله فعلًا بالدكتور عزام وأبلغ الوالد برأيه بأن مثل حالة هذا الطالب

لا تحتاج إلى واسطة حيث تنطبق عليه كل شروط المجانية. وقد تحقق ذلك فعلًا وجرى استرداد القسط الأول الذى دفعناه. وحسب شروط المجانية جرى تقديم طلب منحها سنويًا، واستمرت مع استيفائى لشروطها فقرًا يدعمه التفوق أو تفوقًا يدعمه الفقر، حيث كنت من طلاب دراسات الامتياز حتى نهاية المرحلة الجامعية، سيدة الكاشف الأولى، وأنا الثانى طوال السنوات الثلاث.

ثم تأتى الصدفة الأعظم حين كان يقضى والدى وقت راحته فيها بين فترات السعى والسؤال فى الكلية والتى كنت أرافقه فيها. ولابد لى من الإشارة إلى أنى حين رافقت والدى فى أول زيارة للكلية لمقابلة المسجل والسؤال عن قبولي، كنت لابسًا الزى الريفى بجلابيته وعمته، مما أدى بالمسجل إلى أن يسأل أين الطالب ذاته؟ ولا أشك فى أنه كتم استغرابه حين قلت له (أنا الطالب).

أما عن المناسبة الأعظم وأنا مع والدى فى (قهوة وادى النيل) فى ميدان باب اللوق حيث ملتقى الأسوانيين، تصادف أن يجلس فى الطاولة المجاورة رجل مهيب الطلعة تبدو على سيماه أنه أحد الأعيان من محافظة أسوان. بادره والدى بالتحية وكان متحدثًا لبقًا، وتعرف عليه بأنه الحاج عبد الغفور من كبار التجار فى أسوان، وأنه جاء إلى القاهرة ليدخل ابنه فى كلية التجارة، وأنه يبحث له عن سكن، ويؤثر أن يجد له زميلًا يشاركه فيه. ولحظتها أخبره أبى بأنه فى مثل هذا الموقف، وأشار إلىّ، وأنه يبحث لى عن مسكن. وعندما علم الحاج بأنى طالب مجتهد وترتيبى السادس فى البكالوريا أخبر والدى بأنه يكون مسرورًا لو تشارك الابنان فى السكن. وابتهج والدى بهذا العرض، خصوصًا وقد تطوع الحاج بأن يتحمل كافة نفقات السكن والمعيشة، فقام والدى بتقبيله فى جبهته شاكرًا ممتنا على بره وكرمه. وبذلك شاء الله أن تنحل مشكلة السكن ويطمئن البال.

وقد استطعنا عن طريق أحد سماسرة البيوت أن نجد شقة واسعة فى مدخل الجيزة، كما عثرنا على شاب يتولى عملية الطبخ والتنظيف، ووجدنا فيها بعد طالبًا

من إسنا ملتحق بكلية الهندسة فانضم إلينا. وبذلك كنا ثلاثة صعايدة فى هذا المسكن من كليات التجارة والهندسة والآداب، وفى كفالة الحاج الكريم عبد الغفور طوال سنوات الدراسة.

ولعله من الطريف، قبل أن أتحدث عن مسيرتى فى كلية الآداب، أن استرجع عقدة نحافة جسمى رغم نموه الرأسى فى تلك الفترة. كان على المقبولين للالتحاق بالجامعة أن يتوجهوا للكشف الطبي، وكان الطبيب المسئول عن تلك المهمة الدكتور محجوب ثابت، والذى كان من أقطاب الحزب الوطنى إذ ذاك، وهو الحزب الذى اتخذ له شعارًا (لا مفاوضة إلا بعد الجلاء) فى مفارقة مع الأحزاب الوطنية الأخرى، التى كانت لا تعارض التفاوض مع الإنجليز من أجل الاستقلال... تقدمت إلى هذا الطبيب الملتحي، وأجرى كشفه عليَّ بما انتهى إلى أنى سليم معاق. لكنه فى نهاية الكشف، خبطنى بقبضة يده ليخبرنى بأنى هزيل ولابد من (أسمن). ونصحنى بأن اشرب كل يوم بعد الإفطار فنجانًا من السمنة البلدي، لأنها سوف تؤدى إلى اكتناز بعض اللحم والشحم... ولست أدرى ماذا يقوله الطب الحديث اليوم فى مثل هذه النصيحة. وفى جميع الأحوال لم يكن ميسورًا تحقيق هذه الوصفة إلا فى الإجازات عندما استقر فى القرية. ورغم ذلك لم تفلح الوصفة، وأظل أردد قول الشاعر:

إن فى بُردَى جسمًا ناحلًا   لو اتكأتُ عليه لا نهدم

ومع ذلك سأظل دومًا حامدًا لله على وافر نعمائه.

التطلع إلى الحرم الجامعى:

هكذا استقر بى الحال فى مدينة الجيزة على مقربة من الأهرام وأبى الهول وفى دائرة قاهرة المعز لدين الله الفاطمى مما حفظناه فى كتب التاريخ لنعيش فى أجوائها، وفى نقلة حضارية وثقافية جديدة مما كانت تراوده الأحلام والآمال، وفى حرم جامعة الملك فؤاد الأول تزهو فى يمينها بكلية الآداب، وعلى يسارها مواجهًا كلية

الحقوق. وبدأ اليوم الأول فى الدراسة، والطلبة يتقاطرون من مدخل الجامعة المهيب، وأنا أتطلع إلى القبة، وإلى جموع من الطلاب وقوفًا عند مداخل الكليتين. ولعل ما شدهنى بطبيعة الحال رؤية الطالبات فرادى وجماعات ومختلطات بالشباب، وعلى وجوه الجميع آيات الابتهاج والحبور.

اقتحمت هذا الحشد وحيدًا فلم أتعرف على وجه من الوجوه التى أعرفها. لكن عيناى كانتا تحاولان استكشاف أولئك البنات بأزيائهن الأفرنجية فى تقديرى إذ ذاك، وفى تشكيلات شعرهن بين المنساب الطويل وبين القصير المهذب. ولقد كانت رؤية البنات وسط الشباب فى أول مشهد من مشاهد الحياة الجامعية فتحًا مبينًا، بل صدمة حضارية تتطلب التأمل فيها والتكيف معها.

وأتذكر الآن مع خواطرى نحو رؤية البنات وسط جموع الطلاب ما لجأ إليه أحمد لطفى السيد أول مدير للجامعة؛ حين يقول فى قصة حياته (ولا أخفى أننا قبلنا الطالبات أعضاء فى الأسرة الجامعية فى غفلة من الذين من شأنهم أن ينكروا علينا اختلاط الشابات بأخوانهن فى الدرس. واستمر قبول الطالبات الحاصلات على البكالوريا حوالى عشر سنوات، وعندها قامت ضجة تنكر علينا هذا الاختلاط، فلم نأبه لها لأننا على يقين من أن التطور الاجتماعى معنا). وقد كانت دفعة ١٩٣٨م المختلطة من أوائل الأفواج، التى استقرت أوضاعهن فى شرعية حقهن فى التعلم الجامعي.

أتابع مسيرة اليوم الأول حين جاءت لحظة الدخول إلى المدرجات، وكان مدرج الطلاب الجدد فى الدور الأول (الأرضي)، وظللت مترددًا حتى تيقنت من المدرج الذى يجب أن أدخله. وكانت الدراسة فى السنة الأولى مقررات عامة لمختلف الأقسام، ولا يبدأ التخصص إلا مع بداية السنة الثانية. وصعدت إلى أعلى المدرج لاتخذ مكاني، وشاءت المصادفة أن يكون على يسارى طالب عفى وجيه تعارفنا معًا، اسمه عبد المنعم الصاوي، والذى أصبح من قيادات الكلية فى مظاهرات الطلبة

أثناء الدراسة، ثم انتهى به المطاف إلى أن يحتل منصب وزير الثقافة أخيرًا فى عهد الرئيس السادات. ومع هذا التعارف الأولى اطمأننت بصحبته وحرصت على الجلوس إلى جانبه، كلما استطعت إلى ذلك سبيلًا أثناء تلك السنة الأولى. وانضم إلينا فيما بعد طالب آخر اسمه محمود رشدى خاطر، الذى رافقته فى مواقع كثيرة من حياتى، فيما بعد سواء فى كلية التربية أو فى مركز اليونسكو للتربية الأساسية وتنمية المجتمع فى سرس الليان.

وأذكر أن أول محاضرة استمعت إليها كانت فى مادة مبادئ الفلسفة التى كان يلقيها الدكتور إبراهيم بيومى مدكور، ذو الطلعة البهية والقامة الشامخة والأناقة المتألقة. وفى صوته الجيوى وبلغته العربية الفصحى. وأذكر كيف بدأ محاضرته بعبارة (يقولون إن أبا الفلسفة طاليس، كما يقولون إن طاليس أبو الفلسفة، أبو الفلسفة من مدينة أثينا فى بلاد الإغريق. وسوف تبحر بنا سفينة الفلسفة القديمة من أثينا إلى روما إلى مدينة الإسكندرية عواصم الفكر الفلسفى القديم لترسو بنا فى كل من مرافئها) وقد كنا نجتهد فى الاستماع والتركيز لندوِّن المحاضرات فى الكشاكيل التى كانت رمزًا من رموز الانتساب إلى الجامعة، تمييزًا لها عن "كراريس" المدرسة الثانوية.

وكانت المفارقة واضحة بين عملية التدريس المدرسى وعملية إلقاء المحاضرات الجامعية. وكان يبهرنا معظم الأساتذة بإلقائهم المرتجل دون قراءة من كتاب أو مذكرات. ومع متابعة المحاضرات كان من بين أشد من انبهرنا بهم د.سليمان حزين، وقد كان عائدًا حديثًا من بعثة فى إنجلترا، شابًّا وسيمًا شامخ القامة، يحاضر فى الجغرافيا مرتجلًا وبلغة عربية فصيحة، وبمصطلحات جغرافية جديدة علينا، مثل الحركات التكتونية والأخاديد، والبرارى إلى المداخل الحربية فى جغرافية مصر. وكما كان دقيقًا فى أفكاره وعباراته طالبنا منذ البداية أن نكون كذلك، مقدمًا مثل ذلك الطالب الذى استخدم فى إجابته تعبير (بحر النيل) بدلا من (نهر النيل) فأعطاه (صفرًا) على هذا الإجابة.

وقد دعا انبهارنا بالأساتذة إلى اقتراح عبد المنعم الصاوى بأن علينا أن نثمن كل محاضرة بين حدين من القيمة النقدية تمتد من قروش إلى شلن. فهذه العبارة البارزة فى محاضرة الأستاذ فلان تساوى قرشًا فقط، وأخرى لدى أستاذ آخر تساوى نصف فرنك أي قرشين وأخرى تساوى شلنا وهو الحد الأقصى. ومع ذلك اضطررنا إلى تجاوز هذا الحد الأقصى فى بعض محاضرات الدكتور حزين حيث كانت مادة الجغرافية العسيرة تتحول إلى لغة سلسة يصك فيها الأستاذ مصطلحات ومجازات ممتعة، مما أسهم به هو وزملاؤه من الأساتذة فى تعريب كثير من مصطلحات علم الجغرافية.

وكان من بين قراءاتنا فى الأدب العربي، كتاب على هامش السيرة لطه حسين لنتعرف ونتذوق خصائص أسلوبه، وما زالت الذاكرة تحتفظ ببعض عباراته ذات الإيقاع الشعرى منها (كان عبد المطلب سمح الطبع، رضى النفس، حلو العشرة، عذب الحديث) وفى روايته عن تبع: (عاش تبع ما شاء الله له أن يعيش، ومات تبع حين قضى الله عليه بالموت).

وقد كان من بين مناهج السنة الأولى مجموعات صغيرة، تلتقى مع أحد معاونى هيئة التدريس (المعيدين) لمناقشة كتب يطلب منا قراءتها وتلخيصها كتابة وعرضها فى جلساتنا الصغيرة مرة كل أسبوع. وكان من حسن حظى أن كانت رائدتنا الثقافية (سهير القلماوى) التى لم تكن بعد قد حصلت على درجة الدكتوراه. ومن خلالها قرأنا وناقشنا كتاب "إبراهيم الكاتب" لإبراهيم عبد القادر المازني، و(مطالعات فى الكتب والحياة) لعباس العقاد. وبعض قصائد الفحول من الشعراء، منها قصيدة لا أذكر شاعرها ويعلق فى ذهنى من أبياتها:

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

والفتى العربى فيها مضاع الوجه واليد واللسان

لقد كان إعجابى بالغًا بأول امرأة مثقفة أديبة أنيقة ذات إيقاع صوت سحري، تتحدث معنا ونتحدث إليها فى احترام وانضباط. وأحسب أن لهذه الحلقات تأثيرًا هائلًا فى حسن تذوقى للأدب والشعر، إلى جانب اهتمامى بالتفكير المنطقى وحلاوة الأسلوب. ولعل هذا ما تفتقده مقررات الجامعة اليوم مما تضج به مقالات الطلاب من سوء التعبير وركاكته وكآبته.

وفى السنة الثانية حسمت اختيارى بالانخراط فى قسم التاريخ، وكان فى مبنى آخر غير مبنى محاضرات السنة الأولى، وامتزجت مقرراته مع مقررات فى الجغرافية التى كنا نذهب لحضورها فى ميدان الرواحة، مقابل مركز شرطة الدقى الحالي. هذا إلى جانب تعلم اللغة اللاتينية، التى أدخلت بناء على رأى طه حسين الذى كان يعتقد أنها تزود طلاب الآداب بمفتاح الثقافة الأجنبية. ومع هذه التشكيلة من المقررات يضاف إليها دراستا الامتياز فى التاريخ الإسلامى واللغة الإيطالية.

وأتذكر أنه فى إحدى الفصول الدراسية، قدم إلينا أستاذ فرنسى من مشهورى أساتذة التاريخ اليونانى والرومانى أسمه(جوكيه)، كان يحاضرنا بالفرنسية. ومع الطشاش الذى كنا نعرفه مما تعلمناه من هذه اللغة فى الثانوية، كان لابد من ترجمة باللغة العربية يقوم بها د. شحات أيوب المتخصص فى ذلك الفرع من التاريخ والذى كان عائدًا لتوه من فرنسا. وقد كان بارعًا فى الترجمة إلى العربية، والتى كنت اعتقد أنه يضيف إليها أحيانا قدرًا من عندياته.

ومنذ السنة الأولى انفتحت أمامى طاقات هائلة من الفكر وعشق للمعرفة، تظل رصيدًا زاخرًا فى رأسمالى العلمى والثقافى. ومن ذا الذى لا يتأثر قدوة ورغبة فى المعرفة، وهو يستمع فى السنة الأولى إلى الدكاترة إبراهيم بيومى مدكور وأبو العلا عفيفى فى الفلسفة والمنطق، وسليمان حزين فى الجغرافية – كما أسلفنا الفول – ومحمد مصطفى زيادة فى التاريخ العربى العام، وعبد المنعم أبو بكر فى تاريخ الحضارة الفرعونية، وشوقى ضيف فى تاريخ الأدب العربي. وفى مقررات تخصص

التاريخ أتذكر بكل هيبة القدوة ووقارها المشع من محاضرات الدكاتره حسن إبراهيم حسن، عبد الحميد العبادي، شفيق غربال، عزيز عطية سوريال، محمد مصطفى زيادة، وسامي جبره، ولبيب باهور. ومن الشباب الأساتذة، حسن عثمان، عزت عبد الكريم، أحمد بدوي، جمال الدين سرور، الشحات أيوب، إلى جانب فاطمة سالم الأستاذة الفاضلة التى كانت تعتصر عقلها وجهدها لكى نتذوق اللغة اللاتينية.

وفى الجغرافية الطبيعية والبشرية والسياسية، استمتعت بمحاضرات أعلام تلك التخصصات من مصطفى عامر عبد المنعم الشرقاوي، ومحمد عوض محمد. ومن الطرائف الساخرة التى تعتبر من لوازم د. عوض إشارته إلى محصول التفاح، وإلى جمال التفاحة شكلًا ولونا وملمسًا، وأنه من النزعات الإنسانية المتوحشة قضم التفاحة وأكلها، فى حين أنه من الواجب أن يضعها الإنسان أمامه ليتمتع بجمالها. وأعتقد أن معظم الطلاب مثلى لم يروا التفاحة، ولم يمارسوا الاعتداء عليها. وفى محاضرة أخرى من محاضراته كان يحدثنا عن السمات الفيزيولوجية للأجناس ومقاييس وأشكال رؤوسها. ذكر لنا أحد الأجناس الأفريقية، التى تتميز بظاهرة (القذال) وهو امتداد فى مؤخرة رأسها.وفى نظرة عامة على الطلاب التقى برأسى واستدعانى للوقوف بجانبه، وأدار رأسى لكى يراه بقية الطلاب، وقال هذا هو شكل (القذال) الذى أحدثكم عنه، وهو ما ورد فى أحد أبيات من شعر المتنبي، وقام بإيراد البيت الذى لم أعد أتذكره.

وألحظ اليوم حين استرجع ذكريات هؤلاء الأساتذة مدى انتظامهم وإخلاصهم فى أداء واجباتهم التعليمية لتماهيهم وانغماس ذواتهم فيما يتحدثون عنه. أتذكر التعبير الانفعالى للدكتور زيادة؛ حين كان يستعرض الصراع بين يومى وقيصر وخيانة بروتس، وحين يلومه الأول معبرًا عنه بانفعال عامى فى التعبير قائلًا (وأنت اللوخر/ يابروتس). كما اتذكر شفيق غربال، وهو يقص علينا فى حراكه أمامنا

تاريخ الحملة الفرنسية، إذ يقول (تعجبون من أن بونابرت كان يعتقد أن غزوه لمصر سوف يكون نزهة حربية Preomenade militaire، فإذا به يجدها مغامرة رهيبة بل مقامرة فادحة الخسران). وفى هذا الإطار يتابع وقائع تلك الحملة. وبكل الاحترام والامتنان، أذكر أن "شفيق غربال" قد أهدى طالبا الامتياز د. الكاشف كتابا من المراجع لا أتذكر أسمه، كما أهدانى تاريخ الجبرتى (عجائب الآثار) طبعة بولاق الذى افتقدته ضمن ما افتقدت عديدًا من كتبى أثناء غيبتى فى البعثة. وأتساءل مرة أخرى أى تشجيع وتقدير يلقاه الطلاب المتفوقون من اساتذتهم فى جامعاتنا؛ مما يحفزهم على مواصلة بذل الجهد من أجل استمرار تفوقهم وصقل مواهبهم؟ !

ومن الذى لا يَذْكُر مهابة وشموخ الأستاذ العبادي، وهو يحدثنا عن الدولة العباسية، يدخل علينا بطربوشه الطويل، الذى يزيده هيبة ووقارًا، وفى صحبته بعض المراجع الأصلية فى التاريخ الإسلامي، يقرأ منها فقرات بين الحين والآخر وهو يحاضرنا، جالسًا على كرسيه كما لو كان الخليفة المأمون. يمزج التاريخ بالأدب بالفقه.

أذكر من عباراته الفقهيه، وقد نسيت سياقها تقول (ثلاثة جدهن جد وهزلهن جد: الزواج والطلاق والعتاق) واستمع إليه وهو يحدثنا بإيقاع تتغير فيه نبرات صوته الوقور إلى إيقاع درامي، وهو يسرد لنا مأساة البرامكة مع الخليفة هارون الرشيد، وكيف كانت تستعطفه أم الوزير خالد البرمكى ليتخلى عن قتل ابنها مقدمة له قلامات من أظافره وشعيرات من رأسه حين كانت تقوم برعايته، وهو طفل صغير، منشدة أبياتًا تحرك مشاعر الحجر، أذكر منها:

ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتني ... يمينك فانظر أيَّ كفٍّ تبدِّلِ

ومن هذه الصورة، تنتقل الدراما إلى دعوتنا إلى النظر إلى سلطان ذلك الخليفة فى صورتها الأخرى التى يمدحه بها الشاعر إذ يقول:

ومن يطلب لقاءك أو يرده ... ففى الحرمين أو أقصى الثغور

وهكذا تتبدل صورة الخليفة من طاغية سفاح حرصًا على ملكه من أى منافس لسلطانه، إلى ذلك الإنسان التقى الورع والحريص على حماية الثغور من اعتداءات الرومان. وأتساءل أين هذا من دراسة التاريخ اليوم أحداثًا جافة مصمتة، كأنها لا تقع فى دائرة البشر وأفعالهم وانفعالاتهم.

حرية للفكر وأجواء للقدوة:

أما عن د. جمال الدين سرور فكانت عذوبة شخصيته وتواضعه وشبابه كفيلة بأن تجعله محببًا لدى الجميع. وقد توثقت علاقاتى معه إلى حد عميق من الصداقة. وكان مشجعًا لى على الدوام. وقد طلب منى أن أزوره فى بيته، كلما احتجت إلى مشورته. وقد حرصت على زيارته عدة مرات فى شقته فى شارع الفجالة كما أتذكر.

ومن الطرائف أن د. فتحى سرور قد استدعانى إلى مكتبة، فى بداية توليه وزارة التربية والتعليم فى أواخر الثمانينيات من القرن الماضى. وقد رحبت بتلك الدعوة وقضيت معه فترة طويلة بحضور مستشاره د. عزت عبد الموجود؛ إذ ذاك، وتبادلنا أطراف الحديث وأعماقه فى قضايا تطوير التعليم. ولست أدرى كيف ساقنى الحديث لأساله هل للدكتور جمال الدين سرور علاقة قرابة بسيادتك، فقد كان من أحب الناس إلى عندما كنت طالبًا فى قسم التاريخ بكلية الآداب؟ ويفاجئنى رده بأنه هو عمه. ولم أتمالك من التعليق حين ذكرت له أن عمك كان فى غاية التواضع. وجاء تعليقه (ألست أنا متواضعًا أيضًا) فكان ردى أننى لم أعرف حتى الآن وزيرًا متواضعًا، وكان ذلك خاتمة ذلك اللقاء الذى انصرفت بعده من مكتبه.

* ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أشير إلى ما تذوقته من قدر من طعوم حرية الرأى خلال الفترة الجامعية. أناقش د. حسن إبراهيم حول ما أورده فى حاشية مرجعية فى كتابه (الإسلام السياسى) حين كان يحدد موعد ولادة النبى (ﷺ) فى عام الفيل، معتمدًا فى ذلك على ثلاثة مصادر من بينها مرجعان أجنبيان إلى جانب سيرة ابن هشام هما (نللينو وتوماس أرنولد) فاستأذنته مشيرًا إلى أن

تلك الحقيقة ليست فى حاجة إلى مراجع؛ لأن ذلك التاريخ يعلمه كل مسلم وقد تعلمته فى الكتاب. وأعتقد أنه يصبح للمرجع قيمته لو كان هناك اختلاف بين المؤرخين. وإذا كان ولابد من مراجع، فإنه يمكن الاكتفاء بسيرة ابن هشام. فكانت إجابته (معك حق، ولعلى أردت أن أشجع القارئ على الإطلاع على هذين المرجعين أيضًا) وقد كان مسرورًا من ملاحظتي:

* ومع د. إبراهيم نصحي، وهو يحدثنا عن ما ساد مصر من رخاء فى عصر البطالمة (البطاله) استئذنه لأطرح سؤالا يجول فى خاطري: أنى أتساءل عن أى فئة كانت تنعم بذلك الرخاء؟ ألم يكن ذلك الرخاء من نصيب الأغارقة من رجال الحكم والسلطات ومن تبعهم من التجار والأثرياء؟ أما بقية الشعب المصرى فقد عانت من القهر والفقر، وكان شأنهم كما يقول الشاعر:

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فـوق ظهورهـا محمـول

يضحك بعض الطلاب فى المدرج لهذا الشعر فى محاضرة عن تاريخ البطالمة، وتأتى استجابة الأستاذ بالثناء عليَّ وعلى هذا الوعى التاريخي، ناصحًا من ضحكوا بأن يقتدوا به، فهو بحق جدير بأن يكون طالب امتياز.

* ومع والدي، ولعله فى السنة الأخيرة من دراستى الجامعية، دار حديث بينى وبينه حول كرامات الأولياء، حين ذكرت له أن الوعد بها هو شائع فى القرية باسم (النذور) التى تقدم لهم سوف يؤدى إلى تحقيق الأمنيات. وهم فى جميع الأحوال بشر مثلنا اتصفوا بالتقوى والصلاح، وأنه ليس لديهم وهم أموات قدرات خارقة فى مصائر الأحياء. ومن الأفضل أن يتوجه المسلم بدعائه ورجائه مباشرة إلى الله سبحانه، وهو القائل فى محكم قرآنه المجيد (وقل أدعونى استجب لكم) وسرعان ما ظهرت علامات الامتعاض على وجهه؛ لمقولتى بأنه ليس للأولياء كرامات يظهرونها لمن يتبرك بهم ويتوسل إليهم. وتركنى ليحضر لى كتابًا فى (التوحيد)، ومؤكدًا أن كل ما يرد فى كتب التوحيد

يعتبر حجة قاطعة تأتى بعد كلام الله وسنة نبية. وقرأ لى بعض الأبيات الشعرية، ومنها:

لأثبتن للأولياء الكرامة ومن نفاها فأنبذن كلامه

وهكذا نبذ كلامي، ودعا لى بالهداية. ولم يكن لى من استجابة إلا أن أقوم بالانتقال إلى موضوع آخر فى جدول اللقاء، والحاصل أن صور التوسل للأولياء متعددة حسب أقدارهم، من مجرد دعاء إلى نذر بيضات إلى خروف، إلى عجل للأقطاب، كما تعددت وسائل الشفاء من حجاب من آيات قرآنية يلبسه الطفل حول عنقه، أو تعزيم بقراءة من آيات قرآنية على موضع المرض، أو بمنقوع ورقة بها آيات قرآنية فى الماء.

ولعلى لست فى حاجة إلى الاعتذار عن هذا الإطالة فى سرد حكاياتى ومشاعرى عن أساتذتى فى كلية الآداب، وإنما أجد فيها ترياقًا لما أعانيه من مرارة كثير من أساتذة اليوم وأحوالهم، وعلاقاتهم، ومدى إخلاصهم فى الوفاء برسالتهم العلمية والأخلاقية، مما يعتبر قدوة ضرورية لشباب اليوم من طلابنا.. فى أيامنا، لا دروسًا خصوصية، ولا اعتذارًا للأساتذة عن محاضرات أو اختزالًا لمدتها المحددة، ولا كتبًا أو ملازم مقررة لهم، عليهم بيعها بطرق مشروعة وغير مشروعة.

* وفى الجامعة ترسخت على مدى سنواتها قيمة التواصل مع الجنس الآخر، وتقدير إمكاناته وطاقاته المتكافئة مع الذكور، وبخاصة حين ألفيت ما لزميلتى فى قسم الامتياز من عقل راجح وشخصية واثقة، وقدرة على المثابرة والتفوق، وكان غيرها كثيرات من المتفوقات على زملائهن فى أقسام الكلية الأخرى. وانمحت من فكرى الريفى كل ما كان يغشاه من هواجس الاختلاط بين الجنسين، بل وطاقات القدرة على التنافس بينهما، وتحقق لدىَّ الحديث الشريف (إنما النساء شقائق الرجال).

* وفى الجامعة أيضًا بدأ تذوق الطلبة الريفيين من أمثالى طعم بعض الفنون،

وبخاصة المسرح والموسيقى. أذكر الدكتور محمد مندور، وقد أحضر (الجرامافون) ليسمعنا في فترة الظهيرة أسطوانات لموسيقى بيتهوفن وباخ وتشايكوفسكى وموزارت، شارحًا لنا ما بها من حركات وإيقاعات وهارموني، وما تستخدمه الأوركسترا من آلات. وبدأنا الاستماع من قبيل حب الاستطلاع، ولم تنته تلك الجلسات حتى تكوَّن لدىَّ إدراك لقيمة تلك الكلاسيكيات من الموسيقى وقدرة بسيطة على تذوقها والاستمتاع بها. هذا إلى جانب مشاهدة بعض المسرحيات التى كان يقوم بها فريق التمثيل فى الكلية بطلابها وطالباتها. وكل هذا كان خبرات جديدة مثيرة بالنسبة لى أعانتنى على سرعة التكيف عندما ذهبت فى بعثة إلى إنجلترا.

والحاصل أن المواقف السابقة كانت بدايات تفتح براعم التساؤل، والنقد، والتذوق، ومراجعة المسلمات الفكرية والقيمية والسلوكية لما اقرأ وأسمع أو أعايش من أوضاعى وأوضاع الناس من حولى. وهى أدلة ساطعة على ما يمكن أن يحققه التعليم الجامعى الخصيب من تنمية قدرات التفكير والوعى الناقد فى حياة طلابه وفى تطوير مجتمعهم.

ولن يتوقف الحديث عما أفدته فى تعليمى بكلية الآداب من دور المكتبة فى التحصيل والاستيعاب والإضافة لما نتزود به فى المدرجات. نعمت بجوها الهادئ وخدمات أمنائها مما كان عاملًا فعالًا فى الإطلاع على المراجع التى يوصى الأساتذة بالرجوع إليها، وبخاصة فى كتابة المقالات التى نكلف بإعدادها. ولم يقتصر التردد عليها من قبل الطلاب فحسب، وإنما كنت ترى الأساتذة ممن ينشدون استعارة كتب أو إرجاعها، أو من الجلوس على مقاعدها يبحثون فى القواميس ودوائر المعارف أو الكتب التى لا تعار. ومما يستحق التنوية هنا نوع المساعدة التى يقدمها أمناء المكتبة للطلاب، ولا عجب فقد كان من بينهم خلال سنواتى فى الكلية عبد العزيز الأهوانى وعبد القادر القط، اللذين أصبحا فيما بعد من عظام الأساتذة

الجامعيين، ومن قيادات الفكر والأدب لا فى مصر وحدها، بل فى أجواء العالم العربى قاطبة.

أتذكر كل هذا لأتحسر على فقر مكتباتنا حاليًا، وعلى الترهل الذى أصابها فى خدمات كثير من أمنائها، وما أقل من يترددون عليها من الطلاب أو الأساتذة.

وكنت أشعر بأن شهيتى قد انفتحت للتزود بالمعرفة أنّى أتيحت لى، إلى جانب الاهتمام بدروسى التخصصية. ومن هذا القبيل جاء حرصى على الاستماع إلى مناقشة رسائل الماجستير والدكتوراه، وإلى السعى فى التقاط ما أستطيعه من مضامين موضوعاتها ومناقشات أعضاء لجان التحكيم. وأذكر من بين تلك الرسائل رسالة (عبد الرحمن بدوي)، أظنها رسالته فى الزمان الوجودى إذا لم تخنى الذاكرة. وما يزال ثناء طه حسين على تلك الرسالة عالقًا فى ذاكرتى؛ إذ امتدحها بقوله (لقد أحدث عبد الرحمن بدوى بهذه الرسالة فى عالم الفلسفة ما أحدثه كوبيرنكس فى عالم الفلك).

كذلك حضرت مناقشة (القصاص) فى رسالته عن كتاب الخصائص لابن جني، وقد أغرانى اسم الباحث واسم الكتاب المنسوب إلى ابن جني. ومن خلال المناقشة أدركت سعة اللغة العربية فى خصائصها الاشتقاقية، التى قد تصل إلى عشرات من المفردات من جذع واحد.

كما حضرت مناقشة رسالة الدكتوراه عن موضوع فى تاريخ العصر المملوكى تقدم بها على إبراهيم حسن، واعتقدت مسبقًا أن لجنة المناقشة سوف تكون رحيمة هينة معه، نظرًا لأنه أخ للدكتور حسن إبراهيم حسن رئيس قسم التاريخ آن ذاك، ولكن ظنى خاب أو أن إيمانى وثقتى فى الإنصاف العلمى قد زادت؛ حيث جرت المناقشة دقيقة ومستفيضة وناقدة كما هو الشأن فى أى رسالة أخرى.

كذلك كنت حريصًا على سماع المحاضرات والمناظرات التى تنظم كجزء من

النشاط الثقافى للكلية. ومن أمتع المناظرات التى حضرتها كانت حول (هل يفضل خريج الجامعة الزواج من الجامعية أم من غير الجامعية) وكان المتناظران د. سهير القلماوى من أنصار الطرف الأول، بينما كان أحد المحامين المشهورين اسمه (عبد المجيد نافع)، وكان كل من الطرفين يقدم براهينه، واتسمت بالحماس والتصفيق مع مشاركة من الطلاب لكل من الطرفين.

وفى نهاية المناظرة التى كانت منعقدة فى قاعة الجامعة الكبرى تحت القبة، تجمع حشد كبير من الطلاب الحاضرين وقمنا بمظاهرة نهتف جميعًا (عاوزين نجوز يانافع... عاوزين نجوز يانافع) حتى وصلنا إلى محطة الترام.. جو شبابى مرح لا ضغوط، ولا حرام ولا حلال، وإنما ابتهاج وانطلاق.

كذلك اعتدت بين الحين والآخر فى أيام الجمعة زيارة أحد بلدياتى من طلاب الأزهر الشريف يسكن فى حى الدراسة.. نقصد الجامع الأزهر لصلاة الجمعة حين يلقى الخطبة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى، وكنا نقصد جامع الحسين لنستمع إلى موعظة فضيلة الشيخ عبد المجيد اللبان بعد الصلاة.

وإن أنسى، فلن أنسى ما اكتسبته من ثقافة متنوعة من مجلتى الرسالة ثم الثقافة. وقد أتاح مصروف جيبى الذى أصبح جنيهين فى الشهر من معونة مجلس المديرية بأسوان أن اشترى كلًا من المجلتين بقرشين. وقد كان مقال محمد حسن الزيات رئيس تحرير الرسالة مصدر إعجاب شديد لتماسكه وانتقاء ألفاظه وجزالة عباراته، وأظن أننى قد تأثرت به إلى حد ما.

أما مجلة الثقافة التى كان الأستاذ الجليل أحمد أمين رئيس تحريرها، فقد كان يعرض فيها موضوعات فى الأدب والحياة بوضوح فى الفكر ووهج مقرونًا ببساطة فى الصياغة ونفاذ فى التشبيهات، فكانت أكثر تنوعًا فيما تعالجه من موضوعات. ومنها تعلمت أن ثمة تعددًا فى الرؤى، وفيها استمتعت بفقه الخلاف وأدب الحوار

بين أنصار العقاد وطه حسين ومواقف زكى مبارك وسيد قطب ومصطفى صادق الرافعي ودرينـي خشـبه وإسـماعيل مظهر ومحمـد فريد أبو حديد، وغيرهم من الكتاب والمفكرين والمهمومين بالجدل بين تيارات الأصالة والمعاصرة.

وقد ترك ذلك الحوار بين الأستاذين الجليلين عبد الحميد العبادى وأحمد أمين على صفحات الثقافة أثرًا عميقًا فى فكرى عن مفهوم الخلاف فى الرأي، وحسن التأتى فى معالجة ما بينهما من مفارقة فى الفهم والاستدلال. وقد بدأ ذلك الحوار الأستاذ عبد الحميد العبادى أستاذ التاريخ الإسلامي، يعتب فيه على الأستاذ أحمد أمين تسميته فى كتاباته لأول الخلفاء العباسيين باسم (أبو عبد الله السفاح)؛ إذ ينكر العبادى عقلانية أن يطلق الخليفة على نفسه اسم السفاح، ويعزو إطلاق هذه التسمية إلى الحاقدين والناقمين من الفرق الإسلامية على قيام تلك الخلافة العباسية واندحار الأموية، ويقدم فى ترجيحه لهذا الرأى أسانيد تاريخية من بعض المراجع القديمة، داعيًا أحمد أمين إلى إنصاف ذلك الخليفة، ومذكرًا له (لقد كنت قاضيًا زمنا ما). ويجيىء رد الأستاذ أحمد أمين ردًّا كريمًا مقدرًا للمؤرخ الجليل ملاحظته، وواعدًا إياه بمزيد من عمله لاستقصاء الحقيقة، فى ضوء ما أشار إليه زميله من أسانيد وتفاسير. وذلكم نموذج مشرق للحوار بين العلماء وأساتذة الجامعات !!

مع تيارات الأجواء السياسية:

بيد أن كل هذه الأجواء العلمية والاجتماعية والقيمية فى الكلية لم تحل شواغلها وأنشطتها عن المشاركة فى صخب الحياة السياسية، فى أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات. وظلت القضية الوطنية متمحورة حول إجلاء القوات البريطانية عن مصر، وكانت كليتا الآداب والحقوق ومدرجاتها وما بينهما من ساحات مواقع للحوار السياسى عامة وللمعارك الحزبية خاصة. ولم تكن هناك لوائح تمنع الطلاب من المشاركة فى النشاط السياسى والحزبي، وقد قدمت كلية الآداب شهيدين (الجراحى ومرسي) يقوم نصبهما التذكارى أمام ساحة الكلية رمزًا لدورها فى

النضال والتضحيات الوطنية ضد الإنجليز، ومن أجل صيانة الدستور. واحتشدت المظاهرات فى الحرم الجامعى وخارجه، يقود معظمها فى كلية الآداب عبد المنعم الصاوي، وفى كلية الحقوق عبد العزيز الشوربجى الذى انتهى فى مدارج حياته لكى يصبح نقيبًا للمحامين فيما أتذكر.

وكانت تلك المظاهرات والاحتجاجات مجالًا للخطابة الحماسية والشعر المحرض. وقد كان من بين الشعراء المتميزين أحد الزملاء من الأقباط، والذى كان طالبًا فى قسم اللغة العربية. وقد كان بعض القادة السياسيين يلتقون بالمظاهرات داخل الحرم الجامعى.. واذكر خطاب محمد حسين هيكل من أقطاب الأحرار الدستوريين أمام نصب الشهيدين فى كلية الآداب، وهو يحرضنا على الإضراب فى عبارته التى أذكرها (لقد أدينا واجبنا وعليكم أن تؤدوا واجبكم)، فلم يمنعه حرس جامعى (حيث لا وجود له أصلا) ولم يُقْبَض على أحد من الطلاب ممن كانوا يستمعون ويصفقون له. والواقع أن الطلاب قد مارسوا أدوارًا فعالة فى الحركة الوطنية منذ بداية تلك الفترة حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م.

ولقد بدأت ثقافتى السياسية تتشكل منذ التحاقى بكلية الآداب، لقد كنت حريصًا بالذات على حضور المناسبات التى تنظمها الأحزاب؛ خاصة تلك التى كان يخطب فيها زعماؤهم من أحزاب الوفد والأحرار الدستوريين ثم السعديين والكتلة مع الانشقاقات فى حزب الوفد.

وعايشت كذلك خبرات مع معظم الأحزاب والجماعات السياسية. وقد كانت أولى خبراتى مع جماعة الإخوان المسلمين، حين تعرفت فى تلك الغرفة الصغيرة فى الجانب الأيمن من مدخل الكلية والتى كانت مكانًا لإقامة الصلوات، تعرفت على مجموعة من خيرة شباب الكلية، منهم عبد الحكيم عابدين من قسم اللغة العربية وعبد العزيز كامل من قسم الجغرافيا ومحمد محمود غالى قسم اللغة الإنجليزية وغيرهم، حيث كانوا يقدمون لنا بعد الصلاة أحاديث دينية من حياة الرسول (ﷺ)

ومن سير الصحابة والسلف الصالح، ويدعوننا إلى التمسك بعقيدتنا وشرعها وبمكارم الأخلاق. وعن طريقهم عرفت طريقي إلى أحاديث الشيخ حسن البنا فى مقر الجماعة بالحلمية، ولم أذكر تدخل الجانب السياسى أو الحزبى فى كثير مما سمعت من كلمات الزملاء أو من أحاديث مرشد الجماعة حسن البنا، وقد قدم لى عبد العزيز كامل شارة الجماعة ووضعتها فى عروة جاكتتي، وقد احتفظت بصداقته منذ ذلك الحين قبل أن يدخل فى معترك الوزارة فى حقبة ثورة يوليو وفيها بعدها. ولم تثر المجموعة أى اضطرابات فى الكلية، كما أنها لم تتعرض لأى معوقات فى أداء رسالتها الدينية.

وأغرانى حزب مصر الفتاة بدعواته وشعاراته لإجلاء الإنجليز ومشروعاته فى تشجيع الصناعات الوطنية، ومنها إصدار طوابع (مشروع القرش) وإنتاج الطربوش الوطني. وقد تطوعت لتوزيع تلك الطوابع فى القرية أثناء العطلة الصيفية. واستهوتني كتابات أحمد حسين زعيم الحزب وفتحى رضوان أحد أقطابه فى مجلة (الصرخة)بما تميزت به من أسلوب تحريضى نارى فى مواجهة قوى الاحتلال. كما استمتعت بالكتب الصغيرة، التى كان يصدرها محمد صبيح من كتاب الحزب فى موضوعات تتصل بالقيم الوطنية وشعار الحزب (مصر فوق الجميع) ونماذج من البطولات وحياة الأمم الناهضة كاليابان أرض الشمس المشرقة، وبطولات ثورة ١٩١٩م وغيرها من موضوعات التعبئة الوطنية.

وقد صاحبت عزائم الحركة الوطنية وبدايات الفكر الليبرالى فى تلك الفترة رغم ما كان يسود من قهر وظلم واجتراء على الدستور وتعطيله وتغييره. وكانت الصحافة والمجلات تعكس جانبًا من بعض تلك الإضاءات الليبرالية فى حرية، فلم يحكم على طه حسين بالردة لكتابه "الشعر الجاهلي"، وكان للشيخ المراغى قدر من الاجتهادات الفقهية، وكان بعض أساتذة الجامعات مناضلين فى أحزابهم السياسية، وتداولنا فى أحاديثنا ومناقشاتنا الطلابية موضوع استقلال الجامعة واعتباره قضية راسخة، ذاكرين استقالة رئيس جامعتنا المصرية لطفى السيد، عندما نقل إسماعيل

صدقي رئيس الوزراء الدكتور طه حسين من الجامعة إلى وزارة المعارف دون استئذانه. وكان ذلك على أثر رفض طه حسين قبوله رئاسة تحرير مجلة الشعب لسان حال الحكومة التى غيرت دستور ١٩٢٣م. وذاعت بيننا أفكار سلامة موسى والعقاد وسيد قطب عن العدالة الاجتماعية. ويجيئ كتاب طه حسين (المعذبون فى الأرض) فى قمة التسلط الملكى ليقدمه (إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل، وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل، إلى الذين يجدون مالا ينفقون، وإلى الذين لا يجدون ما ينفقون) علامة بارزة من علامات النهضة والشوق إلى العدل الاجتماعي، وسط أجواء الملكية والاحتلال والإقطاع وسيطرة رأس المال على الحكم.

وكم ردَّد الساسة والمفكرون والشعراء والأدباء خطاب إيمانهم بالوحدة الوطنية، وأن (الجامعة لا دين لها إلا العلم) كما قال سعد زغلول، وكانت الوحدة الوطنية ممارسة وحياة لمواطنى مصر من المسلمين والأقباط. وفى مجال السياسة سجل حافل بحقيقة تلك الوحدة معتزين دائمًا بما أعلنه القمص سرجيوس من على منبر الأزهر خلال ثورة ١٩١٩م، حين ردَّد عبارته المشهورة (إذا قال الإنجليز إنهم باقون فى مصر لحماية الأقباط، فليمت الأقباط ولتحيا مصر). وكان تاريخ مصر الحديثة الذى تعلمناه يشيد بمواقف سينوت حنا، وويصا واصف محطم السلاسل لاقتحام البرلمان، كما يشير إلى غيرهم من أقطاب الوفد من نائب رئيس الحزب مكرم عبيد وبلاغته الخطابية. وكنا نذكر مقولة مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد حين رشح نائبا فى الانتخابات عن دائرة أغلبها مسلمون، فاعترض المرشح واقترح دائرة شبرا لكى يضمن نجاحه، ولكن الزعيم ذكره بقوله (أنت نائب عن المصريين لا عن الأقباط).

كذلك كان الشعر ونشيد (أسلمي يا مصر) المقرر حفظه وإنشاده على جميع المدارس، وفى مختلف المناسبات فى مصر، ذخيرة فى تعبئتنا الوطنية ومما حفظناه ورددناه بيت شعر لشوقى أمير الشعراء.

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي فى حب مصر كثيرة العشاق

وتشتد عزائمنا وآمالنا فى المستقبل حين نردد شعر عبد الله النديم، شاعر الثورة العرابية:

نحن قوم تذيبنا الأعين النجل على أننا نذيب الحديدا

وفى ساحة العدل يقتادنا الحب وفى الوغى نحن نقتاد الأسودا

والخلاصة أنه فى مرحلة تعليمى الجامعي، كان جيلنا تستثيره استشرافات النهضة، وآمال المستقبل، وتحدوه طموحات آفاق الحرية والتحرر، وإيمانا صادقًا بممارسات الوحدة الوطنية، وعزيمة فى مكافحة الاحتلال والاستبداد، وشغفًا بالمعرفة والعلم.

اتذكر كل هذا فى مفارقة مع شباب اليوم، وقد طغت على معظمهم موجات العولمة ومسالك الكوكلة، والمكدنة، والجكسنة، والكجولة،مع البلطجة والفراغ والمخدرات والبطالة، بتأثير فساد النظم الداخلية وضغوط القسر الخارجية. وأتساءل: وهل نحن وشبابنا يقصدنا أبو العلاء المعرى حين يقول:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البرية أن يبكوا

تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

وهاهو صوت فيروز يثير لدى بريقًا من الأمل، إذ لا مناص من اجتياز النفق المعتم والمضطرب؛ لنهتدى ببطاقات نور الحياة الكريمة:

غمر الطوفان الأرض – رجَّعوها اللى بقيوا

هدمت الحرب المدن – عمَّروها اللى بقيوا

باللى بقيوا راح بنكمل – بنكمل باللى بقيوا

بيني وبين لطفي السيد:

ويجدر بي أن أنهي مرحلة تعليمي الجامعي بما خطر من مصادفة تاريخية بحتة، بيني وبين لطفي السيد من تواريخ رحلتي التعليمية واتفاقها مع بعض تواريخ مسيرته منذ إنشاء الجامعة المصرية ١٩٠٨م، وضمها إلى وزارة المعارف لتصبح أول جامعة مصرية.. لقد جاء الاحتفال بوضع حجر الأساس لمبانيها الجديدة (الحالية) بحضور جلالة الملك فؤاد الأول عام ١٩٢٨م، وأنا ابدأ أول سنى دراستى فى المدرسة الابتدائية.

وفى عام ١٩٣٢م استقال لطفى السيد عندما أمر وزير المعارف حلمى عيسى فى وزارة إسماعيل صدقى بنقل طه حسين من الجامعة إلى وزارة المعارف، وهى السنة التى بدأت دراستى فى المدرسة الثانوية بسوهاج.

وفى عام ١٩٣٥م عاد لطفى السيد مديرًا للجامعة، بعد أن وافقت وزارة نجيب الهلالى على شروطه بعدم نقل أى أستاذ إلا بموافقة مجلس الجامعة، وهى السنة التى حصلت فيها على شهادة الكفاءة فى التعليم الثانوي.

واستمر بالجامعة حتى عام ١٩٣٧م، وهى الستة التى حصلت على شهادة البكالوريا حين قدم استقالته الثانية.

وعاد بعدها بمدة قصيرة كان فيها وزيرًا للمعارف، واستمر رئيسًا للجامعة بعدها حين عاصرت بداية تلك الفترة طالبًا فى كلية الآداب.

وقدم استقالته الأخيرة عام ١٩٤١م، وهى السنة التى تخرجت فيها من كلية الآداب.

هذه مصادفات موثقة تاريخيًا، فما أعجبها من مصادفات وكأننا كنت أغذ المسيرة فى تعليمى العام لألحق به مديرًا لجامعتى فى نهاية مراحله بها، ولأكون معتزًا وفخورًا بأنى كنت طالبًا فى أيامه.

وما أعظم لطفى السيد من مدير للجامعة: بنَّاءً ومحافظًا على كرامة أساتذتها، ومدافعًا عن استقلالها وحريتها.



الحكاية السابعة
من طالب إلى معلم

فى المعهد العالى للتربية بالأورمان:

وقد انتهت سكرة الأفراح بنيل شهادة الليسانس الممتازة فى التاريخ عام١٩٤١، أخذت فكرة العمل تشغل البال، وقد كان كثير من خريجي الجامعة إذ ذاك يعانون البطالة. ولم يحظ بضمان التشغيل وطمأنينة (الميري) إلا خريجي مدرسة البوليس والمدرسة الحربية والحاصلين على دبلوم معهد التربية. وقد حل المعهد العالى للتربية محل مدرسة المعلمين العليا، التى ألغيت بعد أن تخرج فيها رجالات متميزة من المعلمين والقيادات التربوية، من أمثال الأساتذة إسماعيل القباني، ومحمد فريد أبو حديد، وعوض محمد عوض، وعباس عمار، وفؤاد جلال وزكى نجيب محمود وغيرهم.

ومن شروط الالتحاق بالمعهد التفوق الدراسى والنجاح فى الكشف الطبى وفى اختبارات الذكاء والمقابلة الشخصية. وكانت مدة الدراسة لإعداد المعلم سنة واحدة، بيد أنه فى السنة التى قررت الالتحاق به ضمانًا للتوظيف، زيدت مدة

الدراسة إلى سنتين، وأفسح المجال لمن يرغبون فى الالتحاق بالسنة الواحدة للمرة الأخيرة أن يجتازوا امتحانًا تحريريًّا فى علم النفس وكتابة مقال، إلى جانب الوفاء بالشروط الأخرى. وتقدمت للالتحاق ببرنامج السنة الواحدة، ونجحت فى كل الاختبارات المطلوبة، فيما عدا الكشف الطبى الذى تبين فيه أن لدى زلال فى البول، وحدد لى موعد لإعادة الكشف بعد أسبوعين كانت فترة عصيبة، لكنه مع شرب الماء بكثرة والامتناع عن أكل اللحوم، نجحت فى الكشف الأخير.

ومن المصادفات العجيبة أنه فى اليوم الأول من الامتحانات التحريرية فى أوائل شهر سبتمبر، أعلن فى المساء عن إضراب عام فى صباح الغد لجميع وسائل المواصلات بالقاهرة، وكنت قبل فترة الامتحان ضيفًا على أحد بلدياتى الطالب فى الأزهر حيث مقر سكنه فى الدراسة. وفى ليلة هذا الامتحان ناقشت معه كيفية التغلب على هذا المأزق، واستقر الرأى على أنه لا مناص من قطع المسافة مشيًا من الدراسة إلى المعهد بالأورمان، الذى يقع فى مواجهة الباب الخلفى لحديقة الحيوان على مقربة من الجامعة.

واستعدادًا للرحلة اشتريت (سباطة موز) ليلتها واستيقظت مع أذان الفجر حوالى الساعة الرابعة. استعنت بالله، وبتناول موزة كلما تعبت خلال الرحلة ووصلت إلى المعهد فى الساعة الثامنة والنصف، أى بعد مسيرة أربع ساعات ونصف قبل الامتحان بنصف ساعة. وبعد هذا العناء كان على أن أجيب عن أسئلة علم النفس وما كانت تتضمنه الأسئلة من موضوعات مجرى الشعور ومعالجة مشكلات النظام، ومراحل نمو الطفل وأزمات المراهقة مما كان متاحًا من معرفة فى علم النفس إذ ذاك. ولما كان العود إلى الدراسة أيسر غير مقلق، لجأت إلى أحد المطاعم فى الطريق لتناول الغداء ثم استأنفت العودة. وفى اليوم التالى انفك الإضراب، وركبت الترام من الأزهر حتى العتبة ومن العتبة إلى الجيزة بست مليمات لامتحان المقال.

وانتهت المتاعب بالتوفيق والقبول فى المعهد، الذى كان التعليم فيه بالمجان وفى القسم الداخلى. وكان يشاركنا فى المعهد قسم إعداد مدرسى الفنون التشكيلية ومعلمى الرياضة البدنية. وقد تولد عن اختلاطنا بهذه الأقسام فوائد غير مباشرة ترتبط بتنميتنا الذاتية وبإدراك قيمة الفنون وثقافة البدن وسلامته فى عمليات التعليم والتعلم، وتكوين شخصية الطالب.

وعلى يدى الأساتذة إسماعيل القبانى عميد المعهد، والذى اصبح وزيرًا للتربية والتعليم فى أول سنوات الثورة، و د. عبد العزيز القوصى وكيل المعهد والأساتذة فؤاد جلال وصالح عبد العزيز ومحمد سعيد قدرى ونجيب غالى انكشفت أمامى ساحات متجددة للمعرفة والتنظير والتطبيق فى التعامل مع البشر عامة، ومع الأطفال والشباب بصورة خاصة. لقد كانت برامج إعداد المعلم تشمل التربية النظرية وهى تقابل مواد فلسفة التربية وأصولها حاليًا، وعلم النفس التعليمى، والتربية التجريبية الإحصاء التربوى ومناهج البحث حاليًا وطرق التدريس، والصحة المدرسية والتربية العملية كمواد أكاديمية وتطبيقية. وإلى جانبها مجالات من النشاط لابد من ممارستها، وإن لم يكونا ضمن درجات الدبلوم، وهما النشاط الرياضى الذى كان يشرف عليه الأستاذ على حافظ، الذى أصبح وكيلًا لوزارة التربية والتعليم فى الستينيات من القرن الماضى، ونشاط الهوايات التى يختار الطالب هواية واحدة كالتصوير الفوتوغرافى أو الرسم أو الأشغال اليدوية.

وهكذا تتكامل فى هذا البرنامج مهارات المعلم، معرفةً وبدنًا ووجدانًا، بحيث يدرك ويختبر قيمة هذا الثالوث فى تكوينه وفى تكوين طلابه. وكان التركيز على التربية العملية والتدريب على ممارسة التدريس فى المدارس الابتدائية والثانوية؛ حيث خصص لها أعلى درجات المواد بما يعادل ضعفها، ومن يرسب فيها إما أن يفصل أو يعيد برنامج السنة التالية بأكمله. وكان يشارك فى تقييمها أساتذة المعهد بما فيهم القبانى والقوصى، إلى جانب كبيرى مفتشى المواد التخصصية فى وزارة المعارف. وقد كان من حظى أن كان هذا المشرف هو الأستاذ أحمد نجيب هاشم

الذى اصبح فيها بعد وزيرًا للتربية والتعليم فى أوائل الستينيات من القرن الماضي. كما كان هناك امتحان فيما يسمى بالمقال، يختار له موضوع تربوى ثقافى يبين قدرات الطالب على التفكير والكتابة، مستخدمًا ما يناسب الموضوع من دراسة العلوم التربوية والنفسية المختلفة. أذكر أن المقال الذى تناولته فى امتحانى (تستطيع أن تأخذ الحصان إلى الماء ليشرب ولكنك لن تستطيع إجباره على أن يشرب).

أسرد هذه التفاصيل لأبين موقفى الملح فى تطوير كليات التربية وبخاصة فيما يتعلق بنمط كليات التربية الحالى المعروف بنمط التكامل، الذى يجمع خلال أربع سنوات بين المواد التخصصية والعلوم التربوية والنفسية، ومكون ثقافى نظرى مثل تعلم اللغة الإنجليزية والكمبيوتر. وبدلًا من أن يقتصر إعداد المعلم فى التركيز على المواد التربوية والنفسية مستقبلًا خريجى الكليات الجامعية وقد أعدوا إعدادًا علميًّا، تشغل الكليات نفسها التربوية حاليًا بما تقوم به الكليات الجامعية الأكاديمية التخصصية. وبدلًا من أن تجمع المواد التربوية والنفسية فى خمس أو ست مقررات مترابطة، تفتت هذه المواد إلى حوالى (٢٠) مادة مستقلة. وتكاد تنعدم مجالات التكوين الرياضى والهوايات، وتحتل التربية العملية أهمية ثانوية يشرف عليها من الكلية فى معظم الحالات معاونو أعضاء هيئة التدريس، مع فريق من مفتشى وزارة التربية والتعليم دون أسس معروفة فى اختيارهم.

ولا يتسع المجال للتفصيل فيما ينبغى أن تكون عليه كليات التربية من حيث برامجها، لكنى باختصار لو خيرت بين نظامها الحالى والنظام القديم الذى أعددت من خلاله، لفضلت الأخير مع تحديث المعرفة وتوظيف الوسائط التكنولوجية فى التعليم والتعلم واستمرار الإعداد على مدى عامين. وقد أبديت رأيى هذا فى عدة مناسبات مفضلًا النمط التتابعى القديم على التكاملى السائد حاليًا.

ومن طرائف حياتى فى المعهد العالى للتربية فى القسم الداخلي، هجمات بعض أفراد القسم الرياضى على نصيبنا فى الطعام، على الرغم من أنهم ينالون مرة ونصف

من التعيين ما يناله القسم العام. ولما كنت بطيئًا فى الأكل، كنت دائمًا فريسة لتلك الغارات التى كانت مجالًا للضحك بيننا وبينهم. وأذكر كذلك ما كان يذهلنى من تكوين أجسام طلاب قسم التربية الرياضية، وبخاصة ذلك الشاب الذى كنا نسميه (طرزان)، يمتلىء جسمه بالعضلات، وكثيرًا ما كنت أعابثه وأحاول أن ألمسها؛ ليزداد زهوا بها حين يحركها فتبدوا أكثر تجسيدًا، وينتهى العبث بأن يدفعنى بقبضة يده، فاهتز وأغادره مسرعًا إيثارًا للسلامة.

ومما يستحق التذكر أن من بين طلاب التربية الرياضية، صديقى العزيز أ.د.عبدالخالق علام الذى كان من أبطال مصر فى السباحة، وأصبح بعد نيله لشهادة الدكتوراه من الولايات المتحدة نائبًا ثم مستشارًا لمدير الجامعة الأمريكية فى القاهرة.

أما طلاب قسم التربية الفنية فكانوا أهل وداعة وتأمل، وكانت منتجاتهم الفنية مصدر إعجاب شديد لواحد مثلي، نجح فى امتحان الرسم فى البكالوريا (على الحركرك) أو بالدرجة الدنيا كما سبقت الإشارة، ومن بين طلاب ذلك القسم كان كمال الشناوي، الذى أصبح نجمًا من نجوم السينما والتليفزيون، وذا طابع متميز فى فنونه التمثيلية.

والخلاصة أن مقامى فى ذلك المعهد كان هنيئًا ممتعًا ومنعشًا بإضافته الجديدة فى عالم التربية وفنون إعداد المعلم، بعد أن كنت أعتقد وأنا طالب فى الجامعة أن كل فرد يستطيع أن يكون معلمًا، واقتنعت بأن هذا الإعداد التربوى خطوة ضرورية ليكتسب التعليم مرتبة (المهنة). وما دمنا نتذكر الأعلام من خريجى معهد التربية، الذى تحول إلى كلية التربية عند إنشاء جامعة عين شمس فى أوائل الخمسينيات وتعيينى أستاذًا بها، فلا يفوتنى أن أذكر من تلامذتى (محمد الجوهري) الذى أصبح من أساتذة علم الاجتماع المرموقين ورئيسًا لجامعة حلوان، فضلًا عن أسماء أخرى كثيرة ممن تولوا مناصب قيادية فى وزارة التربية والتعليم أو أساتذة فى كليات

التربية. ولن يفوتنى كذلك تلميذى النابه الواعد منذ شبابه شاعرنا ومفكرنا المبدع، فاروق شوشه، لنختتم به قصة تعلمنا لنصبح معلمين فى المدارس الحكومية.

معلمًا فى مدرسة قنا الابتدائية:

ومع دبلوم التربية كان تعيين الخريجين فورًا بعد تخرجهم، وكان من نصيبى أن أعين فى مدرسة قنا الابتدائية، مع أن الأوائل كانوا يعينون عادة فى القاهرة أو حواضر مديريات الوجه البحرى. ولم يساورنى أى تبرم بهذا التعيين، حيث تظل "سلوا" وأهلى قريبين منى، وكان الخريجون يعينون دائمًا فى المدارس الابتدائية. وبمجرد إبلاغى بخبر التعيين شددت رحالى إلى قنا، وبعد أن أودعت حقيبتى فى أحد فنادقها توجهت على الفور إلى المدرسة لاستلام العمل. والتقيت فيها بأحد المدرسين الذين تخرجوا من المعهد منذ ثلاث سنوات، وذكرت له مشكلة البحث عن سكن، فأفادنى بأنه يستأجر شقة واسعة بها غرفة إضافية يمكن أن أشاركه فيها. رحبت بالفكرة وشكرته ممتنًا على هذه الفرصة، والتى حلت مشكلة من أكبر المشكلات فى المدن الصعيدية حيث يتعذر فيها سكن (العُزَّاب).

انتقلت إلى السكن الجديد، وذهبت مع زميلى إلى السوق لشراء السرير والمرتبة والمخدة واللحاف وملحقاتها من أدوات المعيشة. وفى أواخر الشهر تسلمت مرتبى (١٣.٥) جنيها حسب الكادر الذى يمنح الشهادة الجامعية (١٢) جنيها، وللسنة الإضافية فى الدبلوم (١.٥) جنيهًا علاوة.. وضعت رزمة النقود فى جيبى دون أن أعدها رغم إلحاح الموظف المسئول. وأحسست مع هذا المبلغ أننى أصبحت شخصًا آخر، مستقلًا قادرًا على شراء ما احتاجه وما ابتغيه. وسارعت بعد أن عددت جنيهاتى بإرسال برقية إلى والدى باستلام العمل وقبض المرتب، سائلًا دعواته ودعوات الوالده. وقد كان من أوائل ما اشتريت (منشة) بيد من العظم اللامع المصقول، فقد كانت رمزًا من رموز الموظفين وبخاصة المعلمين فى تلك الأيام. وهكذا استقر بى المقام سكنًا وعملًا. وأخذنى صاحبى إلى نادى الموظفين

فاستمتعت بجلسته الهادئة وبامتلاك (المنشة) فى يدي، وللمعلمين فى ذلك الزمان احترام وتقدير لمهنتهم، حيث يليق بهم استحقاق أبيات شوقى عن مكانة المعلم:

قــم للمعلــم وفــه التبجيــلا   كــاد المعلم أن يكــون رســولا

أرأيت أعظم أو أجل من الـذي   يبنى وينشئ أنفسًا وعقــولا

ومع هذه الهيبة للمدرس التى تآكلت اليوم، فإنى أُفَضِّلُ أن يقدر الطلاب احترام المدرس كصديق وأخ كبير، وليس سلطة قاهرة باهرة، وصغت هذه العلاقة فى بيت شعر من عندياتي:

قم للمعلم وفـه التقديـرا   كاد المعلم أن يكون رفيقًا

وبدأت مزاولة مهمتى فى تدريس التاريخ والجغرافيا فى الصف الثانى من الصفوف الأربعة فى المدرسة الابتدائية. ولم يمض على عملي بالمدرسة أسبوعان ليستدعينى ناظر المدرسة مرحبًا هاشًّا باشًّا ليسألني: هل استلمت بطاقات التموين المقررة لأقمشة الدبلان والدمور؟ وكانت تُشترى بالبطاقة حيث كنا فى معمعان الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٣م فلما أجبته بتسلمى لها، طلب منى أن أقدمها له هدية، خصوصًا وأنا شاب (أعْزَب) ليس لى حاجة ماسة لاستخدامها. وبعد دقيقة صمت اعتذرت له حيث أننى أريد أن اشترى هذه الأقمشة لشراء الملاية، وتغطية المرتبة والمخدة واللحاف، إلى جانب تفصيل جلابية وملابس داخلية. ولما حاول أن يساومنى ازددت فى تأكيد حاجتى الماسة واستخدامها فى الأسبوع القادم. عبس وجه ناظري، وقد خيبت ظنه ودعانى إلى الانصراف لإنجاز بعض مهماته الإدارية.

حكيت القصة لزميلى وأيد موقفى ملمحًا إلى أن هذا الناظر ينتهز الفرص لاستغلال المعلمين والموظفين، وبادرت معه فى اليوم التالى بالذهاب إلى (الخياط) لتغليف مطالب السرير وتفصيل الجلابية؛ حتى لا يكون هناك أى مجال للمطالبة أو المساومة عليها فيما بعد.

وانتظمت فى عملى بجدول ٢٤ حصة فى الأسبوع للصفين الأول والثانى حسب المنهج المقرر فى التاريخ والجغرافية، مطالبًا تلاميذى بقراءة الموضوعات فى الكتاب قبل الحصة؛ حتى يمكن أن يتم شرحى ومناقشة ما قد يجدونه فى الكتاب من صعوبات فى الفهم.

بين نيل التربية ونيل الوزارة:

وما أن مضى على العام الدراسى شهران إلا وقد (طبَّ) على المدرسة مفتش المواد الاجتماعية لمراقبة سير التدريس فى هذه المادة. وحين يجيئ المفتش ترتعد فرائص المدرسين، حيث يتوقعون اللوم وتصيد الأخطاء أكثر من التشجيع والتوجيه الذى هو دورهم الأهم. لذلك تم تغيير التسمية فيما بعد باسم (الموجِّه). بيد أن تغيير التسمية فى كثير من الحالات لا يعنى تغييرًا جوهريًّا فى المضمون.

وممارستى للتدريس الفعلى ما تزال محدودة، ولكنها اقترنت بالحماس والرغبة فى تطبيق أساليب التربية الحديثة. و (طبَّت) زيارة المفتش لدرس عن نهر النيل لتلاميذ الصف الثانى ممن أعمارهم لا تتجاوز التاسعة. ودون علم بزيارة المفتش أو حتى مجيئه إلى المدرسة، فكرت فى اليوم السابق فى خطة الدرس على أساس تقديم صورة محسوسة للنهر، تعقبها دراسة على الخريطة، كما هو وارد فى الكتاب المقرر. وقد دونت تلك الخطة فى دفتر التحضير الذى هو سجل لما يقوم به المدرس فى حصص المواد التى يدرسها.

لذلك أعددت مساء اليوم السابق للدرس فى جانب من فناء المدرسة مجسمًا من الحفر والرمل لنهر مرتفعة أرضه فى منبعه، ثم ينخفض مستوى الأرض تدريجيا فى مجراه ليصل إلى حفرة واسعة يصب فيها مياهه هى البحر. وباستخدام رشاشات المياه تنزل الأمطار فى الجنوب أى أسفل النموذج المرتفعة أرضه، ووضعت بعض الحصى الصغير فى مجرى النهر لتمثيل الجنادل التى تعترض جريانه، وتم عمل شق شرقى للنهر لتمثل رافدًا للنيل الأزرق ومياه الفيضان.

وأثناء الحصة نظمت التلاميذ، وكان عددهم (١٥) تلميذًا ما بين مجموعة مسئولية عن المنبع فى الجنوب وأخرى عن المصب فى الشمال، وثالثة عن الفرع الشرقى وتتابعت عمليات رش المياه من الجنوب وجريانها نحو الشمال، ثم مزيد من المياه لتفيض على الجانبين. وفى الوقت الذى بدأت أشرح فن تطبيق ذلك على أنه نهر النيل كما هو وارد فى الكتاب. (يطب) المفتش فجأة إلى فناء المدرسة بعد ذهابه إلى الفصل حيث لم يجد أحدًا، وقيل له إنه فى (حوش) المدرسة.

جاء برفقة الناظر أحضر لهما الفراش كرسيين للجلوس عليهما، وتركنى أكمل أهم مواقع النهر دون أن يكون للبيه المفتش أى تعليق على ما رأى، ثم صرفت التلاميذ ليغسلوا أيديهم، بينما طلب منى الناظر أن أمر عليه فى مكتبه بعد ساعة، ومع تثاقل فترة الساعة كنت موزعًا بين فرحتى بنشاط التلاميذ وحماس كل مجموعة للقيام بمسئولياتها من ناحية، وبين ذهول وتخوف مما سوف يقوله المفتش. وفى إحدى اللحظات خطر لى أنه سيثنى علىَّ فى اتباع طرق التربية الحديثة. وفى بداية اللقاء بادرنى المفتش بالسؤال: هل أنت مدرس مواد اجتماعية يا أفندى؟ ما هذا العبث الذى كنت تفعله فى الحوش؟ التلاميذ يلعبون بالماء والتراب والحصى، وتتسخ أيديهم ووجوههم... ما شاء الله !! أين نهر النيل؟ أين الخريطة؟ أين المعلومات؟ أين الملخص السبورى؟

ولقفت أنفاسى واستجمعت قواى، محاولًا أن أشرح خطة الدرس كما دونتها فى دفتر التحضير من تمثيل مجسد لنهر النيل، يتناسب مع تصورى لقدرات التلاميذ على الفهم فى هذه المرحلة من العمر؛ مما يجعل للخريطة المسطحة الرمزية دلالة وقراءة أيسر. وهذا ما تعلمناه من طرق التدريس الحديثة فى معهد التربية. وقاطعنى سعادته ساخرًا (مالنا والتربية الحديثة بتاعتكم.... عليك أن تنسى ذلك... المهم أن تشرح الدرس وأمامك الخريطة، ويحفظه التلاميذ كما فى الكتاب، وينجحون فى الإجابة عن الأسئلة فى امتحان آخر العام... هذه هى طريقة المعلم يا أفندى... إنت

لسه صغير، لكن إذا استمريت بطريقتكم فى التربية الحديثة، فسوف تجد نفسك فى العام القادم فى مدرسة عنيبه الابتدائية، أتفضل يا أفندي).

خرجت من حجرة الناظر ورأسى فى حالة دوران حول مصيرى ومستقبلى، وهل أخيب طموحات والدى وما يعلقه علىّ من آمال... أذهب إلى عنيبة آخر مدينة فى النوبة، وأقصى معقل لأكثر المغضوب عليهم والضالين. ويستبد بى القلق، ويهدئ رفيقى من روعى... كلنا تعرضنا لذلك... لكن يشاء الله... ويحمل لى المستقبل بأسرع مما يمكن تصوره مستقبلًا أفضل وأزهر... وقصته فى الصفحات التالية.. لكننى كلما تذكرت هذه المحنة أتساءل: هل حدث تغير حقيقى فى طرق التدريس مغايرًا لما قاله لى سعادة المفتش، وهل تغيرت مهمة المفتش بعد تسميته بالموجه التربوى؟ !!

معذرة عن الاستطراد مرة أخرى، إنها شواغل المهنة فى إلحاحها واقتضاءاتها، واستأذنكم فى إيراد موقف تعليمى آخر، تذكرته وأنا تلميذ فى الصف الثانى فى المدرسة الابتدائية فى أسوان مع سعادة مفتش آخر.

بين بط الوزارة وبط التلاميذ:

ومرة أخرى أذكر فى هذا السياق مفتشًا، مرَّ علينا ونحن تلاميذ فى المدرسة الابتدائية فى أسوان، ونحن فى سن الثامنة تقريبًا. دخل علينا مفتش اللغة العربية، وكان الدرس "محفوظات"، وفى مثل هذا الدرس يقوم التلاميذ بتسميع ما حفظوا من أشعار وأناشيد... وكانت فعلًا أناشيد لطيفة تناسب مفرداتنا ومدركاتنا فى تلك السن، ليس فيها تكلف أو تجاوز لفهمنا لطبيعة الموضوع، كما يحدث فى بعض الحالات عند اختيار الأشعار أو الأناشيد فى هذه الأيام.. وكانت قطعة المحفوظات عن " البط" للشاعر المرحوم الهراوى على ما أذكر.

وللمفتش كالعادة رهبة عند التلاميذ، كما هو الشأن لدى المعلم، جلسنا خاشعين خائفين... وبدأ المدرس فى اختيار التلاميذ النجباء لتسميع قطعة المحفوظات...

ويبدو أننى كنت واحدًا منهم... فكنت بداية من طلب إليهم "التسميع"، وألقيت النشيد بصوت عال، وكان هو المعيار لجودة الإلقاء، حتى جئت عند البيت:

والبط يسبح لاعبًا   وسط المياه الجارية

وعنده أوقفنى المفتش بعد أن كنت منطلقًا فى الإلقاء: يا ولد هذا خطأ... من يصحح هذا البيت... وقام تلميذ ثان وثالث ورابع، والجميع ينطقون البيت بنفس الكلمات التى نطقتها... ولكن البيت كما هو وارد فى النشيد:

والبط يلعب سابحًا   وسط المياه الجاريـة

والفرق بين البيتين هو فرق بين تعبيرى "يسبح لاعبًا" كما ردده التلاميذ "ويلعب سابحا" كما صوره النشيد فى الكتاب المقرر، وتوقف التسميع... وجاء التوبيخ من المفتش مصححًا البيت كما فى الكتاب وليقول لنا إنكم لا تجيدون حفظ هذه الأناشيد. وعلينا بعدها أن نخرج كراسات الإملاء ليملى علينا قطعة لمعرفة قدراتنا على الكتابة الصحيحة.. وأذكر من هذا الإملاء جملتين لا أنساهما: "فليحمنا المولى من غوائل الزمان... أخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم"، ومر علينا يصحح الأخطاء... فوجد مالا يسره... وانتهى به الحكم على أننا "غير نافعين حتى فى الإملاء" وغادر المفتش الصف بما يحيطه من هيبة ورهبة وبهاء.

وبعد: فهذا نموذج آخر لتصيد الأخطاء وتحجر التصورات فى العمليات التربوية... ولن يزعم زاعم بأن ذلك قد انتهى، وأغلب الظن أنه ما يزال تراثًا حيًّا يمارس فعله فى التربية العربية... تلقين واتباع وأنماط جامدة وآفاق يحدها الكتاب والمقرر والامتحان... دعنى أناقش الآن نشيد البط... إذا كان المفتش قد وجد هذا الاختلاف فى تعبير التلاميذ، أما كان أجدى له ولنا أن يتوقف عند ظاهرة الوزن المماثلة لكلا البيتين، وأن هذا التماثل فى الإيقاع الشعرى الموسيقى هو الذى حدا بالتلاميذ إلى إدراك أنهم لم يخطئوا.

والبط يسبح لاعبا وسط المياه الجارية

والبط يلعب سابحًا وسط المياه الجارية

أما كان هذا الاختلاف مجالًا لتوضيح مفهوم الأوزان والموسيقى الشعرية، وإلى الحديث عما هو نشيد شعرى ونثر عادي، والاختلاف بينهما القائم على أن الشعر يتميز بأنه الكلام الموزون المقفى، بتعبير بسيط بطبيعة الحال؟ ألم يتح هذا "الخطأ" للمفتش مجالًا يمكن أن يستغله لمناقشة الاختلاف فى الصورة الشعرية بين التعبيرين " البط يسبح لاعبًا، والبط يلعب سابحًا..." وأى الصورتين يفضلها التلاميذ؟ وليختلفوا فى الرأي، وليتعرف سبب تفضيل الصورة الأولى على الثانية أو العكس... أما كان بإمكان المفتش أن يتحدث عن مواقع المياه الجارية والمياه الراكدة والفرق بينهما من الناحية الصحية؟ وخاصة بالنسبة لما يتعرض له الصغار فى الريف من أمراض نتيجة السباحة فى المياه الراكدة؟

ثم لماذا اختار للإملاء عبارة " اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم "؟ فهل رأى فينا مظاهر الرخاء والترف، ومعظمنا من أبناء صغار التجار والموظفين والعمال والفلاحين؟ وإنما كان كل ما يعنيه أن نخطئ فى كلمة " اخشوشنوا "، ثم لماذا يذكرنا بغوائل الزمان ونحن صبية نرى الحياة فرحًا ولعبًا وحركة، وإنما كان كل ما يعنيه هو أن نخطئ كذلك فى هجاء كلمات " فليحمنا، المولى... غوائل "، ولعلى لا أكون قد أخطأت الآن فى هجائها... كان المفتش يستطيع أن يفعل الكثير مما يقدح ذهن الأطفال ويفيدهم ويمتعهم، لكنه جاء مفتشًا وليس موجهًا، وآثر فرض السلطة من خلال أخطائنا بديلا عن إكسابنا معرفة من خلال صداقتنا.

ويأتى الفرج النقل إلى المدرسة الثانوية:

ومنذ أن غادر المفتش الرهيب مدرسة قنا الابتدائية، حاصرنى الهم والغم فى ترقب لزيارته التالية، ورغم ما قدمه له زميلى من مواساة ظلت تراودنى عقوبة النقل إلى مدرسة عنيبة أو غيره من ضروب العقوبة. وكنت كلما التقيت بسعادة

الناظر يذكرنى بالاستعداد والتهيؤ لما قد يحيق بى من مصير فى الزيارة التالية للمفتش، وقد كتب تقريرًا سيئًا عنى فى دفتر التقارير الذى يدون فيه المفتشون أحكامهم على من فتشوا عليهم فى المدرسة. وكنت على يقين من أن تحامل سعادته كان مرتبطًا بموقفي، عندما اعتذرت له عن إعطائه كوبونات قماش الدبلان والدمور.

يمر شهران وأنا فى حالة اكتئاب، ليس لى من راحة وتنفيس عن الهم والكرب سوى تلك اللحظات التى أقضيها فى نادى الموظفين، احتسى أكواب الشاى واحدًا بعد الآخر، وأهش بمنشتى على وجهى دفعًا للذباب أحيانا وفى حالة عصبية أحيانا أخرى. وفى أواخر أكتوبر من هذا العام يستدعينى الناظر لمقابلته، متوقعًا ما لا يسر من الأخبار، يدعونى للجلوس، وينبئونى أنه قد وصله كتاب من وزارة المعارف يطلب نقلى إلى القاهرة. وهو لا ينصحنى بقبول هذا النقل، والذى يمكننى أن اعتذر عنه على اعتبار أنه سوف يبعدنى عن مقر أهلى فى سلوا. رجوته أن أقرأ هذه المكاتبة، وإذا بكل سطر فيها يدعونى إلى أن أطير فرحًا. فحوى الكتاب أن وزارة المعارف بطلب من عميد معهد التربية، سعادة الأستاذ إسماعيل القباني، قد وافقت على طلبه بنقلى من مدرسة قنا الابتدائية إلى المدرسة النموذجية الثانوية فى حدائق القبة بالقاهرة، ويرجى تنفيذ النقل على وجه السرعة.

وبكل الثقة ومشاعر الانتصار شكرت للناظر نصيحته ورجوته أن يقبل نقلى منذ نهاية الأسبوع.. وعلى الفور استأذنت وذهبت إلى غرفة المدرسين، وأنا لا أكاد أصدق، كتبت خطاب موافقتى ومغادرتى فى نهاية هذا الأسبوع.. ويتساءل الزملاء المدرسون عن مبرر فرحى (وزأططتى)، فأخبرهم بخبر نقلى إلى المدرسة النموذجية الثانوية بحدائق القبة، وبعضهم لم يصدق النبأ حتى أطلع على كتاب الوزارة... وقال أحدهم مدرس جديد بمدرسة ابتدائية فى قنا يرقى بعد شهرين إلى مدرس ثانوى وفى القاهرة. ما واسطتك..وهل الوزير من أقربائك؟!! ما الحكاية إذًا؟

وحقيقة حكاية النقل تتلخص فى أن معهد التربية كانت تتبعه مباشرة إذ ذاك مدرسة ابتدائية نموذجية فى حدائق القبة، يمارس فيها تجاربه وتطبيقاته لأساليب التربية الحديثة التى يدعو لها ويربى عليها طلاب معهده لاتباعها عند تعيينهم فى المدارس الحكومية. واستقر رأيه على إنشاء مدرسة ثانوية نموذجية، تكمل ما يقوم به فى المدرسة النموذجية الابتدائية فى حى حدائق القبة نفسه، فاختار لها مدرسو المواد المختلفة، وعند اختياره لمدرس المواد الاجتماعية وقع عليَّ بناء على مؤهلاتي: الليسانس الممتازة من الجامعة، والأول فى دبلوم معهد التربية، تخصص مواد اجتماعية... فلا واسطة، ولا صلة بوزير أو غير وزير.

أعددت حقيبتي للسفر، وتركت لزميلي أن يبيع أو يتصرف كما يشاء فى ما لدى من أثاث متواضع.. وفى صبيحة يوم السفر ذهبت لأودع زملائى المدرسين، ولم أتردد فى أن أطرق باب سعادة ناظر (الدبلان والدمور)، مذكرًا له بأن الله قد أنقذنى مما توعد به المفتش المهيب.

انزل من القطار (المفتخر) الذى ركبته لأول مرة – وكان مفتخرًا حقًا – حيث كان فى استقبالى بمحطة باب الحديد بلدياتى الأزهري، قضيت فى ضيافته أسبوعًا. وفى اليوم التالى من وصولى أركب التاكسى (ولأول مرة) ليأخذنى إلى شارع الشعراوى فى حدائق القبة حيث مكان المدرسة الثانوية فى فيلا كبيرة أنيقة ضمن "الفلل" والبنايات الجميلة فى ذلك الحي. واستلمت العمل، كان ناظر المدرسة شخصية ودودة محترمة واسمه (عبد العزيز سلامة)، عرفت أخيرًا أنه عم الأستاذ أحمد سلامة الكاتب الصحفى المرموق. قدم لى عبد العزيز بك سلامة صورة من مقرر السنة الدراسية، وهو الصف الوحيد الذى بدأت به المدرسة.

وكان من طلابى فيما أتذكر مع حفظ الألقاب (عاطف عبيد) الذى تولى رئاسة الوزارة فى مصر، و(حسين أمين)، الذى اصبح سفيرًا وكاتبًا ومفكرًا إسلاميًا مجتهدًا، (وجميل حقي) الصيدلى والمناضل الاشتراكي، (ومراد شفيق غربال) ابن

أستاذى المؤرخ الجليل الأستاذ شفيق غربال، (وحسين عبد الفتاح) من المحاسبين المشهورين، و(عفيفي حافظ عفيفي) ابن السياسى المعروف، و(عزيز رياض) طبيب الأمراض النفسية الشهير فى الإسكندرية، و(محمود صبرى على) الطبيب المثقف، و(مصطفى المنيلاوي) الطبيب الفنان فى القاهرة، و(عبد الحميد حشيش) القانونى الضليع الذى كان من أبرز من شاركوا فى صياغة دستور ١٩٧١م، ويغيب عنى اسم أحد هؤلاء الطلاب الذى أصبح عميدًا لكلية الطب فى الإسماعيلية، و(اللواء بسيوني) أحد أبطال حرب أكتوبر وغيرهم من الطلاب، الذين احتلوا مواقع هامة فى الجيش وفى الحياة العامة فى مصر.

ثم توافد على المدرسة الثانوية فيما بعد خريجو المدرسة النموذجية الابتدائية، أتذكر منهم (جلال أمين) أستاذ الاقتصاد والمفكر والناقد السياسي، و(طارق على حسن) أستاذ الطب فى جامعة الأزهر والفنان الموهوب المبدع، منذ صغره، والذى تولى رئاسة الأوبرا فى أوائل عملها، و(كمال شاهين) أحد شهداء حرب ٧٣م وغيرهم ممن يسكنون حى حدائق القبة، أو ممن أدركوا قيمة المدرسة فى تعليم أبنائهم... ومازلت التقى ببعضهم بين الحين والآخر معتزًّا ومفاخرًا بأنى كنت أستاذهم، ويبادلوننى بأعمق آيات التكريم والوفاء، ولعلَّه من حقى أن أزهو بأنى كنت معلمًا لهذه الكوكبة من الأعلام المصرية فى ساحة العمل الوطني.

وفى السنوات الثلاث التالية بعملى فى المدرسة، كنت أتمتع بقسط وافر من حرية الحركة فى موضوعات منهج تدريس التاريخ والجغرافيا، من خلال مسرحيات صغيرة، ومن دراسة مشروعات محددة أو عمل نماذج ولوحات، أو قراءة كتب يقوم الطلاب بعرضها. وكان يشرف ويوجه عملنا فى المدرسة أساتذة معهد التربية بقيادة الأستاذ القبانى بنفسه، ومعه د. عبد العزيز القوصي.

ولما كنت من أصغر الأساتذة سنًّا فقد تم اختيارى لأكون أمينًا للمكتبة، وكان ساعدى الأيمن فى مهماتها الطالب (حسين أمين)، واخترت كذلك مسئولًا عن

الرحلات. وقد تعجب أيها القارئ أنه إضافة إلى ذلك، كنت مشرفًا على النظام العام فى المدرسة، وعميدًا لأسرة صلاح الدين وأنشطتها الرياضية والثقافية، وفى مفارقة كبرى مع مدرسة قنا الابتدائية شعرت باستمتاع غامر بعملى فى هذه المهمات المتعددة، التى عززت محبتى لطلابى وتقديرهم لجهودي.

رسالة الماجستير فى التاريخ:

وفوق هذا وذاك أتاح لى عملى بالمدرسة النموذجية فى القاهرة أن أسجل لدراسة الماجستير فى التاريخ مع الدكتور محمد مصطفى زيادة، والذى يمثل تحقيقه وتحريره ونشره لمجلدات المقريزى فى كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك) وفى كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) إسهامًا رائعًا من مصادر عصور السلطنة المملوكية وأخبارها.
وكان عنوان رسالتى (علاقات مصر المملوكية بالدول الأفريقية) أى فى الحقبة ما بين القرنين ١٢، ١٦م، وتلك هى الدول الإسلامية بشمالى أفريقية من الإدارسة والأغالبة والحمادية والمرابطين والموحدين والحفصية والزيانية والمرينية،ثم دول السودان الغربى وإماراته الإسلامية من مملكة مالى والكانم والبرنو والتكرور، ثم بلاد النوبة المسيحية والسودان الشمالى إلى جانب الحبشة المسيحية، وبلاد الطراز الإسلامى (الصومال). وقد كان موضوعًا جديدًا لم يسبق تناوله فى بحوث تاريخ العصور الوسطى الإسلامية.

وقد انتهيت من إعدادها ومناقشتها صيف عام ١٩٤٥، وغصت خلالها فى كتابات المقريزي، وأبو المحاسن بن تغرى بردي، والسيوطي، والنويري، والقلقشندي، ومن المراجع الأجنبية لين بول، وجاستون فيت، وكاترمير، وكولبو وغيرها من المراجع الإنجليزية والفرنسية، والتى كان يسمح لى باستعارتها من مكتبة باب الخلق.

وأذكر أننى كنت أزور أستاذى د. زيادة فى بيته بمصر الجديدة لأقدم له ما تيسر لى كتابته من فصول. وأذكر كذلك أنه علمنى كيف تكون الكتابة التاريخية

المنضبطة، فكان يقوم بإعادة كتابة صفحة مما كتبت مشيرًا إلى المفارقة بين الأسلوبين. وكانت هذه التدريبات متكررة فى مختلف الفصول لأحاول إعادة كتابتها؛ مما توافر لهذه الرسالة من ثناء الممتحنين بالإحكام فى أسلوبها والتدقيق فى معلوماتها، والقدرة على ترجيح الآراء وتفسير مجريات الأحداث وترابطها، مما يعتبر عدة الكتابة العلمية فى التاريخ. وإنى لمدين له بهذه المهارات فى كتاباتى التربوية فيما بعد.

وبعد عودتى من البعثة ومن انشغالى بهموم التربية والتعليم والعمل مع الأمم المتحدة حتى عام ١٩٨٧م، افتقدت مخطوطة الرسالة إذ ذاك، وعندما عثرت عليها فى أحد صناديق سلوا، لم أتردد فى نشرها، اعتزازًا بأنها كانت باكورة كتاباتى فى البحث العلمي. كذلك أردت- كما أشرت فى مقدمة الكتاب - أن تكون رمزًا للوفاء والتقدير والعرفان بفضل الأستاذ الجليل الدكتور محمد مصطفى زيادة الذى أشرف على هذه الرسالة، وخط بقلمه فى تدريباته وتصحيحاته وتعديلاته وتساؤلاته فى كل صفحة من صفحاتها. كذلك أردتها أن تكون تقديرًا وإجلالًا للأستاذين اللذين اشتركا فى مناقشتها والحكم عليها، وهما الأستاذ شفيق غربال، والدكتور حسن إبراهيم حسن الأستاذان بالجامعة.

وإذ أتذكر كل تلك المهمات التى مارستها باجتهاد ومثابرة فى مرحلة تدريسى بالمدرسة الابتدائية والثانوية والانتهاء من كتابة رسالة الماجستير، تثور فى خاطرى تلك الذكريات فى مفارقة بين طاقات الشباب ومعاناة أوجاع الشيخوخة لأتذكر قول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب



الحكاية الثامنة
الاجتياز الحضارى الكبير

البعثة إلى جامعة لندن:

ومع انتهاء رسالتى فى التاريخ، تنقطع صلتى بصناعة التاريخ، وتبدأ رحلتى المتواصلة مع صناعة التربية أو زراعتها كما يحلو لى أحيانا استخدام هذا المجاز. ومعها تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها الثقال قتلًا وتدميرًا واستخدامًا لأول قنبلة ذرية على يوكوهاما ونجازاكي. وتبدأ وزارة المعارف والجامعة انفتاحها الجديد نحو التزود من المعارف والعلوم الغربية وإرسال البعثات إلى إنجلترا وأمريكا وفرنسا. تظهر قوائم البعثات سبتمبر ١٩٤٧م؛ لأجد نفسى فى قائمتين إحداهما لنيل درجة الدكتوراه فى التاريخ، والأخرى فى أصول التربية. أذهب للمشورة فى اختيارأيهما إلى أستاذى شفيق غربال ثم إلى أستاذى إسماعيل القبانى. وقد تغلبت حجة الثانى حين أقنعنى بأنه لا يوجد متخصصون فى هذا الفرع، وأن المستقبل للتربية والتعليم فى تحديث مصر، فاخترت مجال التربية، وكانت بعثتى إلى لندن مع الزملاء. سلامة وحماد ومصطفى فهمي، ورياض معوض.

وكان فريق آخر قد تقررت بعثاتهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى هذا الفوج الأول من البعثات، أذكر منهم صلاح قطب، وأبو الفتوح رضوان، والدمرداش سرحان، وإسحق رمزى، وعبد اللطيف فؤاد. وكلهم بما فيهم زملاء بعثتى كانوا أكبر منى سنًا بحوالى عشر سنوات حيث اختيروا على أنهم من المدرسين القدامى المتميزين، وقد أصبحنا جميعًا بعد عودتنا من البعثات أساتذة فى كليتى التربية - باستثناء رياض معوض - فى جامعة القاهرة أو الإسكندرية، بعد أن تحول معهد التربية إلى كلية من كليات جامعة عين شمس، التى سميت بهذا الاسم، بعد أن كان اسمها جامعة إبراهيم باشا الكبير، كما سميت جامعة فاروق الأول باسم جامعة الإسكندرية، وجامعة محمد على باسم جامعة أسيوط بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

ومما يستحق التنويه أنه فى نظام البعثات حتى حقبة السبعينيات كانت الوزارة أو الجامعة هى التى تحدد الجامعة الأجنبية لطلاب بعثاتها، وكان يتولى هذه المهمة نيابة عنها مكتب البعثات فى دولة الإيفاد. أما اليوم.. فإن على الموفد أن يبحث بنفسه عن الجامعة، التى تقبله عن طريق المراسلة وهو فى مصر. وقد يؤدى هذا إلى قبوله أى جامعة بصرف النظر عن سمعتها ومستواها وما زلت أعتقد أن النظام القديم هو الأفضل، وأتساءل: لماذا أجد كل نظام قديم أفضل؟!!

استخرجت لنا جوازات السفر عن طريق مكتب البعثات فى وزارة المعارف، وقبض المبعوثون إلى إنجلترا عشرين جنيها إسترلينيا، كما قبض المبعوثون إلى أمريكا أربعين دولارًا فيما أتذكر. وقبل سفرنا دعانا الملك فاروق إلى حفل أقيم فى قصر عابدين؛ تكريمًا لجميع المبعوثين فى هذا الفوج، استقبلنا جلالته وسلم على كل واحد منا وهو يلبس قفازه فى يديه. وجاء من نصيبى أن أجلس فى الطرف الأقصى من المائدة. وتناولنا ما تيسر على الطاولة الممتدة من حلويات ومشروبات.. ومع قراءة (المنيو) قائمة المأكولات تبين لى أن بعضها غير موجود فى جزء من طرفنا الأقصى،

بينما كانت تزدحم به أمام جلالته وفى الطرف الآخر المجاور له. وترسخ لدى من ذلك المشهد نموذج ما يمكن أن يحدث من تزييف، فيما كان يزخر به المجتمع المصرى إذ ذاك من ضروب التمييز والفساد. وودعنا مولانا بما استقبلنا به من سلام.. بقفازاته.

وبعد ثلاثة أيام من هذا الحفل، تصلنى إشارة تليفونية وأنا فى المدرسة من مكتب البعثات بأن عليَّ أن استعد للسفر بعد يومين، وأن أذهب إليه لاستلام بطاقة السفر، والذهاب إلى مطار ألماظة لاستقلال الطائرة من هناك فى تمام الساعة العاشرة صباحًا. اشتريت حقيبة جلد ثقيلة لتتحمل أمتعتي، كما اشتريت بالطو جبردين رمادى اللون وقميصين وبعض الملابس الداخلية الصوفية، وأسعدنى ما نظمته المدرسة من حفل لوداعى ودعوات بالتوفيق. وبعدها أبرقت لوالدى بأخبار سفرى طالبًا دعاءه ودعاء الوالدة.

ركبت الطائرة المروحية التى كانت تسمى طائرة (داكوتا)، حَطَّت بنا فى مطار (العضم) فى الحدود الليبية، ومنها إلى جزيرة سردينيا فى البحر المتوسط حيث قضيت فيها ليلة فى (ميز) للضباط الإنجليز، ثم استأنفنا الرحلة منها فى طائرة أخرى إلى مطار (هرن) بالساحل الجنوبى من الجزيرة البريطانية، ومنها ركبنا القطار إلى لندن.

وفى (ميز) الضباط بجزيرة سردينيا، بدأت تذوق الطعام الإنجليزى وبخاصة البطاطس والسمك، وإفطار (الكورن فليكس) صباحًا. لكن ما أذهلنى فى تلك الليلة التى سارعت فيها إلى كشك النوم (كيوبكال) من الصفيح، منظر الضابط أو العسكرى الإنجليزي، الذى كان يشاركنى فى تلك الغرفة، وقد خلع جميع ملابسه لينام (ملط) على سريره دون سلام ولا كلام.

وبعد رحلة طويلة استغرقت أكثر من (٤٠) ساعة، انتهى بنا القطار إلى محطة فكتوريا فى لندن. نزلت من القطار وأنا أعانى من شنطتى الثقيلة، وضعتها على

الرصيف لاصدم بها عليه المحطة من زحام وبمنظرها الذى يكسوه الهباب، تعلوها سماء يملؤها السحاب الثقيل المنذر بالمطر. ويجيء هذا المنظر بعكس ما كنت أتوقعه من محطة جميلة تزينها الألوان الزاهية والتنظيم المحكم، وقد عرفت فيما بعد ما كان يقال عن عاصمة الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس إذ ذاك فى المفارقة بين باريس الجميلة ولندن الدخان London the smoke.

أخذت أجرجر شنطتى حتى وصلت بها إلى خارج محطة فكتوريا. واستدعيت أول التاكسيات المنتظرة وطلبت من سائقها أن يأخذنى إلى فندق رخيص وفى أقرب منطقة من رقم (٤) شارع (تشسترفيلد جاردينز؛ دبليو ون) حيث يوجد مقر مكتب البعثات والمكتب الثقافى المصري. وما دريت أن هذا الموقع الذى يطلق عليه (الوست إند) من أرقى المواقع العمرانية فى لندن حيث السفارات والفنادق الضخمة والأندية ومكاتب الشركات الشهيرة. وعلى أى حال وجدت نفسى فى فندق من فنادق المستويات الرفيعة فى منطقة (ماربل آرش)، أجرته فى الليلة مع الإفطار (ون جني) أى جنيه إسترليني وشلن، وهو أكثر مما كنت أتوقعه.

وفى صبيحة اليوم التالى بعد إفطار الكورن فليكس والتوست والزبدة والمربى، استعلمت عن شارع تسترفيلد جاردينز، تبين لى أنه ليس ببعيد وقطعت الطريق سيرًا، متلفتًا يمينًا ويسارًا، أستطلع معالم الحى وأتطلع إلى فـوق أرقـب السماء حتى لا تمطر. وعند وصولى إلى المكتب سجل أحد الموظفين الإنجليز تاريخ وصولي، وإعطائى موعدًا فى اليوم التالى للقاء الدكتور حسام الدين مدير المكتب، يعقبه لقاء آخر مع المسئول عن البعثات.

وقضيت ليلة أخرى فى الفندق ذى التكلفة العالية، فقد كان مرتب طالب البعثات إذ ذاك (٢٤) إسترليني، وبادرت بالذهاب إلى المكتب قبل الموعد المحدد لمقابلة المدير، تجولت فى أنحائه لأتعرف على الموظفين فى غرفهم، وعلى المطعم فى دوره السفلي، والتقيت حلال تجوالى بالأستاذ (الدكتور) مرسى سعد الدين. وكان

قد عين حديثًا مساعدًا للمستشار الثقافي، وتحادثنا حول بعثتي وعرض عليَّ مساعدته فيما قد يواجهني من مشكلات، وهو كطبيعته ودود متفائل مُعين لكل من يفد إلى مكتبه من طلاب البعثات. والتقيت بالمدير في مكتبه الفخم وهو رجل أنيق مهيب الطلعة، يزين رأسه شعر كثيف أسود لامع، تتدلى من صديريته سلسلة (كتينة) ذهبية للساعة، وخاتم نفيس فى يده اليمنى. وكان مجمل نصيحته الاجتهاد فى العمل؛ فالبعثة فرصة ذهبية لاكتساب العلم كما أنها فرصة لمعرفة الشعب البريطاني، وهو يعيد بناء مجتمعه بعد حرب طاحنة خربت الغارات الألمانية جانبًا كبيرًا من مبانيه، ثم أحالني إلى المسئول الثقافى الذى اعطانى عنوان معهد التربية بجامعة لندن، ووعدنى بأخذ موعد من أحد أساتذته واسمه (البروفسور هاملي)، وقد جاء أستاذًا زائرًا لمعهد التربية بالقاهرة فى الفترة بعد تخرجى منه.

وبعد حوالى أكثر من شهر من وصولى وصل الزملاء الثلاثة المبعوثون إلى معهد لندن فى نفس فوجي، وجاء تأخرهم نتيجة بيروقراطية إخلاء طرفهم من مدارسهم الحكومية؛ وانضموا معى فى المقابلة الثانية مع البروفسور هاملى الذى يبدو أن السنة التى قضاها فى معهد التربية بالقاهرة لم تترك لديه انطباعًا حسنا. كانت مقابلته جافة بعض الشيء، وأخبرنا بأن علينا أن نبدأ دراستنا للدبلوم العامة لإعداد المدرسين، وهى المناظرة للدبلوم الذى اجتزناه فى معهد القاهرة. ومع مناقشته بأننا بعثنا لنيل درجتى الماجستير والدكتوراه أصر على أنه لا يعترف بالدبلوم المصرية، وأنه لابد من أن نمر بالدبلوم العامة الإنجليزية أولًا. وقد اتخذ الإجراءات فعلًا لتسجيلنا فى مساقها.. طبعًا انزعجنا، وحاول مكتب البعثات أن يثنيه عن ذلك. لقد وصل بعضنا متأخرين حوالى شهرين من بدء الدراسة، ولم يكن لنا خيار من الالتزام بما قرره ذلك البروفسور، وانتظمنا فى الدراسة، محاضرات، ومناقشات وتربية عملية فى المدارس.

وطفقت ذات يوم استكشف الإعلانات عن المساكن التى كانت توجد فى محطات المترو، أو التى كانت تعلق فى الكلية أو فى مداخل بعض المتاجر، فلم أعثر

على أى شيء مناسب. وكان بعض هذه الإعلانات يضع ملحوظة فى أخرها تشير إلى أنها لا ترحب بتسكين الملونين أو العزاب أو طلاب بلاد ما عبر البحار (أوفرسيز)، وصدمنى ذلك على أنه تمييز عنصرى فى بلد ديمقراطي، ولعلى لا أكون متزيدًا إن ادعيت بأن الحضارة الغربية رغم خطابها المعلن فى إنكاره لنزعات الاستعلاء والتميز فى تعامله مع العالم الثالث، فإن المستتر والخبيء من ثقافتها يحتضن اتجاهات التعصب على أساس العرق واللون والدين، وأن حوار الحضارات ونواياه الحسنة يتجاهل أفكار هينتنجتون أستاذ جامعة هارفارد فى كتابة "صراع الحضارات" وأيديولوجية كثير من الأحزاب العنصرية فى الولايات المتحدة، وبريطانيا وفرنسا.

وخلال ذلك، قابلت فى المكتب أحد زملائى خليفة بركات مبعوث للتخصص فى علم النفس، وقد وجد له مسكنا فى حى (بيز ووتر) ذهبت معه وعرفنى على المديرة، وأسكنتنى فى غرفة مقابلة لغرفته. وهو من البيوت المعروفة باسم (بوردنج هاوس)، يقدم لنزلائه الإفطار والعشاء، وكان يقيم به أشتات من كبار السن، وطالب هندسة تركى. وتشترك فى إدارة البيت مع (مس برايز) أختها (مس برايز) أيضًا ويتجاوز أعمارهما ما بين ٥٥-٦٠سنة ولم نكن نعرف اسميهما الأولين.

ومن طرائف هذا البيت وجود ملصقات بجوار حنفيات المياه وخزان الحمام مكتوب عليها (وَفَّر فى الماء) وكانت مثل هذه الملصقات موجودة على حنفيات المياه والمرافق بالمعهد أيضًا؛ مكتوب عليها (لا تهدر حتى لا تحتاج Waste not want not) إلى جانب شعار آخر على لوحات الإعلان (بريطانيا يمكن أن تفعلها) أى تتجاوز أزمتها (Britain can make it). ومن الطرائف أيضًا أنه عندما قدم لى (لحم الخنزير- بيكون) فى الإفطار اعتذرت عنه، وطلبت بدلًا منه قطعة من الجبن، فاندهشت مس برايز: جبنه فى الصباح !! وأعطيتها دفتر التموين المقنن من لبن

وبيكون ولحوم، واحتفظنا منه بكوبونات الملابس والشيكولاتـه.. أعطيتـها بطيب خاطر واستحقاق، وليس كما أراد أن يعملها معى ناظر مدرسة قنا الابتدائية!!

وكانت مس براير وأختها عندما تمر على مائدتنا التى كان يشاركنا فيها الطالب التركى ورجل استرالي، تسألنا كما تسأل الموائد الأخرى: هل تريدون مزيدًا من التوست أو اللبن، فكان ردنا بعبارة (شكرًا) فكانت تحتار وتكرر الدعوة فنقول أيضًا (شكرًا) ثم علمتنا أن نقول: لا شكر أو نعم شكرًا، فإن شكرًا لوحدها لا تعنى عدم الحاجة، إلا إذا سبقتها (لا) أو (نعم) عند الموافقة.

وقبل إجازة عيد الميلاد عقدت العزم على الانتقال إلى بيت الطلبة الذى يشرف عليه المعهد، بعد أن تم إصلاحه نتيجة لإحدى الغارات الألمانيـة، وكـان بجانبـه قطعة أرض مهدمة لبيت كنت ترى فيه بعض المخلفات كالبانيو وإطارات الشبابيك وبعض الكراسي، وظلت كذلك لم يمسها أحد حتى تم الشروع فى بنائه من جديد.

وأدرك خليفة بركات أنه سيبقى وحيدًا عند مس براير، حتى تصل إليه أسرته من القاهرة، عندما قررت الانتقال إلى بيت الطلبة الجامعي، ومن ثم أراد أن يتودد لمس براير ولأختها فأرسل لها بطاقة معايدة للسنة الجديدة. لكن الطريف ما كتبه على غلاف البطاقة مترجمًا من العربية:

انستى العزيزة المحترمة مس براير My dear esquire miss Prior

وقد أعجبت مس براير بهذا التوجيه الغريب، وشرحت لنا أنه يكتفى بتوجيه الخطاب باسم Miss Mary Prior فقط، ولا داعى لعزيزتى المحترمة !!

ومن بين الفروق اللغوية الثقافية ما صادفته، وكان مبعثًا لحيرتى أننى كنت اسأل عسكرى المرور أو أى شخص عن اسم شارع أو مكان تكون إجابته حين لا يعرفه بادئة (أنا أخشى " أخاف" أننى لا أعرفه) I am afraid Ican't tell you.

وعندما تكررت عبارة (أنا أخاف..) من أحد عساكر المرور قلت له مستغربًا: لماذا أنت خائف؟ Why are you afraid. لكن العبارة هى مجرد اصطلاح لا تعنى معناها الحرفى عند ترجمتها إلى العربية.

غادرت صحبة الزميل خليفة بركات؛ لاستقر طوال سنوات الدراسة الخمس للبعثة فى بيت بشارع (جاور ستريت)، والذى لايبعد عن المعهد بأكثر من عشر دقائق مشيًا، وشاركنى فى الغرفة طالب إنجليزي، وكل منا فى حاله دون أية مشكلات خلال ذلك العام.. وكان للمعهد بيت للطالبات، تشرف على كليهما (مس ستيفنسن) أكثر أناقة واحتفاء بمظهرها من مس براير، ولهجتها تحاكى ما يعرف عند الإنجليز (بلهجة اكسفورد) فى مفارقة عن لهجة لندن وإحيائها العمالية، التى كانت تعرف بلهجة (كوكني)، وهى لهجة مدغمة سريعة تتآكل فيها بعض الحروف؛ مما يصعب على المبتدئين فى هذه اللغة فهمها. وكنت أنا المصرى الوحيد فى هذين البيتين قبل أن تفد إلى بيت الطالبات د. حكمت أبوزيد، بعد أن غيرت مكان بعثتها من جامعة سانت أندروز فى اسكتلندة إلى جامعة لندن. وكان إفطارنا فى بيت الطلبة، أما الغداء والعشاء ففى بيت الطالبات؛ حيث يتوافر فيه مطبخ وقاعة واسعة للطعام، كما توجد به حجرة واسعة للجلوس يتوسطها موقد للتدفئة بواسطة الفحم. ولم تعرف إنجلترا فى ذلك الوقت التدفئة أو التبريد بالأجهزة الكهربائية، وإنما كنا نستخدم ما يعرف بالتدفئة بموقد الغاز؛ حيث يتم إشعاله من خلال إسقاط قطع العملة الإنجليزية.

لقد طاب لى المقام فى بيت الطلبة ولم أغادره خلال مدة بعثتي؛ حيث أتيحت فيه جميع الظروف المعيشية، نومًا وغذاءً واستذكارًا وصحبة وقربًا من المعهد، والذى كان تقع فى إحدى أجنحته الكبرى مكتبة الجامعة المركزية. وفى السنة الثانية من إقامتي، ألححت فى الحصول على حجرة نوم مستقلة. وكنا ندفع خلال أول سنتين للسكن والأكل والغسيل (٣ جني) أى ثلاثة جنيهات وثلاثة شلنات، وكان مرتبنا

بذلك معقولًا؛ أى يتبقى لنا لمصروف الجيب حوالى (١١) جنيهًا إسترلينيًّا، ولم نقدم للمشرفة على البيت إلا دفتر الكوبونات، الذى اقتضته عملية تقنين الاستهلاك مع الاحتفاظ بكوبونات الملابس والشيكولاتة إثر نهاية الحرب العالمية الثانية. وكان هذا المبلغ كافيًا، ثم تتابعت زياداته مع الاستمرار فى ارتفاع الأسعار، حتى وصل فى السنين الأخيرتين إلى (٤٠) جنيها مع مبلغ يماثله للكتب والملابس.

التحولات فى الفضاء الفكرى والحضاري:

ويسرح بى تسلسل الخواطر فى مسيرتى الحياتية والتعليمية لأستعيدها منذ النشأة فى "سلوا" مجتمعًا ريفيًا يكاد أن يكون بدائيًّا مغلقًا مكتفيًا بذاته وبكُتَّابه الذى يعنى بحفظ القرآن الكريم وبعناية أقل بتعلم القراءة والكتابة. وتأتى نقلة حضارية محدودة فى الالتحاق بالمدرسة الإلزامية، الجلوس فيها على المقاعد لأعلى الأرض الترابية، له فترات وأجراس تدق على أساس توقيت الساعة، لا بامتداد الظل أو انحساره. وتتلوها النقلة إلى أدفو، مدينة ذات شوارع وأبنية مصقولة الجدران وذات طوابق عالية، مطلية بألوان بيضاء زاهية وشبابيك خشبية تفتح وتغلق حسب الطلب، بها متاجر عدة، أرضها ترشها العربات بالمياه، وتتوسطها مدرسة ابتدائية تعلم اللغة والإنشاء وقواعد الحساب ومسائله، وتصرف لنا كتبا وريشًا للكتابة من زجاجة حبر غاطسة فى الطرف الأيمن من القمطر. ومن إدفو إلى مشاهد حضارية أكثر تنوعًا فى أسواقها، يطوف بها كثير من الخواجات (السياح) نتعلم فى مدرستها إلى جانب ما بدأنا تعلمه فى إدفو لغة إنجليزية، وتنتهى مدرستها إلى شهادة تمنحك لقب (أفندي) عندما يخاطبك أهل القرية.

ومن أسوان إلى سوهاج بازدحام شوارعها وكثرة مساجدها، وعلو مبانيها وتفوق صناعها. وفى مدرستها الداخلية ما لذ وطاب، ومعاملها وأنابيب اختبارها وتعلم اللغة الفرنسية، وبطلابها وبمظهر ملابسهم الأنيقة، وأساتذتها المتعلمين فى

الخارج، وشهادتيها الكفاءة والبكالوريا، إنها أفق حضارى فسيح. ومنها إلى القاهرة ذات الشوارع الواسعة: متاجرها الكبيرة فيها كل ما تشتهى الأنفس وتقر به الأعين.. ترامها وتاكسياتها تنقلك من أقصاها إلى أقصاها، تتنوع وتتزاحم فى أحيائها ألوان وأشكال من البشر، بجامعتها المصرية وجامعها الأزهر ومئات المآذن التى تتصاعد إلى السماء تراها من حى الدراسة.

ولم يكن ينغص الحياة فيها إلا منظر العساكر الإنجليز الحمر المُطلّين من مقرهم فى (قشلاق) ميدان الإسماعيلية الكبير عراة الصدور، والمنتشرين منهم سكارى فى الشوارع، الذين خطفوا طربوشى فى شارع فؤاد مستسلمًا لا حيلة لى. وحيهم الزمالك يحتكرون سكناه، ويتردد معظم القاهرين عن التجول فيه، باستثناء ماسحى الأحذية. هى نقلة حضارية كبيرة فى عاصمة المملكة المصرية، بكل تحدياتها ومختلف ألوان الطيف فى أحيائها وسكانها، ومختلف لهجاتهم، والجامعة المصرية والأزهر الشريف منارتان للعلم والإيمان.

وتأتى خبرة السفر إلى لندن بالطائرة، لا بالسفر فى القشاش أو المفتخر، لتنقلنى عبر البحار إلى شواطئ لندن. وهنا تأتى النقلة الكبرى والصدمة الثقافية التى يضطرب فيها فكرى وسلوكى وتصوراتى للمدنية والعمران والحياة الأفرنجية، فلا مكان فيها للجلاليب والعمم والمنشة والفول والطعمية والملوخية والباذنجان المقلى. مرة أخرى تعود بى الذاكرة إلى شيخنا عبدالرحمن الجبرتى وما جرى له من صدمة ثقافية مع مجئ الحملة الفرنسية، وما عبر عنه بعض أهالى "سلوا" عندما سمعوا التسجيلات الأسطوانية من الحاكى (الجرامفون) فكانت استجابتهم (والله الخواجات ما غلبهم إلا الموت).

عشت فى بيت الطلبة واختلطت فى بيت الطالبات مع جنسيات مختلفة، إنجليز وأستراليين، وكنديين، وممن كانوا يسمون "مبعوثى" ما وراء البحار (أوفرسيز) من

الهند وباكستان وبرما وهونج كونج، ومن أفارقة المستعمرات فى نيجيريا وغانا وكينيا والحبشة والسودان، ومن أمريكا اللاتينية من المكسيك وبيرو والبرازيل والأرجنتين وكوستاريكا. وقد تزاحموا إلى لندن وغيرها مـن المـدن الجامعيـة، بعـد أن تقطعت بهم السبل فى فترة الحرب العالمية الثانية التى امتدت حوالى ست سنوات (١٩٣٩-١٩٤٤م).

الدراسة فى جامعة لندن – الدبلوم:

فى السنوات الخمس التى قضيتها فى لندن قصص وحكايات لا تنتهي. ودعونى أركز أولًا على الشأن الدراسى. وكما أشرت انتظمت فى برنامج دبلوم المعلمين بمعهد التربية بجامعة لندن.. لقد درست وزملائى الثلاثة مواد مناظرة لما درسناه فى معهد القاهرة، باستثناء بعض المواد الثقافية الاختيارية كتاريخ الفنون. وكان من بين أساتذتنا العظام (كارل مانهايم) من أقطاب مدرسة الاجتماع النقدي، الذى كان استاذًا جامعيًا فى المجر واضطر للهجرة إلى إنجلترا قبيل اجتياح هتلر لها. وكان يدرس فى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، وانتقل فى السنة التى التحقنا فيها بالمعهد إلى معهد التربية فى لندن. لقد كان ربعة من الرجال فى جسمه، عميق الفكر فى تنوعه، يهتز وهو يحاضر جاهدًا فى توصيل ما يريد توصيله إلينا. ومع ضعفى فى تسجيل محاضراته باللغة الإنجليزية، كنت أكتب ما أستطيع كتابته بالإنجليزية وأكمل بقية الجمل أو الفقرات باللغة العربية، ومازالت احتفظ بذلك (الكشكول) لمحاضراته، ولا تختزن ذاكرتى أحدًا من أساتذة المواد الأخرى، فقد طغى عليهم جميعًا فى مرحلة الدبلوم، حيث توفى فى السنة التالية.

أما عن التربية العملية فقد قمنا بالتدريس فى المدارس الابتدائية والثانوية، وأتذكر أنه لم يكن يصرف للطلاب كتبًا ولا كراريس ولا أقلام نظرًا لظروف ما بعد الحرب، وكنت أعطى مجموعة من الأوراق لتوزيعها على الطلاب لتدوين ما يستمعون إليه من شرح المدرس. ومن طرائف التدريس فى مدرسة بحى (فولهام)

أنه بعد توزيعي للأوراق على التلاميذ، وتهيؤى للشرح، قفز تلميذ من مقعده لأجده أمامى يقول لى بلهجته (الكوكني) فهمت منها أنه يقول لى (Piper sir) وتصورت أنه يتحدث عن عامل مواسير، والتفت حولى فلا أجد أحدًا. وكررت سؤالى عدة مرات وهو يقول نفس العبارة نفسها، فلما احترت فيما يريده، طالبته بأن يكتبه على السبورة، فإذا بعبارته (paper sir) أى يبدو أننى نسيت أن أعطيه ورقة ليكتب عليها. ولما فهمت ما يريد أعطيته الورقة، وكأننى أؤنبه (لماذا لم تقل هذا منذ البداية؟) فرد على (هذا هو بالضبط ما قصدته سيدي)، وتلك كانت مشكلة لهجة الكوكنى التى لم أتعودها فترة طويلة.

وكانت المشرفة على التربية العملية سيدة فى منتصف العمر، ودودة مدركة لصعوباتى فى اللغة التى كانت تصححها لى بعد انتهاء الدرس، وهى عادة ما تخبر طلابها بموعد زيارتهم فى المدارس. وفى التربية العملية بالمدرسة الثانوية أعددت لزيارتها درسًا عن الحضارة الفرعونية، وكان من بين موضوعات منهج التاريخ فى ذلك الصف. واستعنت ببعض الصور الكبيرة التى أعارنى إياها مدير مكتبة الفرع الثقافى فى مكتب البعثات، اسمه (فيولنج). وكان مستشرقًا يجيدا للغة العربية إلى جانب الفرنسية والألمانية. وقد توثقت علاقتى معه كلما زرت مكتبة البعثات، نتطارح أطراف الحديث فى مختلف الموضوعات. وتجيئ السيدة المشرفة وأنا سيد الموقف استعدادًا ومعرفة، فسرت من الدرس وأثنت على، وكانت مجاملة حين ذكرت لى بأنها قد استفادت من الدرس الذى تصورتك فرعونًا فيه، وبذلك اطمأننت على عبور حاجز التربية العملية.

ونجلس للامتحانات التحريرية، وتظهر النتيجة لأجد أسمى فى قائمة الناجحين. لكن سلامة حماد قد اعتذر عن الجلوس لأسباب صحية، بينما لم يوفق زميلاى مصطفى فهمي، ورياض أنتاسيوس معوض الذى يصاب باضطراب فى أعصابه؛ مما أدى بمكتب البعثات إلى إعادته إلى أرض الوطن. أما مصطفى فهمى فقد عاد إلى القاهرة ليجد له طريقًا آخر غير هذا المعهد. وكان ابن عمه السيد

إسماعيل فهمي إذ ذاك مديرًا لمكتب رئيس الوزراء إسماعيل صدقي، وهو الذى أصبح وزيرًا للخارجية فى عهد السادات، واستقال لخلافات معه حول شروط المعاهدة المصرية الإسرائيلية.

ومن خلال مكتب رئيس الوزراء تقدم بطلب التحاق للتخصص فى علم النفس بجامعة كمبردج، وقبل طلبه والتحق بتلك الجامعة، وقضى بها ثلاث سنوات ليحصل على درجة الدكتوراه، قبل أن أنتهى وسلامه حماد بعام تقريبًا. وكانت جامعتنا أكسفورد وكمبردج باعتبارهما جامعتى الصفوة من الإنجليز ومما وراء البحار، قد وجدت الأخيرة فى مؤهلات مصطفى فهمى وفى تزكيته من قبل رئاسة مجلس الوزراء ما يسمح لها بقبوله على الفور. وتتشابه أكسفورد وكمبردج فى بريطانيا مع جامعتى هارفارد وييل فى الولايات المتحدة فى استقطاب الطلاب ممن تنتمى أسرهما إلى الصفوة السياسية أو المالية. ومنها تخرجت قيادات سياسية واقتصادية وفكرية فى كل من البلدين، وفى كثير من بلدان العالم النامي.

ونعود إلى صاحبنا (حامد)، الذى هو أنا، ليتابع دراسته فى الدبلوم الأكاديمية المؤهلة لدراسة الماجستير. وفى دراسات هذه الدبلوم طلب منا أن نطلع على كتابين ظهرا حديثًا، أحدهما مؤلفه (كارل بوبر) فيلسوف تاريخ العلم الشهير بجزئية عن (المجتمع المفتوح وأعداؤه - هالة أفلاطون ج١)، و(المجتمع المفتوح وأعداؤه - المادية الجدلية).. أما الكتاب الثاني، فقد كان مؤلفه عالم النفس المشهور (إيرك فروم) بعنوان (الخوف من الحرية) فى الطبعة الإنجليزية أو (الهرب من الحرية) فى الطبعة الأمريكية. وقد ترك هذان الكتابان إلى جانب محاضرات وكتابات كارل مانهايم أثرًا عميقًا، بل تحولًا كبيرًا فى تفكيرى وفى تصوراتى لعلم التربية وانتقاله من مجرد الاقتصار على الفرد إلى الالتفات المهم نحو المجتمع وقواه وتأثيره فى جدلية تكوين الإنسان.

رسالة الماجستير:

وبعد الانتهاء من الدبلوم الأكاديمية، انفسح المجال للتسجيل لدرجة الماجستير واختيار موضوع الرسالة بعنوان: (بحث فى عدم تكافؤ الفرص التعليمية فى مصر)، وتم اختيار الأستاذ جوزيف لاورابز للإشراف عليها. وهذا الأستاذ من أصل بلجيكى حاصل على دكتوراه الفلسفة فى العلوم فى تخصص الكيمياء، يجيد الفرنسية والألمانية والإنجليزية، ولكن لم يكن فى مؤهلاته ما يدل على أنه درس علوم التربية. ويبدو أن تنقله فى جامعات متعددة وسيطرته على كل تلك اللغات وسعة ثقافته وخبراته فى التدريس قد أهلته ليكون أستاذ أصول التربية والتربية المقارنة فى معهد التربية بجامعة لندن. وقد أحسست فى إشرافه على رسالتى بما اتسم به من فكر ناقد، وما تحلى به من ملاحة النكتة. وعندما اخترت عنوان الرسالة بادرنى بمناقشة (عدم تكافؤ الفرص)، والخشية من أن ذلك قد يسبب لك حرجًا مع حكومتك، ولما أصررت عليه، باركه على أنه أكثر تحديدًا للمشكلة.

كنت أعرض عليه فصول رسالتى وقراءاتى، كل شهر فى غرفته، بالمعهد بعد الغداء. ومما دار بيننا من أحاديث جانبية بعد أن توثقت الألفة بيننا سؤاله عن مسألة الختان عند الأطفال المسلمين، فذكرت أنه ما يزال من الطقوس الضرورية وبخاصة فى الريف. وعلق على ذلك بقوله (أعرف أنكم واليهود تمارسون الختان، أما نحن المسيحيين فثمة عناية إلهية تشكل أطرافنا)، وشرح لى العبارة بأنها من مقولات شكسبير؛ حيث يقول:

As far as we christians, there is divinity that shapes our ends

وفى مرة أخرى ذكر لى ما حدث لمستر (آتلى) فى حملته الانتخابية لحزب العمال، الذى جاء عقب حزب المحافظين الذى أدار فيه تشرشل معارك الحرب العالمية الثانية مكللًا بالنصر. وفى أثناء خطاب أتلى قذفه أحد الحضور بكتلة من (الكرونب) فلما تلقاها، نظر إليها فى هدوء معلقًا (هذه لابد أن تكون رأس أحد

أقطاب حزب المحافظين)، ومن مقولاته لي (لتكن اشتراكيًّا في داخلك وارستقراطيًّا في مظهرك).

وفي جميع الأحوال أكملت رسالتي خلال عامين، وتم امتحاني وعلق الممتحن الخارجي بتقديره لما بذل في الرسالة من جهد، وطلب مني مراجعتها من حيث علامات الترقيم قبل إرسال النتيجة إلى مسجل الجامعة، الذي كانت تصدر الشهادات بتوقيعه وليس باسم وخاتم عميد المعهد أو رئيس الجامعة، مع ما يسبقه من إمضاءات أخرى كما هو الحال عندنا. وقد تم تسلمي للشهادة بعد أن أعتمدها الممتحنان لتتأخر شهرًا نتيجة لعلامات الترقيم، والتي لا نعني بها في كتاباتنا ورسائلنا، حيث تحل الفصلة دائمًا محل النقطة، وتنعدم النقطتان أو الفصلة المنقوطة أو حتى علامة الاستفهام. وأتذكر هنا قول الشاعر الذي أردده لطلابنا.

ولم أر في عيوب الناس عيبًا

كنقص القادرين على التمام

قرار الإرجاع إلى مصر:

ويفاجئني الهم والغم، بينما كنت أحتفل مع بعض الزملاء بالحصول على درجة الماجستير دون زغاريد أو أفراح، والتي افتقدتها، معبرًا عنها في خطاب للوالد المترقب لأخباري دائمًا. قد كان زميلي سلامة حماد على وشك الانتهاء من رسالته (التأثيرات الفرنسية والبريطانية في التعليم المصري).

لكن الفرحة لم تستمر إلا أسبوعين حين يصلنا استدعاء من مكتب البعثات لمقابلة مديره على مظنة أنه يريد أن يهنئنا. وعندما التقينا به صدمتنا المفاجأة، عندما أخذ يقرأ لنا الرسالة التي وصلته من وزارة المعارف، تطلب منا اختصار البعثة والعودة إلى القاهرة بعد إتمام الحصول على درجة الماجستير. ونبهنا إلى ضرورة تنفيذ هذا الأمر. وقد علمنا فيما بعد أن الوزارة قد شرعت في إنشاء معاهد التربية المتوسطة، يلتحق بها الحاصلون على الشهادة التوجيهية لمدة سنتين، يعدون خلالها

للتعليم فى المدارس الابتدائية؛ نظرًا للحاجة الماسة إلى مؤهلين للتدريس فى هذه المعاهد.

انصرفت أنا وزميلى وقد تملكنا الغضب والإحباط والهم فى عدم استكمال بعثتنا للدكتوراه، والتى أوفدنا للحصول عليها رسميًّا. غادرنا المكتب متوجهين إلى غرفة الاستراحة فى المعهد، وبدأنا بالتفكير فيما يمكن أن نصنعه، واتخذنا قرار الصمود والتحدي، وعدم الاستجابة لقرار الوزارة أو نصيحة مدير البعثات. وأخيرًا لمعت فكرة فى ذهن (سلامه) فاقترح أن نرسل التماسًا لوزير المعارف مباشرة، وكان طه حسين فى هذا المنصب إذ ذاك عام ١٩٥٠م. وذكر لى سلامه أنه سوف يرسل هذا الالتماس مع خطاب إلى الأستاذ (محمد فتحى) صديقه، منذ أن كانا يدرسان فى قسم اللغة الإنجليزية بالجامعة المصرية. وقد كان محمد فتحى فى تلك الفترة من أعلام الإذاعيين وله اتصالات واسعة، ويرجوه أن يوصل الالتماس بنفسه إلى الوزير. وفعلا تم اتخاذ هذا الإجراء، وتجاهلنا الرسائل المتكررة لمكتب البعثات التى تطالبنا بالاستعداد للعودة.

وبمجرد اتخاذ هذا القرار سارعت إلى مقابلة الأستاذ لاورايز وأنبأته بالخبر، فذهل لمخالفته للتعاقد بينكما، وكان مشرفًا أيضًا على سلامه حماد. وقام بتحرير خطاب لمكتب البعثات يوصى فيه بجدارتنا لاستكمال رسالة الدكتوراه، وسألنى عن ظروف سلامه فأخبرته بأنه قادر على ترتيب أموره حتى تصل نتيجة التماسنا، أما أنا فلست أدرى ماذا أفعل. وفى الحال طمأننى بأنه سوف يسعى إلى أن يعفينا مجلس المعهد من مصروفات الدكتوراه وقيمتها (٩٠) جنيهًا فى السنة. ثم قام بالاتصال بالمشرفة على بيت الطلاب لتيسير استمرار إقامتى دون تكلفة. وهدأت أعصابى قليلًا، وغادرته شاكرًا ومقدرًا، لأذهب على الفور لمقابلة المشرفة على بيت الطلاب (مس ستيفنسون)، شرحت لها الموقف، واقترحت عليَّ أنه فى نظير إعفائى من تكاليف الإقامة الشهرية، أن أقوم بالمساعدة فى غسل أطباق الغذاء والعشاء يوم الأحد حيث كان هذا اليوم عطلة للعاملات، ويقوم الطلبة والطالبات بأداء هذه المهمة. رحبت بقبول هذه الفكرة أيما ترحيب، واسترحت تمامًا وتمالكت نفسى

ومشاعرى وهدأت أعصابى وشكرتها شكرًا جزيلًا. وأوصتنى بأن استمر مندوبًا عنها فى الإشراف على الطلاب الأجانب فى بيت الطلبة، باعتبارى من قدماء المحاربين !!

وبمناسبة مسئوليتى عن أحوال الأجانب فى بيت الطلبة، أشير باختصار إلى قصة طالب نيجيرى جاء ليقيم فى بيت الطلبة بعد أن قضى أول ليلة فى هذا البيت، وبعد أن قرأ تعليمات الإقامة فيه. جاءنى صباح اليوم التالى ليشكو من أنه قضى ليلة أوشك أن " يموت من البرد " فأشرت عليه بأن يشغل موقد الجاز للتدفئة، فأفاد بأنه لم يستطع تشغيله. ثم أضاف إلى ذلك ما قرأه من تعليمات بأنه ليس من المرغوب فيه النوم فوق البطانية أو فوق الملاءة:

Please don't sleep on the blanket or on the linen

ولما كان هذا الشاب حريصًا على اتباع التعليمات، نام على الأرض لابسًا أثقل ما عنده من ملابس ملتحفا بالبالطو. أشفقت عليه، وشرحت له أن المطلوب هو أن ينام بين الملايتين، وأن يضع البطانية فوقه بعد ذلك، وأشار إلى أنهم لم يقولوا ذلك. وأخبرت المشرفة بهذا الغموض لدى الأجانب، فغيرت التعليمات لتكون أكثر وضوحًا بالمطلوب.. أنها فروق حضارية !!

ويمضى شهران، تجرى فيهما حياة السكن كما كانت وحتى واجب غسيل الأطباق لم يصادف أى معاناة، فقد كرَّمنى الطلاب والطالبات بالاقتصار على وجودى دون المشاركة الفعلية، والاكتفاء كما عبروا عنه بمنحهم (الروح المعنوية) moral support فى مهمتهم، حين عرفوا ظروفى، واحترامًا لأننى طالب دكتوراه. وأعلق على ما جرى منذ أوامر وزارة المعارف من موقف الأستاذ والمشرفة والطلبة باندهاشى: أية أخلاق ومشاعر وتعاطف تجلت من هذه الجماعة الأكاديمية الجامعية؟ !!

قرار طه حسين الوزير:

وتنقشع السحب ويأتى الفرج بعد شهرين من معاناة هذه الأزمة.. يأتى الفرج من مصر حين استدعانى وزميلى مدير مكتب البعثات؛ ليزف نبأ المفاجأة السعيدة بموافقة الوزارة على استمرارنا فى الدراسة لدرجة الدكتوراه، فى خطاب مرفق بنسخة من التماسنا، وبتأشيرة طه حسين البليغة الموجزة (فلترد الحقوق إلى أصحابها). إنها تأشيرة إبداع وحكمة وعدل.. شكرنا المدير، وتعانقت مع زميلى سلامة، يهنئ كل منا الآخر.

بذور غراس الدكتوراه:

وتصادف خلال تلك الفترة أن رافقت أستاذى فى طريق عودته إلى بيته بالمترو (أندرجراوند) حين أصر على أن أرافقه إلى بيته لنواصل الحديث فى شأن رسالة الدكتوراه. وفى بيته الذى امتلأت جدرانه بأرفف الكتب والمجلات العلمية، استعرضنا عددًا من الموضوعات التى يمكن الاختيار من بينها. ثم رأيته يتركنى فجأة ليحضر معه كتابًا لمؤلفته عالمة الأنثروبولوجيا الثقافية (مارجريت ميد) وعنوانه " التنشئة الاجتماعية فى نيوجنى ".

Margret Mead, Growing Up in New Guinea

ودعانى إلى قراءة هذا الكتاب لعلّه يوحى لى بأن اختار موضوعًا مشابهًا فى رسالتى. وقرأت وأعجبت بسياقات عرضه وتفاصيله، ثم ذهبت إليه فى مكتبه بعد أيام لأقول له لقد تبلور موضوع الرسالة فى معالجة للتنشئة الاجتماعية فى قريتى بعنوان (التنشئة الاجتماعية فى قرية سلوا)، وعرضت عليه أن أبدأ معه فورًا فى إعداد خطة هذه الرسالة.

تردد قليلًا، واعتذر عن الإشراف على مثل هذا الموضوع، إذ إن هناك أستاذة متخصصة فى الاجتماع والأنثروبولوجيا، عينت حديثًا لشغل كرسى جديد،

استحدثه المعهد فى تخصص (اجتماعيات التربية Socilogy of Education من أجل تحديث برامج التعليم والبحث فى المعهد، ومن ثم سوف تكون أفضل مشرف على رسالة فى هذا الموضوع.. اتصل بها هاتفيا راجيًا منها أن تلتقى بى فى موضوع يهمها. والتقيت بهذه الأستاذة واسمها (مارجريت ريد) Prof. Margret Read، وبينها وبين نظيرتها الأمريكية اختلاف فى حرف واحد من اسميهما.. عرضت عليها مجال الموضوع، وانتهينا من حوارنا إلى أن يكون عنوان مشروع الرسالة (التنشئة الاجتماعية فى قرية مصرية – سلوا مديرية أسوان)

Growing up in an Egyptian Village-Silwa, Aswan Province

إعداد خطة الدكتوراه:

وطلبت منى أن أعد خطة تفصيلية للبحث، بما فى ذلك موقع الدراسة الميدانية فى تلك القرية، أعددت الخطة فى (٢٠) صفحة، وافقت عليها، وتم اعتمادها عقب السيمنار الذى عرضته عليه، والذى كانت تنظمه أسبوعيًّا لطلاب الدراسات العليا. اكتملت فرحتى وتبددت كل الغيوم فى سمائي، وكنت فى حاجة إلى (زغرودة) والدتى ودعوتها التقليدية كاشفة رأسها متطلعة إلى السماء (ربنا يعلِّى مقامك ويوتق حزامك، ياحامد وليد نزهة) وأحطت الأستاذ لاورايز بما جرى معلقًا بأنه يأمل أن تكون هذه الرسالة إسهامًا جديدًا فى اجتماعيات التربية فى مصر.

وقضيت سنة فى الإطلاع على الكتب والبحوث فى هذا الميدان، كما رتبت الأستاذة (ريد) مشرفتى الجديدة حضور بعض مقررات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا فى مدرسة لندن للعلوم الاقتصاية والسياسية، ومع عيادة تافستوك النفسية؛ من أجل توظيف هذه المعارف فى المنهج التكاملى للبحث.

وفى تلك المدرسة لم اكتف بمحاضرات (رايموند فيرث) فى الأنثروبولوجيا

و(هارولد بك) فى الاجتماع، وإنما كنت بين الحين والآخر أذهب إلى قاعة فى البدروم لحضور محاضرات (هارولد لاسكي) الفيلسوف الاشتراكى الشهير. وكانت بينه وبين (مانهايم) مشابه فى القصر والامتلاء الجسمي، وفى الحماس والحركة أثناء المحاضرات. أضف إلى ذلك دراستى السيكولوجية فى مجال التشخيص والاختبارات لنمط الشخصية، ومنها اختبار الروشاخ، فى (عيادة تافستوك) Tavistoc Clinic. وبعد الانتهاء من هذه الدراسات النظرية وتكامل أدواتها المنهجية عدت إلى مصر للدراسة الميدانية فى قرية "سلوا" التى استغرقت ستة أشهر.

مفاجأة الدراسة الميدانية:

بمجرد وصولى إلى القاهرة، اتصلت بإدارة البعثات من أجل مسائل المرتب خلال تلك الفترة واحتياجى إلى (كاميرا) لرصد بعض المشاهد فى القرية. وهنا تظهر مفاجأة لم تكن فى الحسبان، فقد عرض طلبى بالصدفة على وزير المعارف بالنيابة فؤاد سراج الدين باشا؛ حيث كان طه حسين يشارك فى مؤتمر عالمى فى فلورنسا فى تلك الفترة. وفى طلبى المقدم ذكر لتفاصيل ما حصلته من شهادات وعنوان الرسالتين فى الماجستير والمقترح للدكتوراه، ويبدو أن معالى الباشا قد ارتاب فى الموضوعين، (عدم تكافؤ الفرص التعليمية فى مصر، التنشئة الاجتماعية فى قرية مصرية). وأحال الطلب إلى وكيل الوزارة وقد كان إذ ذاك شفيق بك غربال أستاذى فى حقبة كلية الآداب.. استدعانى الرجل إلى مكتبه وأخذ يسألنى عما درسته، ومن هم أساتذتى فى (بلاد الأنكتار وهى تسمية مؤرخى العصور الوسطى الإسلامية للمحاربين (الإنجليز) وعندما بدأت بذكر اسم (كارل مانهايم) قاطعنى بأنه أستاذ فحل قرأ له كتابه (الأيديولوجيا واليوتوبيا) Ideology and Utopia

دهشت وكنت أظن أننى الوحيد الذى قرأ هذا الكتاب فى مصر، وإذا بوكيل وزارة متابع لمصادر المعرفة وكتبها المتجددة مما ليس مستغربًا على هذا المؤرخ الواسع

الاطلاع. أليس هذا مصدرًا للتعجب والتقدير بالمقارنة مع شواغل أصحاب هذا المنصب اليوم في الشئون البيروقراطية؟ !!

وأخيرًا بعد حوار طويل أنبأني بتأشيرة فؤاد باشا، وما أثاره موضوعا رسالتي الماجستير والدكتوراه من شكوك في أن هذا الطالب (ينشر غسيلنا الوسخ في الخارج) وأردف قائلًا إن ما اخترته من الموضوعين هو اشتباك مع الواقع المصري، وتمثل مناهجهما أحدث المقاربات في مجال فهم نظام التعليم في مصر، وأنه ليس من المتوقع أن يكون الباشا على دراية بتطور مناهج البحوث الحديثة ومجالاتها، وليتذكر القارئ أن ذلك الزمان هو أوائل عام ١٩٥١م.. طمأنني واستدعى مدير مكتبه ليملي عليه تأييده لقيمة بحوث الطالب، وأنه كان من بين تلاميذه مع ما يتسم به من الصفات الطيبة التي يتميز بها وحبه لوطنه... انزاحت الغمة، وتيسرت الأمور المالية، بما فيها حصولي على كاميرا حديثة تُرَدُّ بعد استخدامها.

وقد كانت تلك الخبرة بداية لإدركي لما تتعرض له حرية البحث من قيود وحدود في العلوم الاجتماعية والتربوية؛ مما أدى بمعظمها حتى اليوم إلى أن تكون مجردات فكرية وتمرينات إحصائية لا تشتبك مع الواقع المعقد، نقدًا وتشخيصًا وتصورًا لبناء احتمالات مستقبلية. وعلى هدى من خطة البحث الميداني التي بلورتها مع أستاذتي ذهبت إلى "سلوا". ودون الدخول في تفاصيل، أتممت جمع كافة المعلومات المطلوبة بالاستعانة مع أحد الإخباريين الذي كان (شيخًا للغفر)، والذي كان عونًا لي في مختلف المواقف التي تطلبتها الدراسة.

عدت إلى المعهد ونصحتني أستاذتي بالاستمرار في كتابة الرسالة، حيث تظل معلوماتك طازجة، وحيث يمكنك إيجاد اللحمة بين النظر والميدان بسهولة أكثر. وفي ركن من الأركان المخصصة لطلاب الدراسات العليا (كيوبكل) في مساحة تفصلها حواجز بين بعضها في تقاسيم مكتبة الجامعة المركزية، استغرقت في كتابة فصول الرسالة من التاسعة صباحًا حتى الثامنة مساء، تقطعها قهوة الساعة الحادية

عشرة فى مطعم الجامعة، ووجبة الغذاء فى بيت الطالبات، أو فى كافيتريا الجامعة أحيانًا.

مناقشة الرسالة:

انتهيت من كتابة الرسالة بخط اليد، تراجعها الأستاذه، ويتولى أحد مكاتب الطباعة كتابتها من خمس نسخ على الآلة الكاتبة، والتى يتحمل تكلفتها مكتب البعثات – ووافق ذلك شهر أبريل عام ١٩٥٢م، وتجرى مناقشتها فى أوائل يوليه. وكانت لجنة الحكم تتألف من الأستاذة، وأستاذ خارجى هو أستاذ الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى جامعة كمبردج (ماير فورتس)، ولم يستغرق اللقاء أكثر من ساعة، عرضت فيها للقضايا المطروحة فى الرسالة ومنهجها، مع بعض التساؤلات حول مدى انطباق فحواها من أوضاع هذه القرية فى إطار مجموعة القرى المصرية. وكان أصعب سؤال ما طرحه الممتحن الخارجي: ماذا تتوقع من أحوال التغير الاجتماعى فى بلدك، وما دورك فى التوظف الاجتماعى للتعليم فى هذا التغير؟ وكانت إجابتى مقتضبة مؤكدًا أن احتمالات التغيير إلى الأفضل واردة. انتهت المناقشة بتهنئتى على الجهد المبذول فى هذه الرسالة، ووعدتنى أستاذتى بالسعى إلى نشرها.

خرجت من المناقشة (دكتورًا)، بل أول دكتور يحصل على هذه الدرجة فى مصر كلها متخرِّجًا من جامعة لندن. أما زميلى عبد العزيز سلامه حماد فقد ناقش رسالته بعدى بثلاثة أشهر. وهكذا تكللت هذه الحقبة من مسيرتى التعليمية بكل ما كنت أأمله من توفيق وسداد، متناسيًا كل ما واجهته خلالها من إحباطات واختناقات وتحديات.

وبقيت فى لندن فى حالة استرخاء واستمتاع بما حرمته على نفسى من متع ثقافية؛ خاصة فى المسرح والموسيقى وفى أوائل أغسطس قررت العودة إلى أرض الوطن. وقد فاجأتنا أخبار قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قبل سفرى بأسبوعين؛ مما كان حديثنا عن أخبارها وتفاصيلها التى انشغلت بها فى زياراتى المتكررة لمكتب البعثات فى

تلك الأيام. وهو ما كنا نتطلع له تغييرًا للأوضاع المتردية والفساد المفرط للحكم وللذات الملك وشهواته. وأتذكر هنا أنه من الأمور الجريئة التى شاركت فيها، ذلك الخطاب الذى حرره بعض الزملاء قبل قيام الثورة بستة أشهر، داعين الملك إلى التنازل عن العرش، وتقدمنا به إلى السفير المصرى (عمرو باشا) الذى استقبله بهدوء واعدًا لنا بإبلاغ القاهرة به. ويبدو أنه قد احتفظ به فى أحد أدراج مكتبه. وجاءت الثورة؛ لتنقذنا مما كان قد يتعرض له الموقعون من مصير مجهول.



الحكاية التاسعة
اتساع آفاق الخبرة

التواصل مع الطلاب العرب:

يتوالى اتساع آفاق الخبرة خارج نطاق الدراسة فى لندن. وفى علاقتى مع الطلبة المصريين وغيرهم من طلاب الأقطار العربية. وتجدر الإشارة إلى ما كان يدور فى مناقشاتنا حين نجتمع فى مطعم الجامعة (رفكتوري) Refectory لنحتسى قهوة الحادية عشرة The eleventh، نناقش قضايا التسلط والاستبداد والفساد والقبلية والعشائرية والكفاح من أجل الاستقلال والتحرر. وكان واسطة العقد فى هذه التجمعات اليومية خلال عامى ١٩٥٠ ، ١٩٥١ الأستاذ الجليل الدكتور زكى نجيب محمود، وقد أوفد فى بعثة من المجلس البريطانى للحصول على درجة الدكتوراه فى الفلسفة الحديثة، وأظن أن عمره إذ ذاك قد تجاوز الأربعين، وأكمل رسالته فى عامين. وكان من بين ما يحدثنا عنه مقالاته التى كان يرسلها إلى مجلة الثقافة، أذكر عنوان وتفاصيل مضمون بعضها حتى اليوم، ومنها جنة العبيط، وبيضة الفيل.

وفى جميع الأحوال، كان لاختلاطى آثار اجتماعية عميقة سواء من خلال بيت الطلبة أو فى مدرجات الدرس أو فى ردهات الكلية مع طلاب من شعوب بيضاء وسوداء وسمراء وصفراء، وشعور رأس سوداء وحمراء وشقراء، ناعمة مرسلة وخشنة متموجة ومتجعدة ٠ قد أذاب هذا الاختلاط وتلك المعايشة ما كان مترسبًا لدىَّ من تحيزات بدائية قبلية صعيدية ليتكون مكانها إدراك الحقيقة الإنسانية الكبرى، وهى أننا جميعًا بشر من سلالة آدم وآدم من طين، وأنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى وبمكارم الأخلاق.

ومع ذلك تتشوه تلك المساواة بين البشر بتقسمهم إلى سادة مستعمرين وشعوب مُسْتَعْمَرة (بفتح الميم)، وإلى مالكى الأرض والسلطة والثروة، وإلى فقراء كادحين وتذكرت رسالتى (عدم تكافؤ الفرص) وأعجبتنى فيها بعد إحدى رباعيات صلاح جاهين: مع أن كل الخلق من أصل طين، وكلهم بينزلوا مغمضين، وبعد الدقايق والشهور، تلاقى ناس أشرار وناس طيبين. عجبى !!

وبينما كانت تجول فى خاطرى وفى مناقشات فريق الحادية عشرة فى مطعم الجامعة، يجيئ عامى الثانى فى الكلية لأشهد مأساة قيام دولة إسرائيل والاعتراف بها واحتلالها لأرض فلسطين العربية عام ١٩٤٨م، ومعها تبرز جماعات الطلاب اليهود فى تجمعاتها فى أنحاء الجامعة. وبعد تلك المأساة كنا نراها مزهوة منتفخة وخصوصًا حين كانت تمر على رهطنا فى مطعم الجامعة، غامزة أحيانا أو مشيرة إلينا بأصابعها أحيانًا أخرى، بل وحين كانت على مقربة منا دخولًا أو خروجًا من المطعم تحيينا ساخرة (هاى ياعرب). وكانت تحتدم بيننا المناقشات لتتجلى لنا مواقفهم فى استعلاء اليهود وتميزهم بين بقية البشر، فهم شعب الله المختار. وقد كانت تلك المواقف على بساطتها قد ولدت خميرة كراهية الصهيونية التى احتلت الأرض، بعد أن كانوا مواطنين فى مصر على قدم المساواة مع بقية المصريين، بل كان معنا فى كلية الآداب من يعتنقون اليهودية فى بعض أقسام الكلية، ومنهم (مراد) الذى كان أحد

طلاب قسم التاريخ فى فرقتنا خلال سنوات الدراسة الأربع.. وكان وسيمًا ظريفًا، نداعبه ونتبادل الكتب والكشاكيل معه.

ومن ثم تولدت لدى كراهية الصهيونية مع تفرقة واعية بين اليهودية دينًا والصهيونية أيديولوجية. وأتذكر الآن ما كان عليه مزراحى ورينيه قطاوى وصيدناوى وشكوريل من مكانة وثراء فى عالم التجارة والمال فى مصر، قبل حرب عام ١٩٦٧، كما أتذكر قول الشاعر فى عهد أحد سلاطين المماليك

يهود هذا الزمان قد بلغوا　　غاية لاينالهـــا ملـكُ

المال فيهم والجاه عندهـمُ　　ومنهـم المستشار والملـك

أجد من غير المستطاع استعراض الخبرات الاجتماعية والثقافية والقيمية، التى عشتها خلال خمس سنوات فى بيت الطلبة والطالبات، وسأقتصر على إيراد بعضها مما بقى فى الذاكرة بإيجاز.

فى بيت الطلبة تعرفت فى السنتين الأخيرتين على طالبين عربيين هما (خليل السالم) من الأردن، والذى أصبح وزيرًا فيما بعد، وقد توثقت صلاتى به حيث كان مغرمًا بلعب تنس الطاولة (بنج بنج) فى بيت الطالبات، وقد كنت دائمًا أتفوق عليه مما أدى إلى استسلامه وقبوله بمهارته التى كان يتغلب بها على غيرى. وكان رفيقى فى البحث عن سجاير (بلايرز) عندما تنفد معنا، نتجول فى الشوارع الخلفية حيث نجدها فى المطاعم الصغيرة، ولم يكن ثمة بأس أحيانًا من التمتع بقسط من طعامها الإيطالى الشهى. وقد كان شابًّا ذكيًّا متقد الذهن والحركة والانفعال. ولم أنقطع عن زيارته كلما سافرت إلى الأردن فيما بعد رحمه الله رحمة واسعة.

أما الشخص الثانى فهو شاب كويتى اسمه (عبد العزيز حسين)، عربيًّا وسيمًا هادئ الطبع عذب الحديث، تخرج فى كلية العلوم فى مصر، ويكن لها كل التقدير والعرفان. وقد أصبح فيما بعد وزيرًا وعلمًا من أعلام الثقافة فى دنيا العرب، وكانت

غرفته بالمصادفة فى مقابل غرفتى فى بيت الطلبة. وفى ذات صباح من يوم الأحد طلب منى الاستعداد للخروج معه. وعندما خرجنا من المبنى قادنى للركوب معه فى سيارة صغيرة وبها سائقها وقد اشتراها منذ بضعة أيام، وعرض علىَّ أن اختار المكان الذى أرغب فى زيارته. فاقترحت عليه الذهاب إلى أكسفورد، تلك الضاحية الجميلة التى تزينها جامعة أكسفورد بمبانيها القديمة الرائعة. وتجولنا فى كلياتها وبين طلابها بأروابهم الجامعية داخل الجامعة وخارجها، وقد ظل هذا من أعز أصدقائى الكثيرين فى الكويتُ ارتاد ديوانيته كلما زرت الكويت: رحمه الله رحمة واسعة.

ولن أنسى زمالة (حكمت أبو زيد) التى تقيم فى بيت الطالبات، والتى كانت تتفضل بعمل الشاى المعتبر لمجموعتنا العربية، وقد أصبحت فيما بعد كما هو معروف أول امرأة مصرية تصبح وزيرة للشئون الاجتماعية فى عهد ثورة يوليو. وكثيرًا ما كانت تحتدم المناقشات بيننا فى أوضاع مجتمعاتنا العربية، وفى المقارنة بينها وبين أحوال التعليم وسلوك البشر فى انجلترا. بيد أنه فى مواجهاتنا مع الطلاب الإنجليز، كنا نتباهى مع أوضاعنا مدافعين عنها، مبررين حتى فساد حكامنا واستبدادهم، وأن ما يرونه من تخلف إنما يعزى كله إلى الاحتلال البريطانى. وكان ذلك دفاعًا عن النفس مع وعينا التام الذى شحنته حياتنا فى الأجواء التى نعيشها، بما نحن عليه من تخلف.

وهكذا ترى أيها القارئ أيضًا أن كل زملائى العرب والمصريين من سكان بيت الطلبة والطالبات قد أصبحوا فيما بعد وزراء، فيما عداى !!

ومن أمتع الصحبة كانت مع (محمد أنيس)، صاحب مدرسة فى دراسة التاريخ الحديث بجامعة القاهرة، (يس العيوطى) أستاذ الأدب الإنجليزى فى نفس الجامعة فيما بعد. وكان الأول ملتحقًا بجامعة فى برنمجهام، والثانى فى جامعة فى دبلن فى أيرلنده. وكانا يفدان إلى لندن فى المواسم والعطلات، حيث كنا نستمتع بحواراتنا

وجولاتنا وزياراتنا وبخاصة إلى ركن المتحدثين فى حديقة هايد بارك. وكنا نشارك من موقعنا كمستمعين مع المتحدثين على المنابر فى تعليقاتهم الجادة وانتقاداتهم للشخصيات، أو فى تهكم الجمهور على بعضهم، وكنا نشعر بانطلاقات مشاعرنا كما لو كنا طلبة فى الجامعة المصرية.

أذكر كذلك الكلمة التى ألقيتها فى النادى المصري، وهو جزء من مكتب البعثات تقدم فيه الأكلات المصرية، بمناسبة أول من عبروا بحر المانش من أبطال مصر: مرعى حسن حماد، وزميله الذى نسيت اسمه، حين قام المصريون بتكريمهم، وكانت مناسبة لأعبر فيها عن أشواقنا للتميز والتفوق على الإنجليز فى أى مجال من المجالات.

ومما لا يفوتنى تلك المناظرة الحامية التى استمرت من السابعة حتى الساعة الواحدة صباحًا، والتى كان فارساها سعيد النجار وفوزى منصور، اللذين كانا يدرسان الاقتصاد. واختير لهذه المناظرة موضوع الإصلاح الزراعي. وقد شاركت المجموعة التى احتشدت بها قاعة المكتب الثقافى فى تلك المناظرة تأييدًا أو تفضيلًا لوجهتى النظر التى عرضها الزميلان.

ولقد كان أول من التقيت به عند أول زيارة لمكتب البعثات فى قاعة الاستراحة (د. الجريتلي) من أشهر الاقتصاديين فى مصر، كما كنت التقى مع (أسامة الخولى والعلايلي) ومعهم أحد المستشارين الثقافيين (أظن اسمه د.مشرفة) وكانوا، يتبادلون أطراف الحديث فى قضايا الفنون والموسيقى والأوبرا، أصغى لثقافتهم معجبًا دون قدرة على المشاركة. كما التقيت بالدكتور سعيد عاشور، الذى تزامنت بعثته فى السنة نفسها التى التحقت فيها بجامعة لندن، وكان تخصصه فى الرياضيات، ووجدته بعد ثلاث سنوات قد أكمل رسالته وحصل على الدكتوراه، فى حين أننى قد كنت قد انتهيت دراسة الماجستير حديثًا.. حقًّا لقد كان عملاقًا، وما يزال من أساطين الرياضيات فى العالم.

وإذ كانت الصداقات المصرية عادية مألوفة، إلا أن صداقة (محمد العريان) الذى كان موفدًا مع فوجنا للتخصص فى آداب اللغة الإنجليزية مليئة بالعجائب. كان أول من حصل على الليسانس الممتازة فى الأدب الإنجليزى من خريجى المدارس المصرية، وليس من مدرسة فكتوريا الإنجليزية.. مثلًا. ذهب صاحبنا إلى الجامعة ليتعرف على مقرراته لدراسة الماجستير ثم الدكتوراه، ولكنه صدم بأن مجلس الكلية قد قرر أنه من الضرورى أن يلتحق بالدرجة الجامعية الأولى للحصول على الليسانس أولا، وكانت فاجعة له. وقد كان شابًا معتزًا أشد الاعتزاز بنفسه، وبجدارة صاحب خيال مبدع فسيح، مع أعصاب حساسة. وكانت الصدمة عنيفة لم يفلح مدير مكتب البعثات فى تهدئتها، وقرر الاعتصام فى مكتب البعثات حتى تحل مشكلته. لكن قرار الكلية كان قاطعًا.

وقضى حوالى (٣) أشهر جالسًا فى مكتب البعثات، وكنت أحاول تهدئته، كلما رأيته فى حجرة الاستراحة مشيرًا إلى ما جرى لى فى برنامج بعثتى، فيصرف النظر عن موضوع بعثته ليحدثنى عن مساخر الحياة التى يعايشها فى لندن، وبخاصة ما تمتلئ به حياتهم من إدعاءات ونفاق؛ فيذكر على سبيل المثال ما تقول له مديرة البيت، الذى يسكنه عندما يلتقى بها صباح كل يوم (صباح يوم جميل يا محمد) ويكون الطقس باردًا ممطرًا معتمًا. وهم منافقون عندما يزعمون أن كل واحد معنى بحاله دون تدخل مع الآخرين، (Mind your own own business) لذلك قرر أن يقوم بتجربة عملية مع بعض من كانوا يناقشونه فى هذه الصفة. وتحدى أثنين منهم، وطلب منهم أن يركبوا المترو معه ليبرهن لهما على صحة أحكامه. استقلوا المترو واتخذوا مقاعدهم، وهو فى الكرسى الأمامى خلع حذاءه وتربع على المقعد، وأخذ يقرأ أى كلام باللغة العربية، كما لو كان يجود آيات قرآنية. ومع بداية تجويده بدأ بعض من كانوا يقرأون صحفهم فى العربة الالتفات إلى هذا القارئ. ومع استمرار القراءة بدأ يقترب بعض الأفراد من مقعده، وتدريجيًا تكاثر الركاب الإنجليز تاركين صحفهم ليلتفوا حوله. ولما سألوه ماذا تفعل، قال لهم إننى أردد بعض

الصلوات (I am reciting some prayers) وتوالت التعليقات من المتجمهرين حوله بمعظم من كانوا فى العربية (إن هذا لشىء ممتع) ترجمة لعباراتهم وهو يحادثون بعضهم (This is interesting, isn't It?). وأخيرًا لبس حذاءه محييًا جمهور العربة الذين بادلوه إشارات التقدير، لينزل فى أول محطة يرسو فيها القطار.

وعند نزوله يتجه إلى الزميلين المذهولين ليقول لهما (فين Mind your own business) ألم تريا كيف تركوا بزنسهم وساقهم حب الفضول للاستفسار عني، مع أنهم لو لم يكونوا منافقين لانصرفوا عما أفعله).

وقد اضطر مكتب البعثات، مع إصراره على عدم قبول شروط الجامعة إلى إعادته إلى القاهرة؛ حيث ألف كتابًا عن خبرته فى لندن بعنوان (مائة يوم على الأنقاض) خرابات لندن بعد الحرب. وبعد هذه الصدمة الإنجليزية بعامين فى القاهرة، أرسل فى بعثة إلى الولايات ليتخصص فى التربية، واستطاع أن يحصل على الدكتوراه من جامعة كولمبيا، وهو الآن من أقطاب الفكر الإسلامى فى أستراليا؛ حيث هاجر إليها منذ عقود.

الإمتاع والمؤانسة والحفلات:

فى الأسبوع الأول من إقامتى فى بيت الطلبة، وأنا عائد من الغداء فى بيت الطالبات اشتد المطر، ولم أكن قد اشتريت شمسية / مظلة، فبدأت أبتل بغزارة، وفجأة تأتى إحدى الطالبات من خلفى لتضع ذراعها فى ذراعى وتحمينى من المطر بشمسيتها. وكان هذا أول احتكاك مع الجنس اللطيف، فشكرتها متلعثمًا خائفًا حتى لايرانى أحد من مكتب البعثات أو أى مصرى يبلغه بهذا المنظر. واستمر شعورى بالخوف حتى دخلنا إلى مبنى المعهد وطويت الشمسية، ولكن صداقتنا ظلت حتى تخرجت من المعهد بعد حصولها على دبلوم التربية.

بيد أن هذا الخوف من الحديث والصداقة قد أخذ يتبدد رويدًا رويدًا؛ خاصة عندما شهدت أول حفل من حفلات المعهد بمناسبة عيد الميلاد المجيد فى قاعة

المسرح الفسيحة، وكان ثمن تذكرة الدخول (٦) بنس. ومن برنامجها أغانى الميلاد (الكارول)، يلعب على البيانو أحد أساتذة علم النفس، كما كان يشارك فيه عدد كبير من الأساتذة، ذكورًا وإناثًا، إلى جانب حشد كبير من الطلاب والطالبات. وأعقب ذلك بداية الإعلان عن الرقصات بأسمائها (وولس، سلوفكس تروت، تانجو، سمبا، رومبا) ولم تكن الرقصات الجنونية الحالية قد عرفت بعد. وعجبت لرقص الأساتذة مع زميلاتهم، ومع الطالبات، وبين الطلبة والطالبات. وبقيت متسمرًا في مقعدي، وأنا في حالة ذهول مما أرى.

ومن تقاليد حفلات الرقص أن يدعو الرجل الأنثى لترقص معه، مع استثناءات بين الحين والآخر، يدعو فيها مذيع الحفل عن رقصة تدعو الإناث فيها الذكور ليرقصوا معهن، وتعرف Ladies excuse me dance وتخوفت من أن تتجه إلىَّ واحدة منهن لأرقص معها. وحدث ما كان فى الحسبان وتمنيت لو غادرت القاعة قبلها. وبأدب وانحناء تتقدم هذه الشابة الفاتنة لتطلب أن أرقص معها دون معرفة سابقة. حاولت الاعتذار بأننى لست على دراية بهذا الرقص. لكنها شدتنى من يدى قائلة سوف أعلمك، وسوف ترى أنك راقص ممتاز. استسلمت ولفتت نظرى إلى تحريك قدمى أمامًا وخلفًا مع الإيقاع، وبعد اللحظات الأولى بدأت انسجم فى عملية الرقص، وشكرتنى على ما بذلت من جهد، وبادلتها الشكر على ما تعلمت، ولكننى اكتفيت بهذه التجربة فى هذا الحفل وعدت بعدها إلى بيت الطلبة سالمًا غانمًا.

وكانت تقام فى بيت الطالبات حفلات راقصة أيضًا فى المناسبات، وكانت آخرها الحفلة التى أقامتها المشرفة تكريمًا لى. حيث حصل أحد نزلاء بيتها على درجة الدكتوراه، وراقصتها عدة مرات شاكرًا ومقدرًا لفضلها علىّ؛ حيث كان له دور هام فى حصولى على هذه الدرجة.

وأختتم سلسلة الاحتفالات باجتماع فى قاعة (ألبرت هول) لتوزيع الشهادات

على المتخرجين، تسبقه موعظة وتراتيل دينية يقودها الأرشبيشوب أُف كنتربري، وهو رئيس الكنسية الإنجليكانية في إنجلترا. ولا تنس أيها القارئ أننا في مجتمع عالماني، لكن يظل الدين وقيمه ركنًا من أركان حياة المجتمع والجامعة، كما كانت تفتتح الدورة البرلمانية باحتفال ديني مناسب في كنيسة وست منستر. ويحدث هذا أيضًا في حفل توزيع الشهادات، وقد اتشحنا جميعًا بالأرواب والقبعات حسب ألوان الكليات.

ويبدأ توزيع الشهادات للحاصلين على درجة الدكتوراه، حاملين أروابهم على أيديهم اليسرى والقبعة في اليد اليمنى. ويقوم المتخرج بالركوع أمام رئيس الجامعة، ثم يقف ليلبسه الروب لامسًا كتفه، وواضعًا قبعته على رأسه. ويتسلم الشهادة دون سلام بالأيدي. ويبدو أن هذه المراسم قريبة الشبه بمراسم الفروسية في العصور الوسطى، وهي تتفاوت بين الدكتوراه والماجستير وشهادات الليسانس التي تقتصر على تسليم الشهادات، كما تتفاوت بين جامعة وأخرى.

ويأتي ختام تلك الاحتفالات بالعشاء ثم حفلة الرقص، وبها انتهت صلتي بعالم الحفلات الراقصة، واكتفيت بأن أكون دكتورًا وفارسًا.

واستعدادًا للسفر، شحنت كتبي إلى القاهرة في ثلاثة صناديق عن طريق جبل طارق، ولكنني عندما استلمتها في القاهرة كانت قد اختزلت إلى صندوق صغير، واختفى الصندوقان الكبيران. ويبدو أنه قد تم الاستيلاء عليهما وتم بيعهما، وربما قد يكون معظمها قد استند إلى سور الأزبكية. وقد كان دليل على ذلك مفاجأة تلميذتي العزيزة أ.د. نادية جمال الدين، حين فاجأتني بأنها سوف تقدم لي هدية في عيد ميلادي.. سألتها كيف عرفت هذا التاريخ، قالت سوف تعرف حين تطلع على الهدية. وقدمت لي كتاب (ماك ماستر عن الحرية في التعليم)، وكنت قد اشتريته كأحد المراجع المهمة.. وفي صفحته الأولى سجلت (هديتي لنفسي بمناسبة عيد ميلادي) إمضاء حامد مصطفى عمار، ٢٥ فبراير ١٩٤٧م. سعدت بهذه الهدية،

وذكرت لى أنها اشترت الكتاب من على سور الأزبكية، وبذلك صدق ظنى فى احتمالات ضياع الصندوقين.

الخبرات الدولية أثناء البعثة:

لم يبق من الخبرات الجديرة بالتنويه خلال تلك السنوات الحافلة بمشاهد العالم الجديد، الذى دخلت إليه على وجل وخشية، والذى اقتحمته بكل قواى المعنوية، إلا بعض الخبرات التى شاركت فيها عبر القارة الأوروبية، وكان أولها فى باريس للانضمام إلى وفد مصر لحضور مؤتمر التربية فيها بعد الحرب العالمية، والذى ترأسه الفيلسوف الفرنسى لانجيفان، وكان خطيب المؤتمر الرئيسى (إيليا اهنبرج) من أقطاب الحزب الشيوعى فى فرنسا. وقد وفد من القاهرة أ.د. عبد العزيز القوصى والسيدة أسماء فهمى عميدة معهد التربية للبنات، وكنت العضو الثالث فى الوفد. وكان انضمامى إليه تطبيقًا للسياسة الحكيمة التى سنَّها الأستاذ شفيق غربال بإشراك طلبة البعثات فى الخارج فى المؤتمرات الدولية لاكتساب أوسع وأغنى الخبرات، من خلال تلك المؤتمرات؛ خصوصًا إذا كان انعقادها فى مقر بعثاتهم أو قريبًا منها.

وكان مؤتمر باريس حاشدًا بمختلف الوفود من معظم الدول الأوروبية وقليل من دول العالم الأخرى، وكانت جلساته تنعقد فى قاعات جامعة السوربون؛ مما أثار فى مشاعرى من تعظيم وإجلال، وكانت إقامتى فى المدينة الجامعية للسربون، بينما أقام الأستاذان فى أحد الفنادق القريبة من السوربون. ولا أشك فى أن تنظيم هذا المؤتمر ومداولاته قد تركت بصماتها فى أفكارى وتوجهاتى التربوية.

أما الخبرة الثانية بالترتيب الزمني، فكانت رحلة تعليمية نظمها أستاذى (لاورايز) أستاذ التربية المقارنة للاطلاع على نظم التعليم فى فرنسا وبلجيكا وهولنده والدانمارك. وقد تحمل مكتب البعثات نفقات هذه الرحلة، والتى رافقنى

فيها زميلي سلامة. واستغرقت الرحلة ثلاثة أسابيع، زرنا خلالها مختلف المؤسسات التعليمية، واستمعنا إلى شرح من المسئولين عن سياسات التعليم فى مختلف المراحل. وهكذا تكون المشاهدة والخبرة الميدانية جانبًا مهمًّا من جوانب مقرر التربية المقارنة.

أما الخبرة الثالثة فكانت أيضًا من اختيار الأستاذ شفيق غربال لأشارك فى حلقة دراسية نظمها اليونسكو حول (الكتب المدرسية والتفاهم العالمي) فى رحاب جامعة لوفان الكاثوليكية فى بروكسل/ بلجيكا، وكان المشرف عليها أستاذى (لاورايز)، حيث قسمنا إلى مجموعات لتقييم عدد من أنواع الكتب الفرنسية والإنجليزية والألمانية والأمريكية؛ لتقصى ما قد يشوبها من تحيزات أو أفكار مغلوطة حول بعض الثقافات غير الغربية. وكان يشاركنى فى مجموعتى طالب عراقى. وقد كتبنا تقريرًا حول ما لاحظناه من الكتب المؤلفة باللغة الإنجليزية، سجلنا فيه ملاحظتنا عن بعض الأخطاء فى عرض الحضارة الإسلامية أو تصورهم للعرب. أذكر تلك الصورة فى أحد الكتب الأمريكية عن الحروب الصليبية، يظهر فيها العربى المسلم راكبًا حصانه وشاهرًا سيفه كأنما هو المعتدي، وتحت الصورة

A Muslim Arab brandishing his sword

وإذا افتقدت ذلك التقرير، أرسلت منه وقتها نسخة إلى مكتب البعثات فى لندن؛ أجد أن د. مرسى سعد الدين الذى كان مستشارًا ثقافيا به قد عثر على صورة منه بين ما لديه من أوراق وكتب ومجلات، فى مقاله بالأهرام بعنوان (وعادت إلى قواعدها) بتاريخ ٨/١٢/٢٠٠١م، وفيه يوضح أن ما جرى بعد أحداث ١١ سبتمبر٢٠٠١م من النظرة إلى العرب ليس شيئًا جديدًا، ويقتبس مترجمًا إلى العربية من تقريرنا: (إنه فى الوقت الذى يوجد فيـه بعـض الاهتمام بالحضارة الإسلاميـة فى الكتب التى تعالج العصور الوسطى، إلا أنها تحتوى على عديد من المفاهيم الخاطئة وتتسم بعدم الدقة.. أولها تأكيدها للسمات الحربيـة للإسلام، فمثلا فى

كتاب مدرسى بعنوان (الجغرافيا السياسية لأوروبا) تجد فيه صورة الإسلام على (أنه لا يزدهر إلا حين يغزو). وفى كتب أخرى يتم تأكيد الاختلافات بين المسيحية والإسلام، دون ذكر لنواحى التشابه بينهما. وتبين تلك الكتب أن اختلاف وجهة النظر الإسلامية عن نظيرتها فى المسيحية تعكس صراعات بين الشرق والغرب... كذلك يبدو أن الكتب التى تم استعراضها تخلط بين العادات الاجتماعية والعقائد والممارسات الدينية، ومنها تدنى مكانة المرأة كما تظهر فى لبسها للحجاب. وفى تأكيد أحد هذه الكتب على الحروب الصليبية على أنها أهم مراحل العلاقات بين الشرق والغرب... وفى نهاية التقرير يتقدم د. حامد عمار ببعض الاقتراحات...).

لقد كانت سياسة شفيق غربال فى إشراك المبعوثين إجراءً حكيمًا لم يستمر بعد تقاعده وتركه الوزارة، حيث غدت تلك المؤتمرات غنائم، يتهافت عليها المسئولون الكبار فى القاهرة.

وهكذا تنتهى حقبة الآفاق الحضارية الجديدة، التى بدأتها فى لندن والعودة إلى القاهرة للانتظام فى سلك العمل بكلية التربية، مخلفًا ورائى من ذكريات العلم والصداقة والحب لمن تركت من الأساتذة والمقيمين فى بيت الطلبة والطالبات، وآيات التقدير والمودة والتوفيق لزميلتى الفاضلة الكريمة (حكمت أبو زيد)، التى سعت جاهدة إلى أن أتوج رحيلى بتزويجى لإحدى الزميلات المصريات، ولكل ما استشعرته من معانى النبل والمودة لزميلى (سلامه حماد)، الذى شاركنى بصدق ما عايشناه خلال الدراسة من حلو الحياة ومرها.



الحكاية العاشرة
العود أحمد إلى أرض الوطن

انتقلت بالطائرة المروحية من مطار لندن إلى البندقية، مدينة شوارع المياه وخطرات الجندول. ومع شاعرنا المهندس على محمود طه وجندوله ومحمد عبد الوهاب ولحنه، قضيت بضعة أيام فى هذه المدينة المتفردة، بمعالمها وكنائسها وحمائمها، من بين مدن العالم، ومنها إلى نابولى حيث أبحرت بنا الباخرة (اسبيريا) إلى ميناء الإسكندرية. ومن الإسكندرية إلى القاهرة إلى "سلوا" فى ارتداد عكسى للنقلات الحضارية، التى تصاعدت مع مسيرتى التعليمية السابقة.

ومع ذلك، فلقاء الوالدين والأقارب والأحباب قد غمرنى بمشاعر فياضة وزغاريد ملعلعة فى كل مكان. وفى (منضرة/ خيمة/ دُوَّار) القبيلة التى أضاءتها نوارنية القرآن الكريم، وأدفأتها الدعوات بسلامة العودة وأمنيات المزيد من النجاح، ممتزجة بأكواب الشاى وكركرات الشيشة وعطر التمباك، يزداد الإحساس بحلاوة الأرض والبشر، وبتباشير الثورة فى تحرير الوطن وتحرره، وأدركت قولة شوقي، وقد عاد إلى أحضان وطنه بعد غيبة طويلة:

وفى نهاية الأسبوع الذى قضيته بين الأهل فى "سلوا" أعود إلى القاهرة، وقد أصابتنى التهابات فيما بين أصابع القدمين، لأذهب إلى عيادة أول طبيب مصرى أقصده للعلاج فى حياتي.. شخصها سريعًا بعد معرفتى بأننى عائد من القرية على أنها (تينيا) من التعرض للتراب، واستقرَّ بى المقام فى (بنسيون) فى أحد الشوارع الخلفية بميدان الإسماعيلية (التحرير الآن)؛ لأكون على مقربة من الكلية، التى أصبحت إحدى كليات جامعة إبراهيم باشا الكبير منذ عام ١٩٥١م.

أعلنت عن عودتى فى الكلية، والتقيت بزملائى من أساتذتها الذين سبقونا فى العودة من جامعات الولايات المتحدة، تتدلى من أعناقهم (كرافتات) غريبة الألوان والرسوم، ناطقين للكلمات التى بها حرف (a) بنعومة تختلف عن نطقها باللهجة الإنجليزية، كالفرق بين نطق bath (باث وبيت).

مشكلة التعيين فى الكلية:

وذهبت لتحية العميد د. عبد العزيز القوصي، ولم تظهر بعد بدعة (أ.د.) فى ألقاب الأساتذة، وفى نهاية حديثنا السريع سألته عن إجراءات التعيين، فأحبطنى رده بأنه لا توجد الآن درجات خالية للتعيين عليها.

حوقلت وحوقلت.. ولما سألنى عن عنوان رسالتى (التنشئة الاجتماعية فى قرية سلوا) أشار عليَّ بأنه ربما تجد وظيفة فى كلية الآداب بجامعة الملك فؤاد الأول. وفيها قسم لعلم الاجتماع: ومع نصيحته الجادة سعيت إلى تلك الكلية لمقابلة عميدها، فاعتذر سيادته نظرًا لأنى كنت موفدًا فى بعثة للتربية، ومكانك الطبيعى فى كلية التربية. شكرته وغادرت مهمومًا، خارت قدماى حتى استلقيت على مقعد الترام إلى القاهرة.

أتردد على الكلية كل يوم وأقابل العميد والوكيل (د.عبد العزيز السيد – الذى أصبح وزيرًا للتعليم العالى فيما بعد)، دون جدوى، ودون بارقة أمل حتى فى

المستقبل القريب. ولعل تقى الدين المقريزى كان جديرًا بحل المشكلة من خلال أفكاره فى كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة).

يا مفرج الكروب:

وذات يوم وأنا فى الكلية لابسًا فى قدمى صندلًا مفتوحًا، ودون شراب من شروط التخلص من (التنيا) التى استطال علاجها، يتسلم العميد إشارة تليفونية من مكتب وزير التربية والتعليم إسماعيل القباني، يستدعى فيها د. حامد مصطفى عمار للقاء الوزير فى أقرب وقت. أبلغت بالإشارة، وعلى الفور دون تردد وبحالة قدماى، اتجهت إلى الوزارة لمقابلة السيد الوزير. إذن لى بالدخول محييًا، وكان أول عباراته (عامل إيه يابلية) وكانت كلمة (بلية) من لوازمه الحميمة فى الحديث إلى طلابه، منذ أن عرفناه حين كان عميدًا لمعهد التربية، ومؤسسًا للمدرسة النموذجية الثانوية فى حدائق القبة، والتى اختارنى لأكون أولَ مدرسى المواد الاجتماعية بها عام ١٩٤٣م، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. واستطرد فى حديثه لينبئنى بأنه اختارنى لأكون عضوًا فى الوفد المصري الذى سيذهب للمشاركة فى المؤتمر العام اليونسكو فى باريس (نوفمبر ١٩٥٢) والوفد مؤلف برئاسته وعضوية د.إبراهيم حلمى عبد الرحمن لدراسة تقرير وميزانية المنظمة فى مشروعات العلوم الطبيعية، ود. محمد عوض محمد أستاذى فى الجغرافية بكلية الآداب للمشروعات الثقافية، وحامد عمار للمشروعات التربوية.

شكرته متلعثمًا وأنا ألقف أنفاسى من غمرة الفرح، سائلًا الله أن أكون عند حسن ظنه.. (آه لو كانت والدتى قد سمعت هذا الخبر لأطلقت زغرودة ساخنة كى يسمعها كل من فى كلية التربية) ثم استدركت بصوت ملؤه الشجن، بأننى ياسيادة الوزير، ليست لى وظيفة الآن، ولم يتم تعيينى فى كلية التربية منذ عودتى من البعثة. وكما لو كان غير مصدق ليستجيب (هذا غير معقول).

وعلى الفور يمسك بالتلفون ليتحدث إلى د. مصطفى نظيف رئيس جامعة

إبراهيم باشا الكبير فى لهجة تقترب من العتاب (يادكتور نرسل بعثات إلى الخارج وننفق عليها من مواردنا المحدودة لتعود فلا تجد لها عملًا. الحالة التى أمامى للدكتور حامد مصطفى عمار، الذى يعتبر أول حاصل على الدكتوراه فى التربية من جامعة لندن ولا يتم تعيينه حتى الآن.. أرجو أن يتخذ اللازم لتعيينه، خصوصًا وأنه سيسافر معى عضوًا فى وفد مصر إلى المؤتمر العام لليونسكو بعد أسبوعين)، ثم أفادنى بأنه علىّ أن أقابل مدير الجامعة غدًا.

وبالصندل ودون شراب فى قدماي، كنت صباح اليوم التالى مع مدير الجامعة الذى أعطيته بعض بيانات عن مؤهلاتى. وعلى الفور أيضًا يتصل بعميد الكلية ليحيطه بتعليمات الوزير بضرورة اتخاذ الإجراءات اللازمة لتعيينى بالتمرير من مجلس الكلية.

وبعد ثلاثة أيام من هذا اللقاء، كنت خلالها أتردد على الكلية مزهوًا بالانتصار على قهر الكلية، ومندهشًا كيف ومتى خلقت الدرجة للوظيفة !!

التقى بالعميد للتهنئة على إتمام تعييني، واصطنعت فى استقبال الخبر بقدر من البرود الإنجليزي، وبذلك تحققت دعوات شيخنا تقى الدين المقريزى بزوال غمتي، بعد إغاثه أستاذنا وزيرنا الجليل إسماعيل القبانى رائد التربية الحديثة فى مصر.

إلى باريس عضوًا فى وفد مصر:

وبرفقة د. إبراهيم حلمى عبد الرحمن أنهينا إجراءات السفر، وسافرنا إلى باريس مع الوزير فى الدرجة الأولى بالطائرة، واستقبلنا السفير فى المطار، ليذهب الوزير فى الفندق المحجوز له على بعد دقائق من مبنى اليونسكو القديم، ونقيم نحن الثلاثة فى فندق آخر لا يقل بهاء عن فندق الوزير، وكنا نلتقى بسيادته كل صباح لنذهب معًا إلى المؤتمر. وكان قد طلب منى فى الطائرة أن أعد له الكلمة التى سيلقيها بحيث لا تستغرق أكثر من عشرين دقيقة على الأكثر باللغة الإنجليزية. وقد رضى عن

معظمها مع تشطيبات وإضافات، لا يخلو منها قلم القبانى فى مراجعاته. وكان يبصرنى بحكمة ودلالة ما قام بتعديله، وهل ثمة مدرسة أفضل من هذا السياق يمكن أن يتعلم المرء فيها الجديد والمفيد.

أمضى معنا الوزير أسبوعًا فى حضور الجلسات العامة للمؤتمر، وبعد أن ألقى كلمته فى الجمعية العمومية غادرنا ليصبح د. عوض نائبه خلال بقية الأسابيع الثلاثة التالية، موزعين على اللجان المرتبطة ببرامج اليونسكو الثلاثة: التربية والعلوم والثقافة، وخلال مشاركتى فى لجنة التعليم تقدمت بمشروعين لتوفير المعونة من قبل اليونسكو فى مجالى التعليم الفنى ومكافحة الأمية، بعد موافقة د. عوض عليهما.

والقلم يعجز عن مجالات الاستماع والخبرات التى اكتسبتها خلال المشاركة فى ذلك المؤتمر. ولا يفوتنى أن أسجل انبهارى بما إقامه السفير من مأدبة تكريمًا للوفد فى بيته الباريسى: روعة وبهاء وذوقًا وإتيكتًا على مائدة الطعام، وطالما تحدثت عن هذه الضيافة أيامًا بعد عودتى إلى القاهرة. وكم كانت خبرة ثرية تلك التى تعلمتها فى تنظيم المؤتمرات، وإدارة الجلسات، ونظم المناقشة وفق ما يعرف (بقواعد روبرت) فى إدارة المناقشات (Robert's rules) والتى لا تعرفها أو لا تلتزم بها المناقشات المصطبية فى كلية التربية وفى لقاءات التربويين. أعتز بهذه الخبرة واعتبرها طاقة معرفية جديدة إلى جانب الطاقات المعرفية، التى مررت بها منذ التحاقى بكتاب القرية.

عدت إلى ارض الوطن وساحاته، وإلى الاستمتاع بمطعم ايزافتش فى ميدان الإسماعيلية، وإلى مطعم التابعى الدمياطى بأكلات فوله كحبات المرجان، ومخللاته الشهية وإلى صحبة الزملاء فى الكلية، وقد كنت الوحيد من خريجى لندن، بينما بقيتهم من خريجى بلاد العم سام. نتجاذب أطراف الحديث عما رأينا وسمعنا وعانينا فى الغربة.. لقد نعموا بمعيشة لا تقتين فيها من المأكل والملبس، وعن

الدجاج المشوى واللحم البقري، فى الوقت الذى كنت أتحدث فيه عن السمك ورقائق البطاطس، والبطاطس فى كل وجبة.

وقد كنا معتزين بعودتنا إلى كلية للتربية فى جامعة إبراهيم باشا الكبير، وليس إلى معهد تابع لوزارة المعارف، خصوصًا وأن الكلية قد أخذت تستقبل الطلاب من الجنسين بعد فترة، كما استقبلت طلابًا من مختلف الكليات من الآداب والعلوم والتجارة والزراعة ودار العلوم. وكانت الصلات بين الطلاب والأساتذة حميمة متعاطفة، مع قلة عدد الطلاب الذى تراوح بين ٤٠٠-٥٠٠ طالب وطالبة، بينما تعج كلية التربية الحالية، بتخصصاتها الأكاديمية وعلومها التربوية وشعبها ودبلوماتها بما يقرب من (٢٠) ألف طالب وطالبة.

ومبلغ القول أننا جميعًا كنا سعداء فى أجواء الكلية، مخلصين فى تحمل مسئوليات التدريس والإشراف على طلاب الدراسات العليا. وقد تفهمت حلقات السيمنار سبب تأخرنا أحيانًا نصف ساعة مع زميلى د. رشدى خاطر، بسبب إدماننا على مشاهدة مباريات كرة القدم، وذلك قبل أن يتولد لدى بعضهم من مشاعر احتكارنا للعمل فى سرس الليان، كما سيرد فيما بعد.



الحكاية الحادية عشرة
بين الكلية وسرس الليان

مصادفة سرس الليان:

عدت من باريس، وتسلمت عملى فى الكلية لأقوم بالتدريس فى أصول التربية وتاريخ التربية، والتربية ومشكلات المجتمع فى (١٢) حصة خلال الأسبوع. وقد بدأت أعد لمحاضراتي، لكل مادة (كشكولها)، ولكل درس عناصره الأساسية أهتدى بها، محاضرًا وليس قارئًا، كما كان أساتذتنا فى كلية الآداب والمعهدين القاهري واللندني، فلم يكن لى كتاب، ولم يكن لأى من الأساتذة كتاب مقرر، كما هو جارٍ اليوم حين ظهرت منذ ثلاثة عقود بدعة تأليف كتب مقررة، وتكليف الطلاب بشرائها والاعتماد عليها. وأحمد الله إننى لم ألوث أستاذيتى حتى الآن بالانخراط فى هذه التجارة الاستغلالية، وهذا العمل الريعى المربح بعوائد هائلة.

ولم يكد ينتصف الأسبوع الثالث من عودتى إلى القاهرة، إلا وأصادف فى الطريق أستاذى محمد فؤاد جلال، الذى أصبح أول زير للإرشاد القومي، ليطلب

منى مقابلة الدكتور عباس عمار، وقد عيّن من قبل اليونسكو مديرًا للمركز الدولى للتربية الأساسية فى سرس الليان، وزودنى بعنوان مكتبه فى القاهرة. التقيت بهذا الرجل بناء على طلب الأستاذ جلال، وبادرنى بأنه قد وقع اختياره علىَّ لأكون خبيرًا محليًّا للتربية الأساسية فى مركز سرس الليان. وشرح لى رسالة هذا المركز، وتركيزه على التدريب العملى للقيادات الريفية من العاملين فى مجال الإصلاح والتنمية الريفية. ولم أتردد فى تسجيل موافقتى وتسجيل مؤهلاتى ليرسل بها إلى اليونسكو فى باريس، فجاء رده بعدم الموافقة لأن المنظمات الدولية لا توظف أخًا للمدير فى مؤسساتها، كما يتضح من المقارنة؛ بين الاسمين.

وعند تسلمه هذا الخطاب استدعانى للرد عليه، وهو مطمئن على سوء فهمها. ومصدر الريبة لدى اليونسكو نابع من التشابه فى اسم المدير عباس مصطفى عمار، واسمى حامد مصطفى عمار، ومع ذلك لا توجد أية قرابة بيننا، هو من المنوفية، وأنا من أسوان حررت مسودة خطاب اليونسكو بهذا الرد الصحيح، فلا قرابة، بل ولا واسطة ولا محسوبية. وبالمصادفة أيضًا كان عنده ابن اسمه مصطفى، ولما تزوجت سميت ابنى مصطفى، والتحق بمعهد ما ساتشوتس التكنولوجى فى بوسطن كما كان قد التحق به ابن د. عباس من قبل. واخبرنى ابنى بأنه عند بدء الدراسة بذلك المعهد وجد اسمه (مصطفى عمار) على إحدى لوحات الشرف فى ذلك المعهد، فأوضحت له قصة التشابه !!

أبلغت الكلية بترشيحى لوظيفة خبير فى مركز سرس الليان، على أساس انتداب ليومين فى الأسبوع. ولما كانت تلك المدة مسموحًا بها فى تقاليد الانتداب، كيّفت جدولى الدراسى فى الكلية لأتفرغ لسرس الليان خلال يومى الأربعاء والخميس، وكان هذا العمل فى سرس الليان بما فيه من تحد جديد فى ميدان تدريب موفدين من الأقطار العربية، وبالاشتراك مع مجموعة من الخبراء الدوليين طاقة متجددة لتوسيع آفاق المعرفة والخبرة على النطاق العربى. واقترحت على المدير، عندما كان يبحث

عن خبير لمحو الأمية، أن يلتقى بالصديق العزيز د. محمود رشدى خاطر لشغل هذه الوظيفة، وقد تم فعلًا. ومن آيات وفائه ونبله أن أول سلسلة كتب ألفها لتعليم الأميين القراءة والكتابة، اختار لها عنوان (حامد وعائلته).

وفى نهاية الشهر الأول من عملى فى سرس الليان، "قبضت" مرتبى (٨٠) ثمانين جنيها بالتمام والكمال، أى ضعف مرتبى الذى أتقاضاه من الكلية كمدرس جديد (حرف ب) وهو (٤٠) أربعون جنيها ليزداد خمسة جنيهات بعد سنتين؛ حين أصبحت مرتبتى مدرس حرف (أ). وتذكرت ساعتها بيت شعر كان يردده والدى حين تضيق به أمور المعيشة:

اشتدى أزمة تنفرجي فقد آذن ليلك بالبلج

طبيعة العمل فى مركز سرس الليان:

قصة عملى فى المركز الدولى للتربية الأساسية فى قرية سرس الليان بالمنوفية، قصة طويلة امتدت حوالى ستة عشر عامًا على سبيل الانتداب أو الإعارة، وقد أسهم خبراؤه فى تغيير اسمه إلى المركز الدولى فى تنمية المجتمع، وهى التسمية الأصح لمهاته وأهدافه فى تدريب أخصائيين للعمل فى تطوير الريف من منظور التنمية الريفية المتكاملة، إنتاجيًا زراعيًا، وحرفيًا، وصحيًا واجتماعيًا وتعليميًا. يتم اختيار المبعوثين إليه من قبل حكوماتهم بالتعاون مع خبير من المركز لدورات تدريبيه نظرية وعملية لمدة عامين، اختصرت فيها بعد إلى عام واحد.

وكان يتولى التدريب فيه مجموعة من الخبراء الدوليين ومن مصر، ومن غيرها من الأقطار العربية، أذكر منهم د. محى الدين صابر من السودان، والذى أصبح وزيرًا للتعليم ثم مديرًا عامًا للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د. محمود رشدى خاطر رفيق العمر فى الكلية وفى سرس الليان، ود. لويس كامل مليكه الأستاذ المتميز فى علم النفس بجامعة عين شمس، وهى نخبة يندر أن يلتقى مثلها فى مؤسسة واحدة، وقد انتقلوا جميعًا إلى رحمة الله، ومنهم د. محمد الشبينى أطال الله

عمره الذى لم نجمه مع اليونسكو فى مكتبه فى قطر، ومع سلطنة عمان عميدًا لكلية التربية فى جامعة السلطان قابوس. ومن خبراته د. فاخر عاقل أستاذ علم النفس المرموق من سوريا، وأسماء أخرى تختزنها الذاكرة، ولا تريد أن تبوح بها... لقد تذكرت د.على محجوب خبير الأمم المتحدة فى الإدارة المحلية، والأستاذ ماهر عبد الله خبير الوسائل التعليمية، والأستاذ صلاح فائق فى شئون التدريب الميدانى إلخ. ولن أنسى من الخبراء الأجانب المستشرق الفرنسى المشهور جاك بيرك الذى قضى معنا عامين مستشارًا فى شئون البحث الاجتماعى، بينما كنت مسئولًا عن شئون التدريب النظرى والعملى؛ حيث يتم الأخير فى القرى القريبة من سرس الليان. ولعل من أهم برامجه ما اسند إلى د. رشدى خاطر فى مجال محو الأمية وتعليم الكبار. وقد كان لاجتهاداته فى تأليف كتب للمبتدئين فى تعلم القراءة والكتابة، وفى كتب المتابعة لمن تحرروا حديثًا من الأمية ما يمكن اعتباره بحق رائدًا طليعيًا فى هذا المجال.

وقد انتهى ببعض خريجى هذا المركز إلى أن يصبحوا وزراء وسفراء فى بلادهم كاليمن وسوريا والأردن، إلى جانب دورهم فى ريادة التنمية الريفية المتكاملة.

ولقد كان للإقامة والإعاشة الداخلية فى المركز أثر قوى فى توثيق عرى الصداقة بين المبعوثين ومع الخبراء والإدارة. واكتسبت من خلال تلك العلاقات معرفة أعمق بظروف الأقطار العربية، أضافت إليها مهماتى إلى معظم تلك الأقطار لاختيار المبعوثين الذين ترشحهم حكوماتهم للإيفاد. وكان من بين فوائدها الشخصية أنها أتاحت لى فرصة للتعرف على رفيقة حياتى فيما بعد.

وقد تحول المركز عام ١٩٧٠م إلى المركز الدولى لمكافحة الأمية وتعليم الكبار، وبعدها بسنوات قليلة أوقفت اليونسكو مساهمتها فى إيفاد الخبراء، وتأخذ الحكومة المصرية فى الإشراف عليه، حتى يلفظ آخر أنفاسه ليصبح مركزًا لدورات محلية متقطعة لا ينتظمها مجال معين.

ومما أفدته من عملي فى مركز سرس الليان توافر مكتبة غنية بمراجعها العربية والإنجليزية، ويكفى أن يكون امينها د. محمود الشنيطى رائد علم المكتبات فى مصر. وقد استفدت كثيرًا مما أتاحته المكتبة من مراجع فى تأليف ثلاثة من كتبى التى نشرها المركز، هى العمل الميدانى فى الريف، وفى بناء البشر، وفى اقتصاديات التعليم.

من طرائف سرس الليان:

* كذلك استمتعت بتلك الرحلة التى أشرفت على تنظيمها بدعوة من الشعبة القومية الفرنسية لليونسكو، ونظيرتها الألمانية لزيارة باريس وميونخ. وقد تلقى المبعوثون صدمتهم الثقافية خلال هذه الزيارة، كما تلقى الفرنسيون والألمان صدمتهم الثقافية الواقعية من اختلاط الجنسين لدى العرب، وفى احترام وتعاون متبادل وبأزياء النساء الحديثة الأنيقة. وأتذكر دعوة الفرنسيين لنا لمشاهدة مسرح (الفولى بيرجيه) على أن نتحمل تكلفة الدخول، وبكل ما فيه من إثارة واستمتاع، غلب عليَّ النوم فى منتصف البرنامج ليوقظنى أحد المبعوثين المصريين (أحمد عبد الآخر) مذكرًا لى (ألا تجد مكانًا أرخص لتنام فيه!). وفى طريقنا من باريس إلى ميونخ، لم نلتفت إلى استخراج تأشيرة عبور التوقف فى النمسا. وجاء مفتش التذاكر ليسألنا أين تأشيراتكم، فأجابه (أحمد عبد الآخر) نحن (سرس الليان). والتفت المفتش حوله، ونحن فى منتصف الليل، ومعظم المبعوثين ينام بملابس نوم مختلفة الأشكال والألوان، ورءوس تغطيها أشكال مختلف من الطواقى والقبعات، فصدَّق أننا كما فهم من عبد الآخر (سرك الليان) وأخلى مسئوليتنا عن التأشيرات.

* ومن طرائف سرس الليان، أذكر باختصار عنوان المركز فى مراسلات الأهالى خلال سنته الأولى منها ما كان بعنوان(مدير مطاعم سرس الليان)، ومنها (مدير الأنسوكو)، ومنها (مدير مركز التوظيف) ومنها (مدير السينما

والمسرح)، حيث أن رسالة المركز لم تتضح بعد. ومنها شجاعة المبعوث العراقى حين طلب التعليق على أحد المحاضرين (أستاذ إلك ساعة ونصف تحكي، شينو القضية)؟ !!

* ثم إليكم ذلك المبعوث الذى نسيته السيارة للعودة من القرية إلى المركز، فلما احتار استأجر حمارًا ممن يعرفه من أهل القرية، وربط على رأس الحمار يافطة، ووصل بحماره على غرفة المدير، ليندهش سيادته ، ثم "ليموت " على نفسه من الضحك، كما يقال - لما وجده مكتوبًا على اليافطة المعلقة فى صدر الحمار (هيئة سياسية) وهو المكتوب على سيارات المركز.

* يكلف المدير أحد العمال ليرد الحمار إلى أصحابه فى القرية، لتظل قصة (حمار الهيئة السياسية)، قصة بديعة تتردد ضمن فكاهات المبعوثين فوجًا وراء فوج.

* ومن الطرائف الحكيمة ما جرى مع خبيرة أجنبية فى اختصاص الإرشاد المنزلى والأسري.. ذهبت إلى قرية (فيشا الصغرى) لتوجيه الموفدات العرب للتدريب فى العمل مع قطاع المرأة والأسرة.

وهنا تختلط القصة بين مفهوم التثقيف اللفظى الذى يلجأ إليه المثقفون والمرشدون، وارتباط هذا الإرشاد كعملية تعليمية بواقع معيش ومشكلات حية، خاصة إذا كان التثقيف أو الإرشاد من مصدر أجنبى لا يتبين هذا الواقع أو يتعرف على مفرداته. والمغزى الذى يتأكد من هذه القصة هو أن الوعظ والإرشاد الكلامي، وعدم الإدراك المتجسد للواقع المعيش، لا يقدم ولا يؤخر كثيرًا كعملية تربوية مؤثرة فى التغيير والتطوير. وفى هذا الصدد، أذكر المقولة الساخرة لبرناردشو من أن (الوعظ والمحاضرة كلام يخرج من فم المتحدث إلى أذن السامع، دون أن يمر بعقل أى منها).

ومن الحتمى فى مجالات تعليم الكبار أو تثقيفهم أو إرشادهم أن تلتحم العملية التعليمية مضمونًا وأسلوبًا باهتمامات واحتياجات وتطلعات الجمهور المستهدف.

وهذا يقتضى أن نتعلم عنه حتى نستطيع أن نعلمه فيتعلم. والمعلم فى جميع الحالات هو دائمًا فى حركة جدلية يعلم طلابه كما يتعلم كذلك منهم وعنهم، ويرتد هذا التعلم منهم وعنهم، لتكون عملية التعليم حوارية تشاركية أكثر فاعلية وأوفر إنجازًا.

نعود إلى قصة مَنْ يرشد مَنْ؟ فى أحد تطبيقات العمل الميدانى فى تلك القرية، ذهبت إحدى المتدربات مع الخبيرة الأجنبية للإرشاد المنزلى بين (النسوان) فى بيت أحد رجال القرية.(•) وصادف أن كنت فى القرية نفسها إذ ذاك، والتقيت برب الأسرة التى ذهبت إليها المتدربة والخبيرة. فقال صاحبنا الشيخ: لقد ذهب فريق من جماعتكم إلى الدار، فقلت هل يمكننا أن نشترك أنت وأنا معهم؟ فاستجاب، وانضممنا إلى فريق العمل النسائى، واتصل الحديث بين الخبيرة وبين الشيخ من خلال الترجمة التى قمت بها.

الشيخ: ماذا تريدون أن تعلموا (النسوان) فى قريتنا؟

الخبيرة: نريد أن نرفع من مستوى معيشتهن.

الشيخ: وماذا تقصدون بذلك؟

الخبيرة: سوف نسعى إلى تحسين أحوالهن وترقية شئونهن.

الشيخ: ياكين (عامية لكلمة لكن) ماذا سوف تعملون؟ أنا غير فاهم !!

الخبيرة: سوف نعمل على توعية ربة البيت والبنات على ترتيب البيت وتنظيمه وعلى الرعاية السليمة للأطفال.

الشيخ: ياكين، النساء يقمن بترتيب البيت ونظافته وتربية الأطفال، ويبذلن جهدًا كبيرًا فى ذلك... هل عندكم أشياء تساعدهن فى هذه الأمور؟

• بالمناسبة ليس فى لغة العرب ما يوحى بأن كلمة " نسوان " لها معنى المرتبة الدنيا، ففى القواميس العربية يقال نساء ونسوان ونسوة، وهى جميعًا جمع " امرأة ".

الخبيرة: سوف نعمل على زيادة وعيهن بأمور النظافة وطرق تربية الأطفال الحديثة...

الشيخ: ياكين، ما أزال غير فاهم لكلامك ياسيدتي.. أنا أقول لك.. وأسألك: هل ستوفرون لنا المياه داخل البيوت؛ حتى لا تتعب البنات فى تجهيز مياه الشرب والغسيل؟

الخبيرة: الحكومة سوف تقوم بهذا إن شاء الله..واكتبوا طلبات بهذا من القرية.

الشيخ: لقد فعلنا هذا مرات ومرات وعدونا.. ونعيش على الوعود.. مرة أخرى.. هل ستساعدوننا فى توفير المراهم التى تزيل الاحمرار فى عيون الأطفال؟

الخبيرة: هذا من شأن الوحدة الصحية والطبيب المسئول.

الشيخ: طيب ياسيدتي: هل عندكم حقن أو أى دواء للتسمم الدموى للأبقار، أو دواء " للفريرة"(•) التى تصيب الكتاكتى (الصيصان)؟

الخبيرة: هذا يا سيدى من اختصاص الطبيب البيطري.

الشيخ: ياكين ما اختصاصكم؟

الخبيرة: التوعية وتغيير الاتجاهات والعادات.

الشيخ: (وعلى وجهه ابتسامة ساخرة) آه.. ما رأيك ياسيدتى أن ندخل فى الكلام الجاد.

الخبيرة: تفضل.. فقد جئنا لزيارتكم لندخل فى الكلام الجاد.

الشيخ: (مازحا) إذا عرضت عليك الزواج.. هل تتزوجينني؟

ومع هذه النغمة المازحة الساخرة بدأنا نضحك، ونستكمل شرب أقداح الشاي،

• الفريرة، كما عرفت فيما بعد، هى مرض نيوكاسل الذى يصيب الكتاكيت؛ فيجعلها فى حالة دوار قبل أن تنفق.

ثم هممت بالخروج شاكرًا للشيخ، ومتعجلًا الهروب من الموقف، وطالبًا العفو والعافية. ويتملكني في الوقت ذاته هذا الإعجاب الغامر بحكمة هذا الشيخ، وبالوضعية المنطقية التي حلل بها المفاهيم المجردة، التي سيطرت على ردود الخبيرة الدولية في الإرشاد المنزلي، وتذكرت أننا حفظنا ونحن صغار بيت شعر كنا نردده:

كلامك يا هذا كبندق فارغ قليل من النعنى كثير التفرقع

ويتابع الشيخ حواره مع الخبيرة ليقول لها إذا وافقت، فسوف أقدم لك مهرًا قيمته (٤٠٠) جنيه، فأرادت الخبيرة أن تتعرف على القيمة الاجتماعية لهذا المهر، فسألته: إذ أردت أن تتزوج هذه المتدربة فكم تكون قيمة مهرها لديك؟ فأجاب (٦٠٠) جنيه. ولما سألته عن هذا الفارق الكبير؛ إذ المفروض أن يكون مهر الخبيرة أعلى من مهر المتدربة. فأجابها بأن هذا الفارق لأنك سوف تكلفني (١٠٠) جنيه لأعلمك اللغة العربية و(١٠٠) جنيه أخرى لتعليمك طرق الطبخ عندنا.. وعندها ضحكنا جميعًا وانصرفنا لنستوعب الحكمة في هذا الحوار.

ولعل القارئ يرى معي أن لهذه القصة مغزى تربويًا ساطعًا في أن التعلم والتغيير، عن طريق الوعظ والأحاديث والمحاضرات قد لا يتعدى سطح الجلد في تأثيره، وأن هذا الأسلوب من التعليم لا يغني إلا إذا ارتبط بالحاجات والاهتمامات لجمهور المتعلمين، وإلا إذا ارتبط بالوسائل والإمكانات المادية والموضوعية التي تجعل المستقبل مستجيبا لما يقال كاستجابة الرادار، وكما تجعل من الكلمة أداة موجهة للعمل والسلوك. والكلمة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وجذورها في الواقع مرتكزة عليه ومنبثقة منه، ومتجهة إلى آفاق جديدة من هذا الواقع إلى حيث تحقق مقاصدها، وهكذا تكون العملية التربوية المؤثرة.

وهذا درس عميق في طرق التعليم وأساليبه الفعالة والمؤثرة.



الحكاية الثانية عشرة
تحولات فى أجواء كلية التربية

من كلية التربية فى المنيرة إلى كلية منشية البكري:

عندما بدأت التدريس فى كلية التربية فى المنيرة، كان جميع أعضاء هيئة التدريس بها ممن حصلوا على درجة الدكتوراه من إنجلترا أو من الولايات المتحدة، بعد أن كان عدد المتخصصين فى العلوم التربوية من بعثات الخارج ثلاثة: " القباني، القوصي، صالح عبد العزيز. وقد اسهم الفريق الجديد فعلًا فى إكساب العلوم التربوية شرعيتها وقيمتها فى آفاق المعرفة والعلوم الجامعية الأخرى، كما أسهموا فى التأثير على تطوير النظام التعليمي ومضامينه الدراسية. وبذلك حسموا الخلاف بين القبانى وطه حسين؛ حين كان يقين الأول متجسدًا فى أن الضرورة تقتضى تأهيل المعلم من خلال دراسات فى علوم التربية والنفس وطرق التدريس، بينما كان الثانى لا يأبه بما كان يسميه الأمور (البيداجوجية)، والتى لا ضرورة لها طالما تم اختيار المعلم المتمكن من مادته. ويتطلب الإنصاف الاعتراف بدور جيلنا وبجهود الرائدين إسماعيل القبانى وعبد العزيز القوصى فى إرساء القواعد

العلمية والفنية؛ لكى يصبح التدريس مهنة، بعد أن كان يقال عنها (إنها مهنة من لا مهنة له).

وقد كان نمط البنية فى الكلية المرموقة، كما كان فى سلفها معهد التربية العالي؛ أى ما يعرف بالنمط التتابعى الذى يلتحق به من الحاصلين على درجة البكلريوس أو الليسانس من كليات العلوم أو الآداب أو الزراعة أو التجارة من إحدى الجامعات المصرية أو ما يعادلها. وهذا تمييز لها عن النمط التكاملى الذى يلتحق به الحاصل على شهادة الثانوية العامة؛ ليقضى فى كلية المعلمين أربع سنوات، والتى أصبحت الكلية الوحيدة للتربية منذ عام ١٩٧٠م، يقضى فيها الطالب أربع سنوات يتلقى فيها العلوم التخصصية فى مزاوجة مع العلوم التربوية، إلى جانب احتفاظها بالإعداد للنمط التتابعي.

وكنت منذ أن بدأ النظام التكاملى معارضًا وناقدًا، ومازلت، بحيث تزداد قناعتى بأنه نظام كالمنبت لا تخصصًا أوفى، ولا تربية أشاع. لكن المصالح والأهواء وتجارة الكتب التربوية والنفسية وتوزيعها لمدى سنوات على الأعداد الكبيرة، التى احتشدت فى كلية التربية خلال العقود الثلاثة الماضية، قد تغلبت على النمط التتابعي، وأهدرت مزايا التركيز على الإعداد الجيد فى كليات التربية وأجوائها الحميمية التى سادت خلال الأجيال السابقة. وما زلنا حتى اليوم نعانى مشروعات تطوير إعداد المعلم، دون أن نلتفت إلى اضطراب وتعقد الهيكلة ذاتها، خصوصًا بعد إضافة شعبة التعليم الأساسي، حين تم إلغاء معاهد التربية للتعليم الابتدائى. ولا خلاص لأزمة إعداد المعلم فى تقديري، إلا بالنظام التتابعى مع جعله سنتين للدبلوم، وفصل إعداد المعلم الابتدائى فى مؤسسة خاصة مستقلة تحت مظلة التعليم الجامعي.

ولعله من الضرورى فى إعداد أعضاء هيئة التدريس فى كليات التربية، إرسال النابهين من المعيدين فى بعثات إلى الخارج لنيل درجة الدكتوراه، وإيفاد بعثات

قصيرة لمن لم يتذوقوا التعلم والتعليم فى أقطار أخرى. ولدى قناعة من خبرتى فى التكوين الفكرى بصورة عامة بفروق فى الكفاءة بين من (عدوا البحر ومن لم يعدوه)، واقتصر تكوينهم فى حدود شهاداتهم وخبراتهم المحلية.

بيد أنه لا يفوتنى هنا تقدير قسم أصول التربية فى الترحيب بعودتى إلى القسم بعد انتهاء عملى بالأمم المتحدة. وقد ظل هذا التقدير فترة ثم انطفأ حين أدركوا أن الأستاذ غير المتفرغ أو المتفرغ بعد السبعين من العمر، لا حول له ولا طول فى اتخاذ القرار. وقد أضاف إلى ذلك نقدى المخلص لبعض ما يدور فى القسم من أحداث، أو لنقدى اللاذع للإتجار فى الكتب، أو فى انتهاك الأمانة العملية فيما يؤلفون، أو فى الصخب على توزيع الجدول، أو التشاحن فى الإشراف على طلاب الدراسات العليا من معاونى أعضاء هيئة التدريس؛ حتى يكون لكل أستاذ مدرسة منهم بالولاء والانتماء له شخصيًّا، وليس على أسس مدرسة علمية أو مناهج بحثية.

وبخلت الكلية والقسم حتى بكلمة شكر شفاهة - لا كتابة - عندما وفرت للكلية مبلغ نصف مليون جنيه قدمها الوزير الجليل د. حسين كامل بها الدين للمكتبة، حين عرضت عليه حالها وأوضاعها المزرية والمتخلفة فى جلسة من جلسات رابطة التربية الحديثة. وصرف المبلغ وتمت من خلاله بعض الاصلاحات التى لم تتطلب إلا قدرًا محدودًا من هذا المبلغ، والله يعلم فيم أنفق ما تبقى. لكن فيما أحرزته من تقدير خارج الكلية من الهيئات الدولية والعربية والمصرية ما عوضنى عن مرارة الشعور بأجواء القسم والكلية، واعتبرت مواقفهم فى رصيدى الإيجابى لا السلبى.

وبصرف النظر عن مذاق الطعوم الشخصية، لقد هالنى ـ وما يزال ـ ذلك التفتت فى المواد التربوية والنفسية التى تزود معارفها معلِّمًا نعده للتدريس فى المدرسة الابتدائية أو الإعدادية فالثانوية. انقسمت العلوم التربوية والنفسية والتربية العملية، إلى جانب جلسات المناقشة التى يطلق عليها (سكاشن)

احترامًا، ولها كتاب، كما للتربية العملية كتاب - انقسمت المواد الدراسية إلى حوالى (١٦) مادة:

فلسفة التربية، الأصول الاجتماعية، التربية ومشكلات المجتمع، التخطيط التربوي، تعليم الكبار، طرق البحث، تربية مقارنة، إدارة مدرسية، علم نفس عام، علم النفس التعليمي، طفولة، علم نفس اجتماعي، صحة مدرسية، فئات خاصة، أسس المناهج، طرق تدريس عامة، طرق تدريس تخصصية، وربما أكون قد نسيت مادة أو مادتين... كم هائل وعلم غزير وآلاف الصفحات من الكتب المقررة... ويتم ذلك خلال فصلين دراسيين، لا يزيد أحدهما عن ثلاثة أشهر، تقطعها فترة أسبوعين للتربية العملية خلال السنتين الثالثة والرابعة... ياللهول !!

كذلك هالنى تنظيم جلسات مناقشة الرسائل، تزينها الورود، وتتخللها أقداح الشاى وفناجين القوة، وما علينا من الفيديو كاميرا أو كاميرات المحبين، وأصوات الأطفال. يعرض الباحث ملخص رسالته التى تزدحم بما يقرب من مائة مرجع، تتلألأ فى قائمتها عشرات المراجع الأجنبية، بما يشى بأن معرفته بالإنجليزية لا تقل عن شكسبير، وبالفرنسية تصل إلى مستوى فولير. كما يتجلى فى ملخص الرسالة باللغة الأجنبية، وتدوى القاعة بالتصفيق بعد عرضه لبحثه.

تبدأ مناقشة الأساتذة، وعند انتهاء كل منهم تزداد موجات التصفيق. وتنتهى الجلسة دائمًا بعد المداولة إلى الاقتراح بمنح الطالب درجة الماجستير/الدكتوراه بامتياز مع (تبادل راجيًا ألا تغير حرفًا من حروفها كما أفعل عادة ساخرًا) الرسالة بين الجامعات المصرية والأجنبية، ما شاء الله يتعالى التصفيق وتوزع الحلوى.. إنه عرس عائلى بهيج...

هذه بدعة لم نسمع عنها منذ عمادة د.عبد العزيز القوصى أو عمادة د. صلاح قطب أو فى أيامي، قبل الذهاب إلى بيروت.. ضاعت هيبة البحث وأصبح فرحًا من

الأفراح الشعبية، ويبدو أنها كانت ظاهرة من ظواهر " تزييف " التعليم، كما يحدث فى " ترييف " العاصمة.

حدود الحركة والحرية الأكاديمية فى الكلية:

ونعود إلى ساحة العمل حيث إن السنوات التالية أتاحت لى خبرات متنوعة من المشاركة، فى رئاسة إحدى ندوات اليونسكو فى باريس عن التنمية البشرية فى الدول النامية. كذلك تم انتخابى من قبل اللجنة الاجتماعية فى الأمم المتحدة؛ لأكون عضوًا فى مجلس أمناء معهد الأمم المتحدة للتنمية الاجتماعية فى جنيف لست سنوات فى دورتين، وكان العمل مع الأمم المتحدة مسموحًا به، والمحظور هو أية هيئات أجنبية أخرى.

لكن الحياة لا تظل حلوة ميسرة على الدوام فى مصر؛ ولابد من منغصات بين الحين والآخر. وقد ارتبط إحداها بخطاب أرسله (مورو بيرجر) أستاذ الاجتماع بجامعة برنستون فى أواخر ١٩٥٦م، يدعوننى فيه إلى العمل أستاذًا زائرا فى جامعة برنستون لمدة عام، بديلًا عنه حيث إنه سوف يقضى إجازة ذلك العام Sabbatical year فى زيارات ودراسات فى الشرق الأوسط، وهى فترة تمنحها الجامعات الأمريكية لأساتذتها كل خمس أو سبع سنوات؛ لإنعاش خبراتهم وتجديد معلوماتهم سواء فى الداخل أو الخارج.

والحاصل أنه عندما وصلت هذه الدعوة، كان من الضرورى إبلاغ مكتب الأمن الجامعى بها. وبناء على ذلك جاء إلى الكلية أحد رجال الأمن ليتعرف على مصدر هذه الرسالة ومبرراتها، ولماذا تم اختيارى بالذات حيث كان ممنوعًا على الأساتذة الاتصال بالهيئات الخارجية، خصوصًا وأن ذلك تم فى أعقاب حرب ١٩٥٦م. والتقيت برجل الأمن، وقد نفيت نفيًا قاطعًا بأى اتصال مع الأستاذ أو مع جامعة برنستون. وبين أخذ ورد لماذا أنت بالذات، وما صلتك بالجامعات الأمريكية، أوضحت له أننى خريج جامعة بريطانية ولا صلة لى بالجامعات الأمريكية.

وانتهيت فى أقوالى بنبرة من الزهو؛ مفسرًا دعوتى لأننى أستاذ مشهور ولى كتاب بالإنجليزية (رسالتى فى الدكتور) منشور فى أحسن دور النشر البريطانية، ومن ثم توجهت إلىّ بالدعوة جامعة من أشهر الجامعات الأمريكية.

وقفل المحضر، بيد أن هواجسى ومخاوفى قد اشتعلت، وأخذت أفكر فى كيفية مواجهة تلك المحاكمة، واهتديت إلى الاتصال بالأستاذ أحمد نجيب هاشم ليجد لى مخرجًا، وقد كان وزيرًا للتربية والتعليم فى تلك السنة. ولما شرحت له موضوع المشكلة، أفادنى بأنه كان فى زيارة رسمية للولايات المتحدة، وكانت جامعة برنستون ضمن برنامجه، والتقى بالأستاذ (مورو بيرجر)، وكانت من نتائج حديثهما أن ذكر أسمى لأقوم بالتدريس أثناء إجازة ذلك الأستاذ.. طمأننى واستدعى موظف الأمن وأملى عليه ما ذكره لى؛ مؤكدًا وطنيتى وحرصى على اتباع القوانين والأنظمة الجامعية.

تأتى محنة أخرى عام ١٩٦٧م عقب مأساة حرب الأيام الستة.. يأتى إلى الكلية أحد رجال الأمن للتحقيق معي، فى شأن ما ورد بكتابى (فى بناء البشر)، والذى اقتبس منه صادق جلال العظم فى كتابه (ما بعد النكسة) إذا لم تخنى الذاكرة، بما يوحى بفساد فى النظام، استند إليه جلال العظم فى تبريره لعوامل النكسة. ولست أدرى كيف استيقظ الأمن إلى هذا الكتاب الذى نشر عام ١٩٥٨م، كأحد المطبوعات التى يصدرها مركز سرس الليان والتى تقوم دار المعارف بتوزيعها. وتركزت الأسئلة فى محاولة للتعرف على علاقتى بجلال العظم؛ حيث عرف بأنه ماركسى ملتزم فى فكره وكتاباته، مع أننى لم تكن لى أى صلة به على الإطلاق. وكنت مطمئنا إلى أن ما ورد فى كتابى من إرهاصات لا يعادل أقل ما قيل فى أسباب النكسة بعدها على صفحات الجرائد والمجلات وفى مختلف المنتديات. وهكذا تزدهر الحرية الأكاديمية وتتاح الفرص للنمو المهنى والعلمى لأعضاء هيئة التدريس !!!



الحكاية الثالثة عشرة
المشاركة فى حوار المؤتمرات

المؤتمرات القومية:

أنتقل إلى إحدى الخبرات الوطنية التى أضافت إلى معارفى ودراساتى فى الاشتراك مع الأستاذ عادل طاهر، الذى أصبح وزيرًا فيما بعد، والدكتور عبد الخالق علام بالأستاذ بالمعهد العالى للتربية الرياضية؛ إذ ذاك، فى الإعداد للمؤتمر الوطنى عام ١٩٥٧م الذى أعقب العدوان الثلاثي، والذى دعى إليه عشرات من قيادات العالم الثالث فى آسيا وأفريقيا ومن الدول العربية.

ثم يأتى اشتراكى فى مؤتمر الاتحاد القومى عام ١٩٥٩م، الذى عقد فى بداية فترة الوحدة المصرية السورية (الإقليم الجنوبى والإقليم الشمالى) كما كانت تسمية مصر وسوريا بالجمهورية العربية المتحدة. وتم اختيارى مقررًا فى لجنة الشئون العربية، وكان الوزير كمال الدين حسين المشرف العام على هذا المؤتمر الذى انعقد فى جامعة القاهرة. وفى ليلة عرض نتائج اللجان اصطحبنى الأستاذ فؤاد جلال إلى قاعة

الجامعة، التى يراجع فيها المشرف العام مع مقررى اللجان ما انتهت إليه من توصيات، وإبداء ملاحظاته على ما يستحق إعادة صياغته.

وكانت لجنة المرأة قد تأخرت فى تقديم توصياتها التى كانت السيدة فاطمة عنان مقررة لها. وعند مراجعة المشرف لها ظهرت عليه علامات الغضب، معلقًا بقوله للسيدة المقررة (هل تريدين إثارة الأزهر علينا بمجرد إعلان هذه التوصيات)، والقى بأوراق التقرير إلى الأستاذ فؤاد جلال. ومما أزعجه المطالبة بالحد من تعدد الزوجات ومبررات الطلاق، وتغيير شروط حضانة الأطفال، وغيرها من المسائل الشائكة، والتى تتخذ فيها الشريعة وأقوال الفقهاء مواقف محددة لا تتماشى مع ما ورد فى هذه التوصيات. ونحن فى مطالع الفجر اقترح الأستاذ جلال إحالتها إلىّ لإعادة كتابتها، وبعد موافقة المشرف العام طلب منى أنه عند الانتهاء منها إعطاؤها للسيد وجيه اباظه الذى بقى معى ليبلغ ما أنجزه إلى سيادته فى منزله.

أخذت أقلب التقرير لا تصور كيف يمكن إعادة صياغته، وأدرك السيد وجيه أباظه ما كنت فى أشد الحاجة إليه دون طلب مني، فوجدت أمامى سندوتش فول محترم ومعه براد شاى أكثر احترامًا. وضعت فى مطلع التقرير تأكيد دور المرأة وبخاصة الريفية والعاملة فى نمو الإنتاج، وفى ترشيد الاستهلاك، وفى متابعة الأبناء والبنات فى الانتظام فى المدرسة، وفى تنظيم أوقات استذكارهم وراحتهم إلى جانب قضايا الرعاية المنزلية والاستقرار العائلي. وحين عالجت التوصيات الخاصة بعمل المرأة وأهميته، وبنظم الزواج والطلاق والحضانة، أشرت إلى تطوير كل منها فى ضوء قواعد وأصول الشريعة الإسلامية، دون الدخول فى تفاصيل أو تحديد توصيات معينة كما ورد فى التقرير الأصلي.

اتصل السيد (وجيه اباظه) بسيادة المشرف العام، وقرأ له ما تيسر لى من إعادة محتوياته وصياغاته، فوافق عليه، وأبلغنى رفيقى شكر المشرف العام. وبعد انتهاء المؤتمر استدعانى المشرف العام على الاتحاد القومى السيد كمال الدين حسين لمقابلته

فى مكتبه، وعرض على تولى إدارة شئون مكتبه فى جهاز الاتحاد القومي، فشكرت له حسن ظنه وتقديره، واعتذرت له حيث إننى افضل أن استمر فى عملى فى الجامعة وفى سرس الليان.

مغامرة أفريقية:

ومن خبراتى الثرية أثناء عملى بكلية التربية، اختيارى فى أوائل الستينيات لأكون عضوا فى فريق لدراسة الأوضاع التعليمية فى الصومال مكونًا من الزملاء د. رشدى خاطر، ود. عبد الفتاح شلبى من أساتذة كلية دار العلوم. وهدف المهمة دراسة إمكانات اتخاذ اللغة العربية أداة التعلم فى المدارس؛ لتحل محل اللغة الإيطالية أو الصومالية. وأوضاع الصوماليين فى بداية استقلال بلادهم لا تختلف كثيرًا عن أوضاع دول القارة الأفريقية فى ظروفها البدائية القبلية؛ حيث تفتقر إلى معظم الخدمات ومظاهر العمران البشري، حتى فى عاصمتها مقديشو: عدد محدود من المدارس، وفندق واحد، ومطعم واحد يتميز بأكلات المكرونة. وليس بها حتى صناعات محلية للجلود المتوافرة، ولم تكن حتى أيضًا صناعة الأجبان معروفة، مع توافر الألبان وسكب الفائض منها على الأرض كما كان يقال لنا.

ومما استدعى انتباهنا أنها رغم كونها بلدًا إسلاميًّا إلا أن معرفتها وممارستها للشعائر الدينية كانت محدودة للغاية. وكان المسجد الوحيد فى العاصمة لا يزيد عدد المصلين به فى صلاة الجمعة عن (٥٠) شخصًا. وتغطى جسم الرجال تلافيف من القماش حول الجسم. وكان غطاء الرأس شائعًا بين النساء، رغم أن بقية الزى قد تكشف أجزاء من الجسم بما فيها صدورهن.. قضينا شهرًا فى الصومال وكتبنا تقريرًا تقدمنا به إلى وزارة التربية والتعليم، ولم يسألنا أحد عنه أو ناقشنا فى محتواه وتوصياته واستقر فى الإدراج البيروقراطية، دون اتخاذ أى إجراء فى متابعته.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ومن خلال هذه الزيارة تعمق فى عقلى ووجدانى قسوة الاستعمار الإيطالى ومدى استغلاله واحتقاره للشعوب المستعمرة، وأدركت ما قد تعلمناه من اعتبار الاستعمار الإيطالى مع البرتغالى من أسوا نظم الاستعمار فى التاريخ، كما تجلى فى أبشع صور الفقر والاستغلال فى الصومال. وكان من بين مؤشرات ذلك كثرة الأطفال غير الشرعيين، الذين يولدون من ممارسة الجنود الإيطاليين الجنس مع فقراء الصوماليات. ومن أغرب ما شاهدناه إنشاء مدرسة إيطالية لتعليم بعض هؤلاء الأطفال، الذين كانوا يعرفون بلون بشرتهم، ويسمون أطفال القهوة باللبن Caffe Latta؛ لاستخدامهم فيما بعد فى الخدمات اليدوية والمنزلية أو التى تتطلبها قوات الاحتلال.

إلى آخر الدنيا فى شيلى:

ومن بين الخبرات العلمية، كان اختيارى لتمثيل مصر فى مؤتمر التخطيط والاقتصاد التربوى للدول اللاتينية الذى انعقد فى سنتياجو، عاصمة شيلى تحت مظلة اليونسكو فى أوائل الستينيات، وموَّلته الولايات المتحدة تحت شعار (التحالف من أجل التقدم Alliance for Progress) وكانت الرحلة شاقة وطويلة، وأذكر أنها كانت فى أول أيام عيد الأضحى؛ حيث ركبت الطائرة المصرية من القاهرة إلى فرانكفورت لأستقل طائرة لوفتهانزا إلى ساحل غانا فى مطار كوناكرى ومنها إلى سان باولو فى البرازيل، لأنتقل إلى طائرة أخرى تهبط فى ريو دى جانيرو فى الأرجنتين، ولتعبر جبال الأنديز إلى مطار سنتياجو. وأذكر أن الرحلة قد استغرقت حوالى ٣٦ ساعة، نمت بعدها يومًا كاملًا فى الفندق قبل بداية المؤتمر.

ولقد ألقت هذه الرحلة الرعب لدىَّ من ركوب الطائرات، والذى ما أزال أعانيه حتى اليوم. ومن مفاجئاتها منذ البداية أن الطائرة المصرية بعد إقلاعها من مطار القاهرة بعد نصف ساعة اضطرت إلى العودة بسبب خلل فى محركاتها. وهى فى طريق العودة كنت أطل من النافذة لأراها تفرغ بنزينها. وعندما وصلنا إلى أجواء

القاهرة استمرت فى الطواف حول المطار؛ لتستكمل، كما علمت فيما بعد، تفريغ بقية وقودها قبل الهبوط. نزلت إلى مطار القاهرة، وقد تقطعت أنفاسي، وكانت عربات إطفاء الحريق فى انتظارنا.

وتم اقتيادنا إلى صالون خاص فى المطار، وخلال انتظارى تملكنى الخوف من استئناف الرحلة وتذكرت أسرتي، وهى وحدها فى أول أيام العيد، وقررت إنهاء الرحلة والعودة إلى بيتي. وتوجهت إلى المسئول من رجال المطار الذى كان معنا، طالبًا العودة وإنهاء رحلتي. لكنه شجَّعنى على البقاء، وقال إنه سيتم تغيير الطائرة، لأننى لم أكن مطمئنًا لإصلاحها. وأخذ يؤكد لى أنه لم تحدث أى كوارث لشركة الطيران المصرية طوال تاريخها. واختلط مع الخوف الشعور بالمسئولية، فأنا ممثل لمصر فى مؤتمر دولى مسافر فى الدرجة الأولى، وينعقد المؤتمر فى شيلي، آخر الدنيا، وقد لا تتاح لى فرصة مماثلة فى حياتي. وَ(اتَّكَلْتُ) على الله، بعد قراءة الفاتحة والمعوذتين وآية الكرسي؛ مما أوصانى بقراءتها والدى عند الشدائد. ومضت الطائرات فى هدوء واستقرار حتى بدأنا الرحلة من ريو دى جانيرو إلى سنتياجو نهاية المطاف. لكنها وهى تعبر جبال الإنديز أخذت تتراقص بعنف، هبوط مفاجئ وصعود مفاجئ، وقائد الطائرة يبشرنا بأننا نواجه عاصفة شديدة، ولم تهدأ الطائرة حتى اقتربنا من أجواء سنتياجو حيث استقرت بنا فى سلام.

وقبل ذهابى إلى جلسة افتتاح المؤتمر التى تنعقد بعد الظهر، اتجهت صباحًا إلى السفارة المصرية، لأتسلم بدل السفر المقرر، والذى أفهمنى مدير إدارة البعثات بأننى سأتسلمه من السفارة عند وصولي. لكن عند سؤالى فى السفارة لم يكن أى إخطار قد وصل، وليس فى جيبى إلا ما قيمته خمسة جنيهات بالدولارات الأمريكية، والتى كان مسموحًا للمسافرين إلى الخارج بصرفها من البنك. طلبت مقابلة السفير، فلما دخلت عليه كان مشغولًا بالحديث فى التليفون عن أسعار صرف الدولار، ولما أنهى مكالمته عرضت عليه مشكلتي، فأفادنى بأنه لم يصلنا خبر بوصولك واشتراكك فى المؤتمر، الذى لم يكن له علم به أصلًا. وقال مبررًا عدم

الاستجابة لمطلبى بإن هناك حالات كثيرة لمصريين، يدَّعون أنهم موفدون ويطلبون بدل سفر. وفى سورة غضب، أبرزت له جواز السفر الخاص الذى يستخرج للمصريين فى مهمات رسمية. ومع ذلك أصرَّ على أنه لا يمكنه صرف أى بدل سفر لي، قبل أن يصله إخطار الوزارة بذلك. وجاء الإخطار بعد يومين، وياله من معاملة بيروقراطية غير مسئولة من الطرف المصري، وغيبة من جانب السفارة.

كانت جلسات المؤتمر ساخنة فى عرض مواقف الوفود ومناقشات جلساتها، تربوية ممتزجة بالسياسة والأيديولوجيات، تتراوح بين مواقف كوبا وفنزويلا يسارًا من ناحية والسلفادور وكوستاريكا يمينًا. وقد بدأت فى تلك الفترة منذ أوائل الستينيات شيوع نظرية التبعية، التى تفسر ما يجرى من أنماط التنمية والتخطيط فى الدول النامية بتبعيتها لاحتياجات الدول الكبرى وأسواقها، وبخاصة الولايات المتحدة، كما ارتبط نقد تلك التبعية ومحاولة تطوير نظرية الاعتماد على الذات، وعلى ضرورة التركيز على التعاون فيما بين الدول النامية وبعضها إقليميًّا وعالميا. كذلك قدمت بعض الأوراق القيمة من قبل خبراء اليونسكو فى أساليب التخطيط التربوي، والتى استعنت بها فى كتابى عن (اقتصاديات التعليم)، وكان أول كتاب فى موضوعه باللغة العربية.

ومن طرائف هذا المؤتمر لقائى مع أحد أعضاء الوفود من براجواى فى أول جلساته، وبادرنى بالتحية محاولًا سؤالى عن بلدي، فقلت له بالإنجليزية (إيجيبت)، فلم يفهم وكررتها بالفرنسية، ثم وصفتها بكلمة (النيل) ففهم، وصاح مبتهجًا (ناصر) فوافقته، وأدركت مدى تأثير زعيمنا جمال عبد الناصر فى أفكار وتطلعات القارة اللاتينية. وبعد إلقاء كلمتى فى المؤتمر صادفت ترحيبًا من عدد كبير من أعضائه بصفتى مصريًّا من بلاد (ناصر).

مازلت أذكر أيامى الممتعة فى سنتياجو عاصمة جميلة أنيقة، فيها ملامح من لبنان، تتميز بما يسودها من حرية التعبير لأحزابها المختلفة بما فيها الحزب الشيوعي،

وبمطاعمها ذات المأكولات الشهية والفواكة المتنوعة. كما استضافنى أحد الفلسطينيين فى المهجر إلى جولة حول المدينة، وفى أمسية جميلة فى إحدى أنديتها. وقد أدركت فيما بعد، عندما استولى الدكتاتور (بينوتشي) فى انقلابه العسكرى بمساعدة المخابرات الأمريكية، ما أصاب شيلي وأهلها من تدهور وكبت للحريات وقهر لشعبها.

أول اكتشافى لأرض كولمبوس:

ولا يفوتنى فى مجال خبراتى المفاجئة الثرية الدعوة التى وجهتها (منظمة الطلبة العرب) فى الولايات المتحدة الأمريكية، لإلقاء محاضرة ضمن برنامجها عن (التنمية الاجتماعية فى العالم العربي)، وفى إحد مؤتمراتها السنوية الذى انعقد فى (بولدر) بولاية كولورادو فى رحاب الجامعة. كان ذلك فيما أتذكر فى أوائل الستينيات. وكان من المدعوين إليه من مصر شاعرنا الفحل الأستاذ محمد التهامى الذى كان نعم الرفيق.. وقد كانت هذه أول زيارة لكل منا للولايات المتحدة الأمريكية.

وكانت فكرة المنظمة مشروعًا قيمًا لاجتماع الطلاب وتدارس شئون الوطن العربي وتبادل خبراتهم العلمية والاجتماعية. وللمركز فى نيويورك فروع فى الولايات Chapters، وكانت مؤتمراته السنوية سوقًا عكاظيًا يلتقى فيه مئات من طلاب البعثات الذين توفدهم حكوماتهم، أو ممن يدرسون على حسابهم الخاص. وكانت هذه المؤتمرات ساحة لتوثيق العلاقات وتبادل الخبرات بين الطلاب العرب. ولكن الخلافات الأيديولوجية بين القوميين والبعثيين والشيوعيين، إلى جانب الانتماءات القطرية ومصالحها ورموزها كانت تزعزع أركانها بين الحين والآخر، حتى قضت عليها بالضربة القاضية، وأنهت كيانها إلى غير رجعة فى أوائل الثمانينيات كما أتذكر.

وقد كان (سعد الدين إبراهيم) آن ذاك رئيسًا للرابطة، كما كان أحد أعضاء

مجلس الإدارة تلميذى المريد صديق العمر (قدرى العربي)، ومنهم أيضًا طالب كويتي نشط ودود (عامر التميمي)، وهو الآن من كبار رجال الأعمال والمال فى الكويت. وخلال المؤتمر انفرد بى طالب وسيم ممتلئًا حيوية وحركة أثناء انعقاد المؤتمر، وعرفنى بنفسه (إسماعيل سراج الدين)، ومعه ورقة وقلم أخذ يعرض على بعض أفكاره فى التنمية والتخطيط الإقليمي. وهو بعد أن أنهى دراسته للدكتوراه من جامعة هارفارد أصبح ضمن قيادات البنك الدولي، ويشغل الآن منصب المدير العام لمكتبة الإسكندرية. وقد توثقت صلتى به منذ ذلك التاريخ، واشتركت معه فى بعض مشروعات البنك فى المملكة العربية السعودية، كما سعدت باختيارى مقررًا للجنة الشعبية المصرية، التى تألفت لدعم ترشيحه مديرًا لمنظمة اليونسكو عام ٢٠٠٠م فيما أظن.

وقد التقيت فى جلسات خاصة مع مجموعات من طلاب البعثات المصرية فى مختلف التخصصات، كما أتاح لى بعض الزملاء زيارة معهد ما ساتشوستس التكنولوجى MIT وجامعة هارفارد لزيارة (أسامة الباز) الذى وجدناه غارقًا بين كتبه فى مكان إقامته ببيت الطلاب. كذلك سعدت بلقاء (د. كمال أبو المجد)، الذى كان مشاركًا فى المؤتمر بحكم عملة مستشارً ثقافيًا فى السفارة المصرية بواشنطون، والذى تفضل بإشراكى معه فى حل طلاسم الكتابة غير الواضحة التى بعث بها السيد سامى شرف لتكون رسالة الرئيس عبدالناصر إلى المؤتمرين.

وبعد انتهاء جلسات المؤتمر، أصر أحد الأصدقاء القدامى، وهو (د. بدر الدين على) أستاذ علم الاجتماع بجامعة توليدو، على أن يستضيفنى فى مقر عمله فى مدينة توليدو بولاية أوهايو، وسافرت لأقضى معه يومين فى شقته الأنيقة. وفى يوم الأحد عرض عليَّ حوالى الساعة (١١) صباحًا زيارة أحد علماء الدين الأفاضل من الأردن، فرحبت بالفكرة. وانطلق بى فى سيارته إلى المركز الذى يقيم به ذلك الرجل. ودخلت إلى قاعة واسعة بها مقاعد يجلس عليها جمع من الناس، ذكورًا

وإناثًا، بيضًا وسودًا، واقتادني إلى الصف الأول لأجلس معه، ولاستمع إلى ذلك الشيخ الجليل بزية العربي، يقرأ من القرآن مفسرًا آياته باللغة الإنجليزية.

وإلى هنا كان المشهد طبيعيًا، لكن توقف الشيخ فجأة ليعلن تشريف الجمع بحضور أحد المفكرين من مصر بلد الأزهر الشريف، ويسعدنا أن يتفضل بالحديث إلينا في الموضوع الذى يختاره. إنها مفاجأة مذهلة !! وبينما أنا فى حالة تردد، يأخذ د. بدر بيدى ضاغطًا لأقف أمام الميكروفون، وقد كانت تلك مؤامرة حاكها مع الشيخ بالتليفون فى اليوم الأول من وصولى إلى توليدو.

ولم يكن فى استطاعتى التهرب أو الاعتذار عن مواجهة هذا الموقف، والذى لا أعرف حتى الهدف من هذا الاجتماع.. بدأت بتحية الجمع وشكرت الشيخ، ووقعت عينى فى هذه اللحظات نفسها على لوحة مكتوب عليها بالعربية (إنما المؤمنون إخوة)، فالتقطت منها موضوع حديثى الذى استغرق نصف ساعة، تناولت فيها قيم الإسلام فى المساواة بين البشر، وبعدم وجود مشكلات التمييز العنصرى أو الجندرى فى تاريخ الحضارة الإسلامية، وما ورد فى ذلك من آيات وأحاديث.

ثم بعد ذلك وقف الجمع رجالًا ونساء وفتيانا وفتيات، وأنا إذ أحمد الله على ما يسر لى فى هذا الموقف، وإذا بالشيخ يدعونى لإمامة الصلاة. وعندها اعتذرت بشده ولم يفلح إلحاح الشيخ أو الضغوط اليدوية للدكتور بدر على إقناعى، واعتذرت بأننى لست فى حالة وضوء... أَمَّ الشيخ الصلاة ركعتين، وبعدها تم توزيع بطاقات لتناول الغداء فى إحدى الحدائق. وكانت تلك صلاة الجمعة فى يوم الأحد لأنه يوم العطلة، الذى يتمكن المسلمون فيه من إقامة الصلاة الجامعة، وعلمت أنه فى السنوات الأخيرة قد سمح للمسلمين أن يغادروا عملهم لأداء الصلاة.

وبعد تناول الغداء، انعقدت حلقة الرقص بين المشاركين، واختل عقلى من هذا المشهد فى تناقضاته، وحاولت أن أجد له تفسيرًا مقنعًا، حتى التقيت باثنين من

المسلمين الذين يدعون بالأمريكيين الأفارقة (السود). وبعد تبادل أطراف الحديث عن الإسلام والمسلمين فى الولايات المتحدة، أردت أن استوضح منهم ما شاهدته من تناقض. وكانت الإجابة هى محاولة للتوفيق بين الشريعة الإسلامية وتقاليد الحياة الأمريكية، واكتفيت بإجابتهم فى حيرة من القاعدة الأصولية إلى أى مدى تبيح الضرورات ارتكاب المحظورات، وعلى أى حال فإن الحكم على هذه المواءمة لله وحده.

غادرت توليدو لاقضى ليلتين فى نيويورك فى بيت طلاب وطالبات جامعة كولومبيا (انترناشونال هاوس)؛ لأواجه مفاجأة أخرى،حين تقدم إلى طالب يهودى ليعرفنى بنفسه وليقدم لى صديقته الفلسطينية التى يزمع أن يتزوجها بعد التخرج. لا تعليق سوى دعوتى بأن يكملا دراستهما بالنجاح.

أعود إلى القاهرة، وأفكارى تتزاحم لتملأ الذاكرة، سعيدًا بما عايشته خلال ثلاثة أسابيع من خبرات جديدة حاشدة. ويصدمنى فى المطار ألا أجد حقيبتى قد وصلت، وانتهى بها الضياع التام بما فيها من بعض الهدايا التى أحضرتها من أمريكا. وقد عوضتنى الشركة عنها بمبلغ تافه (١٥٠) جنيهًا مصريًا. وفى جميع الأحوال حمدت الله أننى عبرت المحيط الأطلنطى بسلام، دون رجرجة من عواصف الطيران.

عضوية مجلس إدارة معهد الأمم المتحدة للبحوث الاجتماعية:

لقد وقع اختيار اللجنة الاجتماعية للأمم المتحدة بالانتخاب لأكون عضوًا فى مجلس إدارة ذلك المعهد فى جنيف لدورتين متتاليتين، على مدى ست سنوات (١٩٦١- ١٩٦٧). وكان يرأس مجلس الإدارة (جان تنبرجن) الهولندى والحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد. وكانت فلسفة بحوث المعهد قائمة على أن التنمية عملية موحدة تتفاعل مكوناتها فى تفاعلات جدلية تأثيرًا وتأثرًا، وأن الفعاليات الاقتصادية لها آثار اجتماعية، كما أن للفعاليات الاجتماعية آثارًا اقتصادية.

وقد تطلعت إلى رئيسنا (النوبل) بإعجاب وانبهار فى انضباطه ودقته فى كل ما يفعل ويقول: وسألته فى اجتماع اللجنة الثانى حيث كانت تجتمع تنعقد سنويًا فى شهر يونيه، أنه مع إدراكنا للتشابك بين الاقتصادى والاجتماعي، هل يمكن تجسيد الفرق بينهما فى مفهومين محددين. فأجاب بأنه إذا أردت أن تتعسف فى التصنيف، يمكنك مع الحذر أن تعتبر الاقتصادى مقابلًا لعمليات الإنتاج، والاجتماعى مقابلًا لعمليات التوزيع.



الحكاية الرابعة عشرة
عوالم الأمم المتحدة

مهماتي في مكتب الأمم المتحدة:

في نوفمبر ١٩٦٩/ ١٩٧٠م، بدأت عملي فيما يطلق عليه إذ ذاك اسم (مكتب الأمم المتحدة للتنمية الاجتماعية UNESOB وكان يرأسه مدير فرنسي، وكنت أتصور أنه بعد مضي عام على عملي به حسب التعاقد، سوف أعود إلى القاهرة. وكان يعمل معنا في ذلك الوقت مستشار للتخطيط فرنسي الجنسية. وكانت وظيفة المستشار تقديم المشورة والخبرة للدول، التي يخدمها المكتب في نطاق الدول العربية في غربي أسيا. وقد حظيت باستدعاء معظم تلك الدول العربية: سوريا والعراق والأردن ولبنان واليمنين الشمالي والجنوبي قبل الوحدة، انتقل إليها لأقضي فيها ما بين عشرة أيام أو أسبوعين بناء على طلبها. بيد أن المستشار الفرنسي لم تطلبه إلا لبنان حتى قرب نهاية السنة. وكانت رتبته حسب كادر الأمم المتحدة P.5، وحرف P. اختزال لكلمة Professional، بينما كان تعاقدي على درجة P.4.

وخطر لي أنني مادمت سوف أنهي تعاقدي بعد بضعة شهور، فلا مندوحة من أن أجد مبررًا لعودتي.. تقدمت بطلب إلى المدير الفرنسي بأني أستحق مرتبة P5؛ حيث إن عمري وخبرتي واستدعائي للمشورة كان أكثر من المستشار الفرنسي بكثير.

وظننت أنه سوف يعتذر عن تحقيق مطلبي، لكنه طمأنني إلى أنه يقدر خدماتي، وقد سمع ثناء عليها عند زيارته لبعض تلك الدول، ووعدني بمد خدماتي سنة أخرى، مناشدًا الأمم المتحدة لترقيتي إلى P.5. وأذكر أنه في البرقية التي دعم بها مطلبه، والتي احتفظ بنسخة منها أن وصف قدراتي على أنها أكثر من P.5 بحساب " قيمتها السوقية " (its market value) في عملي بالمكتب.

وينتقل المدير إلى درجة أعلى في مركز الأمم المتحدة في جنيف، لتقبل مصادفة سعيدة؛ إذ يعين الدكتور سعيد النجار مديرًا للمكتب، وهو كما أشرت صديق عزيز منذ أن ترافقنا في فترة البعثة؛ حيث كان يدرس للدكتوراه في (الكلية الجامعية University College بجامعة لندن)، وقد أحاطني مديرًا للمكتب برعايته وتقديره، وفي ثقة بنفسه دون حساسية من كوننا مصريين، وكان ينصفني فيما كان بعضهم يحاول أن ينسبه إلى نفسه من تعليق على بعض تقارير الأمم المتحدة في نيويورك. وكان يقوم بمد التعاقد في خدماتي خلال السنوات الثلاث التي قضاها مديرًا للمركز حتى دون استشارتي. وقد رقيت خلال مدته إلى درجة [مدير (١)] (D 1) لأتمتع بكامل حقوق ومزايا (الهيئة السياسية) بما فيها لوحة السيارة !!

وفي عام١٩٧٤م بدئ في تحويل المكتب Bureau إلى لجنة Commission؛ مما يعني أن برامجها وخدماتها السنوية تعرض على اجتماع سنوي لوزراء التخطيط والتنمية لمناقشتها واعتماد تنفيذها من خبراء المكتب ومستشاريه. وتتغير رئاسة اللجنة من مدير إلى الأمين التنفيذي، الذي يتم تعيينه بدرجة مساعد الأمين العام للأمم المتحدة من قبل الأمين العام للأمم المتحدة، وباستشارة الدول الأعضاء كل ثلاث سنوات قابلة للتجديد. وقد تم اختيار د.محمد سعيد العطار الذي كان وزيرًا للتخطيط والاقتصاد في جمهورية اليمن الشمالي إذ ذاك ليكون أول أمين تنفيذي للجنة الاقتصادية لغربي آسيا

United Nations Economic Cimmsion for Western Asia (ECWA).

وقد استمر أمينا للجنة على مدى ثلاث دورات. وقد تعاقب عليها بعد استقالتى عام ١٩٨٧، كل من أ.د. حازم الببلاوى الاقتصادى المصرى المعروف، والسفيرة ميرفت التلاوى التى كانت وزيرة للتأمينات والشئون الاجتماعية فى مصر.

وخلال فترة الدكتور سعيد العطار، كنت ساعده الأيمن فى العلاقات مع الدول الأعضاء، وفى إعداد خطابه الذى يتوجه به إلى اجتماع الوزراء السنوى مستعرضًا إنجازات اللجنة ومشكلاتها وبرنامجها السنوى. وأذكر أنه فى اجتماع الوزراء فى صنعاء باليمن الشمالى، بدأت الخطاب الذى أعددته بعبارة (لابد من صنعا وإن طال السفر) والذى أعقبه تزكيتى للترقى لمرتبة [مدير (٢)] (D2)، وهى أعلى درجة يتمتع بها الفنيون خارج نطاق التعينات السياسية، وربما كان لتلك العبارة الافتتاحية سحرها وبركاتها.

وقد كانت فترة الدكتور سعيد النابلسى الأردنى، الذى خلفه جافة ثقيلة الظل بالنسبة لى، خصوصًا وقد علمت ما كان يضمره سرًا من تعين مستشار عراقى مكانى ترضية لحكومة العراق، وكان مقر اللجنة قد انتقل إلى بغداد فى ظل حكومة البعث وجبروت الطاغية صدام حسين. وازدادت العلاقة توترًا نتيجة لما أبديته من تعليق خلال اجتماع الوزراء السنوي لعام ١٩٨٦، والذى كان يرأسه وزير التخطيط العراقى. وقد حدث فى هذا الاجتماع أن الوزير العراقى لم يقتنع بما عرضه رئيس قسم الشئون الاجتماعية من برامج اجتماعية. وفجأة يدعو الوزير الرئيس إلى سماع رأى مستشار التنمية البشرية. وانتهيت فى تعليقى إلى أن جزءًا من عدم التركيز على الجوانب الاجتماعية والبشرية يعزى إلى اسم (اللجنة الاقتصادية)، ومن ثم التركيز على هذا الجانب، وإيلاء البرامج الاجتماعية والبشرية مرتبة ثانوية. وفى ضوء ذلك اقترحت السعى إلى تغيير اسمها إلى (اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربى آسيا)؛ مما تقتضيه التسمية الجديدة من ضرورة إيلاء البرامج الاجتماعية أولوياتها المستحقة وخاصة فى منطقة غربى آسيا. وقد راق هذا الاقتراح لرئيس الجلسة العراقي،

وطلب إعداد توصية إلى الأمم المتحدة بتغيير الاسم وتداعياته فى أولويات البرامج، وتوافق الدول على الاقتراح وإعداد التوصية له.

وعندما انتهت تلك الجلسة، اتجه نحوى نائب الأمين التنفيذى الذى كان عراقيًا، وأراد أن يمارس علىَّ قدراته البعثية مهددًا كيف يتسنى لى أن أعرض اقتراحًا خطيرًا كالذى أشرت إليه، دون أن تتم دراسته أو حتى التفكير فيه من قبل الأمانة التنفيذية. ثم كيف أعلق بعد تعليق رئيس القسم على البرنامج المتفق عليه؛ مما لا تسمح به القواعد البروتوكولية فى مثل هذا الاجتماع حتى يسمح لك الأمين العام التنفيذى بذلك. وكان ردّى واضحًا ومحددًا وقاطعًا متوجهًا إليه (يا سيدى لقد طلب منى رئيس الجلسة وزيركم العراقى داعيًا لى وباسمى الشخصى ووظيفتى إلى التعليق بصورة مفاجئة. ولم يكن بإمكانى إلا الاستجابة له، وقد كنتَ جالسًا على المنصة إلى يساره والأمين التنفيذى على يمينه، ولم تبلغا رئيس الجلسة – حتى ولو همسًا – بأن ليس لى الحق فى التعليق). ولما أفحمته شتمنى بأنى منافق، وكان ردى بالإنجليزية (هذا ما ينتظر من أمثالك). وتأكيدًا فى تحديه، ساعدت فى كتابة المشروع الذى عرض على الوزراء ووافقوا عليه بالإجماع. ولن أنسى ما قدمه لى مندوب المملكة العربية السعودية فى هذا الاجتماع (الأستاذ عبد الملك فراش) من شكر ودعوات بأن يحفظنى الله ويطيل عمري.. وهكذا كسبت الجولة بالضربة القاضية، ووافقت الأمم المتحدة على تسمية (اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربى آسيا

Economic and Social Commission for Western Asia (ESCWA)

ومنذ ذلك الاجتماع، قررت الاستقالة التى تقدمت بها فى نهاية عقدى لذلك العام، وعدت إلى القاهرة. ولم أعد إذ ذاك عضوًا فى هيئة التدريس بالكلية حيث اضطررت إلى تقديم استقالتى حسب قوانين الجامعة إذ ذاك والتى تقضى بأن مدة الإعارة لا تتجاوز خمس سنوات على الأكثر، مع سنة إضافية لمن يعملون فى

المنظمات الدولية. وكان من شروط الإعارة فى الخارج منذ الستينيات أن يفتح المعار حسابًا له بالعملة الصعبة فى أحد البنوك المصرية ليودع به لحسابه ١٠٪ من راتبه بتلك العملة. واعتقد أن هذا كان إجراءً حكيمًا لتوفير العملة الصعبة التى مرت بها مصر خلال الحقبة الناصرية.

مخاطر الحياة وسط الحرب الأهلية وبيروت:

وقد تعرض مقر لجنة (الأكوا - الاسكوا) بسبب اضطرابات الحرب الأهلية فى لبنان خلال عام ١٩٧٥ إلى الانتقال إلى عمان، ثم العودة إليها، ثم الانتقال منها إلى بغداد، ثم عاد أخيرًا إلى بيروت، وليس هنا مجال لذكر الأسباب أو الأحداث المأسوية التى نجمت عن اشتغال الحرب الطائفية والأيديولوجية فى بيروت، وفى غيرها من أنحاء لبنان من صيدا جنوبًا إلى طرابلس شمالًا. ومن أبشع صورها ما عرف بالقتل على أساس الهوية، إلى جانب عمليات اختطاف الرهائن، وسرقة السيارات بالتهديد لسائقيها، ومظاهراتها المخربة الغوغائية التى يقودها "الزعران". وانتشر "الأبضايات" حسب التعبير اللبناني، يرهبون الناس فى كل مكان، وقد تعرضت حياتى فى بيروت إلى أربع من تلك المحن.

١ - الحريق:

أولها: تلك المظاهرة التى اقتحمت مبنى اللجنة فى أوائل عام ١٩٧٤ وأشعلت النيران بمتفجراتها فى الدور الأول من المبنى، يحترق فيها مكتبى وخزانة كتبى وأوراقي. ومن حسن الحظ أننى كنت فى مهمة استشارية خارج لبنان عند حدوث هذا الاقتحام، ولكن المخاوف من مثل هذا الحدث ظلت قائمة.

٢ - الخطف:

وقد كان أفظع تلك المآسي، ترتعد منه فرائصى كلما تذكرته حتى اليوم. ذهبت كعادتى إلى مقر اللجنة صباح ذلك اليوم، وما انقضى على انشغالى بالعمل ساعتان

حتى دعانا حرس المقر إلى مغادرة المبنى نظرًا لأن " الدنيا عالقة " وهو التعبير الذى يقال عندما تشتد المعارك وحوادث الخطف، وتزداد أعمال العنف وإطلاق النيران. جمعت أوراقى وحملت حقيبتي، وتحركت بسيارتي المرسيدس فى طريقى المألوف نحو البيت... الطريق إليه مهجورًا لا حركة فيه.

وفى منتصفه، شعرت بسيارة صغيرة تجاوزتنى بسرعة لتقف أمامى مباشرة. اضطر للتوقف، يخرج منها ثلاثة شبان وبمسدس فى يد أحدهم، يأمرنى أن افتح باب السيارة ليجلس إلى جانبى واضعًا مسدسه بينى وبينه. وبسرعة مذهلة يقتحم رفيقاه ليجلسا فى المقعد الخلفي، أحدهما يضع " ماسورة " بينه وبيني. ويأمرني قائدهم الجالس بجانبي بالمسير. الثلاثة شبان تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والثانية عشرة، كما عرفت فيما بعد. وفى ذهول مطلق، تلقيت تعليمات السير أمامًا ثم يمينا ثم يسارًا، وعندما حاولت أن أتوقف عند إشارة المرور الحمراء، غمزنى جارى بمسدسه أن أواصل السير.. سمعًا وطاعة. واصلت قيادة السيارة حسب التعليمات، حتى انتهى بنا المطاف إلى مكان فسيح رهيب فى فراغه وصمته.

وكان أول تحركاتهم الاستيلاء على حقيبة أوراقى وإفراغ ما فى جيب السيارة الأمامى من أوراق. ثم بدأت الأسئلة من طرف القائد: هل أنت مصري، تعمل فى السفارة المصرية؟ وكان ردّى المتلعثم، أنا مصرى ولكنى لا أعمل فى السفارة، وإنما فى الأمم المتحدة، وأبرزت له جواز سفر الأمم المتحدة. فلم يقتنع. وهددنى بالقتل إذا لم أقل الحقيقة فكررت الحقيقة، وكل الحقيقة. فأردف قائلًا: أنت مصرى وتعمل فى السفارة، ونحن نراقبك منذ جئت إلى بيروت فى العام الماضي، ونريد أن نعرف علاقات السفارة المصرية بحزب (الكتائب) اللبناني.. أنكرت ذلك مرة أخرى، مؤكدًا أننى أعمل مع الأمم المتحدة فى بيروت منذ ست سنوات.

وفجأة تبدأ حلقة جديد من هذه الدراما، إذ بينما أنا فى حوار عنيد من هذا الفريق، وإذا بسيارة جيب ضخمة تدهمنا، ويخرج منها ثلاثة شبان، فحول طوال

عراض، ليقتحموا سيارتي.. يقبضون على الغلمان الثلاثة، ويودعونهم فى سيارتهم التى كان يعلوها مدفع ضخم، ويحلون محلهم فى سيارتى. وكان أول أسئلتهم ماذا أخذت منك تلك العصابة؟ هذه الشنطة وتلك الأوراق. وماذا سألوك، ومن أى جنسية أنت؟ كررت لهم ما قلته لتلك العصابة على حد تعبيرهم، وكان جواز سفر الأمم المتحدة قد وقع من قائدها على الأرض فقدمته للقائد الفحل الجديد، وطلب منى أن اتبع سيارتهم، وكان الجو عاصفًا تشتد أمطاره. تابعت سيارتهم حتى وصلنا إلى حارة ضيقة مسدودة النهاية ببناية ضخمة، طلب منى إيقاف السيارة هنا، وأشار على بإيقاف مسَّاحاتها واحتارت يدى بين مختلف الأزرار ويئست من إيقافها. أخرجنى من السيارة، ساخرًا منى كيف تقول إنك تمتلكها منذ سنين ولا تعرف مفتاح المسّاحات.. لا إجابة، فقد استولت على حالة من التخدير والغيبوبة، أصابت بالشلل كل تفكيرى ومشاعري.

وباختصار أكمل هذا المسلسل لكثرة تفاصيله ومشاعره.. دخلت مع أحد الثلاثة الفحول إلى المبنى، وكانت ورائى ثلاثية العصابة. وإذ ابدأ خطواتى مهتزًا يصيح قائدى "جئنا لكم برهينة مصرية عظيمة" !! يزج بى فى قاعة مستطيلة بها أسرة كأسرة عنابر الجيش، ويزج بالعصابة فى عنبر آخر. أجلس على أحد الأسرة... أشعر بمسيس الحاجة إلى سيجارة، أبحث عن الولاعة... لا أجدها.. أقدم سيجارة للحارس المقنع أمامى فيردنى بأنه لا يدخن.. تدور بى الدنيا، محوقلًا قارئًا لبعض سور القرآن الكريم، الذى أوصانى بها والدى عند اشتداد الأزمات، محاولًا تخيل احتمالات المصير.

بعد نصف ساعة، يستدعينى قائدى الفحل والوشم على ذراعية المفتولتين ليأخذنى إلى الطابق العلوي؛ حيث أجلسنى فى غرفة مكتب يزدحم حوله أفراد يسألون رئيسه عن التوسط لإطلاق سراح بعض أقاربهم من المخطوفين. أدركت ساعتها أننى فى مكتب (العاصفة) إحدى الفصائل الفلسطينية المنتمية

إلى سوريا وحزب البعث، وما يشاع عنها فى لبنان أنها من أكثر القوى المتصارعة قسوة.

ومن سوء الحظ أن العلاقات بين سوريا ومصر كانت متوترة نتيجة لمعاهدة السلام، التى وقعها السادات فى كامب ديفيد.. كل الأجواء كانت تنذر بمصير مشئوم.. استمع إلى أجراس الهاتف المتلاحقة لينتهى رئيس المكتب من هموم من كانوا حوله، وليتقدم إلىّ حيث أجلس، محييًا. وقدمت له سيجارة معتذرًا عن نسيان ولاعتى، فقدم لى ولاعته ودعانى إلى الاحتفاظ بها. وكان هذا الرجل وسيمًا مهندمًا يبدو عليه الاهتمام بمظهره، على النقيض من الفحول الذين كان أحدهم جالسًا على مقربة منا.

نبدأ بتجاذب أطراف الحديث المتوقعة، ما الاسم، ما العمل، كيف جئت إلى هنا، وماذا دار من حديث بينك وبين العصابة؟ ثم طلب من الفحل أن يطّلع على ما فى الحقيبة وما فى محفظة نقودى من أوراق. ومن مساخر ملاحظات الفحل، وهو يقدم إحدى المكاتبات التى كنت أنوى إرسالها إلى الأمم المتحدة فى نيويورك أن قرأ خاتمتها التقليدية (عزيزكم، فالإمضاء). فاعجب بعبارة yours sincerely معلقًا أن هذا جواب غرامى.

واستخرج من محفظة نقودى صورتين لابنتى، معلقًا (إيه الصور الحلوة هادي، أما كان يكفى واحدة)؛ ظنًا منه أو ادعاء بأنهما من عشيقاتي!! وتواصل الحديث مع رئيس المكتب، فيما تقدمه الأمم المتحدة من عون للفلسطينيين وقيمته ومن أعرف من الفلسطينيين.

وبعد قضاء حوالى ساعتين انتظارًا وحوارًا فى ذلك المكتب، يقتادنى الفحل إلى غرفة مجاورة خالية من كل شيء إلا من عدد قليل من الكراسى... وبينما أتابع قراءة الآيات القرآنية، منهار القوة الفكرية والجسمية، أحرك أطرافى بصعوبة، وإذا بشاب أنيق يفتح الباب ويسألنى عما جاء بى إلى هنا. حكيت له من أنا، أستاذًا فى جامعة عين شمس ومستشارًا فى الأمم المتحدة. وعلى غير توقع أخذ يسألنى عن بعض

الأساتذة المصريين فى جامعة بيروت العربية حيث يدرس بها، وقد كنت أعرفهم وعلى صلة بهم، فأعطاني اسمه راجيًا أن (أوصي) به لديهم لمعاونته، وعدته ببذل أقصى جهدى فى هذا الشأن.. ووعدنى هو كذلك بأن يطلب إطلاق سراحي... هذا فرج الله من حيث لا نحتسب، وهى صفقة مشروعة لا تعدلها صفقة.

وبعد نصف ساعة يأتى الفحل، أراه مبتسمًا لأول مرة لأقابل المدير الذى اعتذر عما تعرضت له من معاناة، وأوضح لى بأننى كنت سعيد الحظ إذ أنقذتنى سيارة الدورية الفلسطينية من تلك العصابة التى كانت وراء سرقة سيارتك، وسوف يسلمهم إلى إحدى الطوائف المتصارعة التى ينتمون إليها.

وكل ما طلبه منى دفتر كوبونات البنزين لاستخدامها فى سيارات المنظمة، وهو الذى تمنحنا إياه الصفة الدبلوماسية لشراء البنزين بسعر مخفض. لم أتردد لحظة للاستجابة لطلبه، ثم طلب من الفحل أن يقود سيارة الجيب التى قادنى بها إلى هذا المكتب ليتقدمنى فى طريقى إلى منزلي.. وحيَّانى بأنه يسعد بلقائى مرة أخرى، فشكرته، قائلًا (نلتقى إن شاء الله فى غير هذا المكان).

وصلت إلى بيتي، وبمجرد أن رأت زوجتى وجهى تساءلت على الفور (وجهك متغير على غير العادة، ماذا جرى فى مكتب الأمم المتحدة؟) طمأنتها مشيرًا إلى أن ما جرى ليس فى مكتب الأمم المتحدة، (بل كان مع مكتب الصاعقة وسأحكى لك القصة بعد الغداء).

وكنت كلما تذكرت تلك المحنة أتساءل مع نفسي، كيف استطعت أن أتفاعل معها وأتواصل فى الحديث سواء مع العصبة، أو مع الفحول أو مع مدير مكتب الصاعقة. لابد أن ثمة طاقة مختزنة لدى الإنسان تظهر عند الشدائد، يشحنها عند مواجهة التحديات، وأعتقد أن هذه الطاقة مختزنة لدى الشعوب تستطيع تفجيرها وإطلاقها فى مواجهة أزماتها وتحدياتها، إذا ما أحسن استغلالها وتوظيفها.

أما بعد: ألا تصلح هذه الواقعة لبناء مسلسل تلفزيونى مثير !!

٣ ـ سرقة السيارات:

وبعد ذلك الحادث بسنة تقريبا خيل إليَّ أن الأمور قد هدأت نسبيًا في لبنان، لكن نار الانفلات ما زالت تتحرك تحت الهشيم، ومعها افتقدت سيارتى فى لحظة لا يتجاوز مداها دقيقة: قصدت مكتبى صباحًا فى الساعة التاسعة فى مبنى (الإكوا)، وكنت قبل ذلك بأسبوعين قد أصلحت سيارتى المرسيدس إصلاحًا تامًا، اطمأننت به على قيادتها.

وفى ذلك الصباح كان المرور منسابًا على شارع البحر، ورأيت فى ازدحامه سندًا من الاعتداء والبلطجة. وبينما انحرف بالسيارة للدخول فى شارع آخر تتجاوزنى سيارة أنيقة لتوقفني، يتقدم منها رجل فارع أشقر اللون وفى يده مسدس يوجهه إليَّ لفتح باب السيارة مهددًا (انزيل.. بأقولك انزيل). وفى لحظة نزلت وجلس مكانى وأدار السيارة وطلبت منه أن يسلمنى حقيبتي، فألقى بها فى الشارع) وهرب بالسيارة فى لمح البصر.. التقطت حقيبتى التى كان من أهم ما بها مشروع الخطاب الذى أعددته للأمين التنفيذى ليلقيه فى اجتماع الوزراء، ومن ثم كان حرصى عليها.. التقطت الحقيبة، وتلفت حولي، فإذا بحركة المرور منسابة عادية، وكأنها لم يلتفت أحد إلى ما جرى، فقد كان الأمر سريعًا خاطفًا. ولم يكن فى استطاعتى إظهار أية مقاومة، فالمسدس فى وجهي، وعادة مكتوم الصوت!!

وأنا أقف مذهولًا مجردًا من سيارتى لا أصدق ما حدث.. استدعى تاكسى لينقلنى إلى المكتب، أصادف حاجزًا عسكريًا فى الطريق، أسأله هل مرت عليه سيارة مرسيدس عليها لوحة هيئة سياسية، فيجيب بالنفى. أذهب إلى الأمين التنفيذى فى مكتبه لأبلغه بالحادث. يتصل بمركز الشرطة القريب، ويدعونى إلى أن أذهب إليه مع حارس أمن الاكوا للإبلاغ عن السرقة.. أذهب إلى الشرطة وتسجل محضرًا بالحادث وتفاصيله على أمل البحث عن السيارة. وفى نهاية اللقاء يفيدنى الضابط بمقولته اليائسة والميئسة (ما هم بيسرقوا سيارات المرسيدس) من هم؟ الله يعلم.

وكانت الشائعة المتواترة أن السيارات المسروقة فى لبنان تغير معالمها تمامًا للاستخدام فى بيروت أو للذهاب بها إلى سوريا لبيعها هناك، وكانت سيارات المرسيدس مهوى الأفئدة لكل من الطرفين.. وظللت أسأل واتصل بكل من يمكن مساعدتى فى التعرف عليها. وبالمصادفة يأتى بعدها بشهر تقريبًا الكاتب الصحفى المناضل الأستاذ عبد القادر ياسين، فاحكى له القصة ويعدنى بالبحث عنها... لكن حُمّ القضاء وضاعت السيارة !!

واضطررت إلى شراء سيارة أخرى - لا مرسيدس - لاحتياجاتى اليومية.

٤- لحظات الجلاء من لبنان:

وهى رابع تلك المحن.. تتفاقم مخاطر الحرب الأهلية فى لبنان من جديد لتصل إلى ذروة مخاطرها. وتقرر الأمم المتحدة إجلاء مكاتبها وموظفيها فى لبنان ليعودوا إلى مواطنهم الأصلية حتى إعلان آخر، على أن يتم ذلك خلال يومين. لجأ الخبراء الأجانب إلى سفاراتهم، واللبنانيون والفلسطينيون إلى ديارهم.. وكانت السفارة المصرية قد أعدت رحلتين قبل إنذار إجلاء الأمم المتحدة، ولكن لم يبلغنى أحد منها بذلك. وأبلغت من أمن الأمم المتحدة أن أذهب إلى ميناء (جونيه) على الساحل الشمالى؛ إذ أن هناك بارجة فرنسية تعتبر آخر ناقلة إلى خارج لبنان.

وفى حقيبتين من الملابس حزمنا أمتعتنا أنا وزوجتى، قضينا الليلة فى جونيه، واتجهنا صباحًا إلى الميناء ننتظر صعودنا إلى البارجة الفرنسية.. يظهر السفير الفرنسى على ظهر البارجة، ينادى حسب ما لديه من قائمة بأسماء من يصعدون إلى البارجة، والقائمة تشمل أسماء الأسر اللبنانية. وكان ضابط أمن الأمم المتحدة يقف معنا معتقدًا أن اسمى وارد فيها. وعلى مدى ساعتين لم نصادف مثلها من القلق لا ينادى على أسمى.. طلبت من الضابط أن يصعد ليعرف من السفير عن مصير اسمينا، فأفاده بأنه نظرًا لاكتظاظ البارجة بأسماء المرحلين التى بلغت حوالى (١٥٠) شخصًا بعائلاتهم، تم حذف اسمه خصوصًا وأن السفارة المصرية قد أعدت ناقلتين

منذ أيام للمغادرين المصريين. ونعود مرة أخرى لنطالب الضابط أن يدرج اسمينا؛ خصوصًا ونحن كبار السن، وقد أعلنت الأمم المتحدة ذلك العام عامًا لرعاية المسنين طلبنا من الضابط مرة ثالثة، والسفير يعلن أنه بقى لديه ثلاثة أسماء على القائمة تخلف أحدها، وانتهت نداءات السفير، يلح عليه الضابط بأن يضع أسمى محل الغائب.

أخيرًا، وأخيرًا جدًا، تشاء الصدف أن يدعونا السفير إلى الصعود.. أشكره فقد أنقذ حياتنا، إذ ما نصنع لو عدنا إلى بيروت، وليس لدينا حماية من أى نوع، وقد أمرتنا الأمم المتحدة بالجلاء، كما أننا لم نعلم بالباخرتين المصريتين؛ حيث لم نكن فى قوائمها كمصريين عاملين فى لبنان.

صعدت مع زوجتى آخر اثنين إلى ظهر تلك الباخرة، وقد ملأنا صدورنا بهواء البحر وبموسيقى تلاطم موجاته. تتجه بنا البارجة إلى ميناء (لارنكا) فى قبرص بعد ليلة قضيناها فى ضيافة فرنسا والبحر المتوسط، ووصلنا إلى لارنكا حوالى الساعة الحادية عشرة صباح اليوم الثانى. ينقلنا أوتوبيس إلى إحدى معسكرات الجيش البريطانى على بعض السفوح المطلة على الميناء، حيث فضلنا ذلك المقام على ما قام به معظم المهجرين الآخرين من الانطلاق إلى لارنكا أو الذهاب إلى نيقوسيا. استلمنا مفتاح غرفتنا فى المعسكر واستلقينا على السرير فى سنة من النوم لم نستمتع بمثلها، ونأخذ حمامًا، كما لم نشعر باستمتاع حمام قبله استعدادًا للغداء، وبأكلة، كما لم تذوق شهيتنا مثلها من قبل.



الحكاية الخامسة عشرة
من القاهرة المنفلتة إلى بغداد المقهورة

من تحولات القاهرة:

عدنا أنا وزوجتى إلى القاهرة لنقضى فيها أسبوعين قبل الذهاب إلى مقر الاكوا الجديد فى بغداد. ولفت انتباهى ما جرى لمعالم المدينة وحياة البشر فيها، وعلى التناقضات بين كثير من مظاهرها، وكان ذلك فى عام ١٩٨١م. لقد استرعى انتباهى تلك الكبارى والجسور التى أقيمت، والازدحام المتنامى فى حركة الشوارع، والمبانى العالية التى يقترب بعضها من ناطحات السحاب، كما تبدأ امتداداتها فى المدن الجديدة، أكتوبر ومدينة السادات، ومايو.. إلخ. كذلك لايخفى على العين إنشاء المحلات التجارية وبوتيكات البضائع الأجنبية والسيارات الفرنسية واليابانية والألمانية، وانتشار الأسماء الأجنبية للمحلات التجارية وفى أسماء حافلات المدارس، وإلى إعلان انتشار الحجاب والنقاب بين النساء، وإلى محل يدعى (شوبنج سنتر للمحجبات) وإلى الصعوبة فى إيقاف التاكسيات.

أما مدينة نصر التى لم يكن فيها حين غادرناها عام ١٩٧٠م، سوى ثلاث فيلات

إلى جانب العمارات السكنية العالية التى بنتها مؤسسة الإسكان للتملك والإيجار، أخذت تتمدد طولًا وعرضًا فى مبانيها وجوامعها وأنديتها ومحطات بنزينها. وغصت شوارعها بالسيارات المستوردة، واختفت سيارات نصر الصغيرة ١١٠٠ وسيارات ١٨٠٠ لكبار الموظفين. وأصبحت الشوارع جراجات للسيارات من مختلف الأنواع. وفى وسط هذا العمران ومظاهر الرخاء، تقبع الأحياء الشعبية فى أحوالها المعيشية المتدنية، وبدأ ظهور العشوائيات. وقد كان لتشجيع الهجرة إلى النفط من المهنيين والفنيين وأساتذة الجامعات والمدارس أثر ملحوظ فيما استجد من معالم المدينة المادية والبشرية. وأدركنا تجسيد ما سمعناه عن نتائج سياسة الانفتاح (سداح مداح) وحرية الاستثمار وغيرها من المظاهر الأخرى للتحول الرأسمالى فى مصر.

مناخ القهر فى بغداد:

سافرنا إلى بغداد، عاصمة الرشيد، مدينة السلام، لاستئناف عملنا هناك باعتبارها بلد الأمن والأمان. ومن أول ما تلتقى به العين صور قائد الضرورة صدام حسين رئيس الجمهورية العراقية، بعد أن أزاح رئيسها السابق أحمد حسن البكر. وقد فرض جبروته من خلال أنصاره فى اللجان والمجالس والهيئات القطرية والقومية لحزب البعث، بعد تخلصه من سبعة من رفاقه من قيادات الحزب فى محاكمة من أعجب محاكمات التاريخ، هو قاضيها موجهًا الاتهام لهم بالمؤامرة عليه وعلى النظام، مع إصدار الحكم بالإعدام الفورى عليهم جميعا فى جلسة لم تستغرق سوى سويعات.

صور الزعيم الأوحد كبيرة ومصغرة، وشعارات البعث تملأ كل المساحات الخالية فى الشوارع والميادين.. ليس فى العراق كله إلا صحيفة واحدة هى (البعث). تموج بغداد بالمهرجانات فى كل مناسبات الزعيم الشخصية، فى عيد ميلاده، وفى تاريخ استيلائه على مقاليد السلطة. ويتداول العراقيون قدراته الخارقة فى إحكام

النظام وتأديب المتمردين.. ومنها حكاية وزير الصحة البعثى الذى " تلسن " بنقد أمر ما، فكان نصيبه أن يبعد عن الوزارة؛ ليعين طبيبًا فى وحدة صحية فى إحدى القرى النائية.

أى نقد غير مسموح به حتى لأتفه الأشياء.. أذكر مرة أنى رأيت عربة تبيع الكمثرى (العرموط) باللهجة العراقية، ويباع بالحبة، ولما أمسكتها وجدتها جامدة كأنه لا عصير بها، وقلت للبائع هذه ناشفة جدًا فأردف قائلًا (هذا عرموط عراقى كلش قوي)، وعندها حذرنى زميلى العراقى من نقد أى شىء فى العراق حتى العرموط. وقد اتفق فريق الخبراء المصريين العاملين فى الأسكوا، على أننا حين ننقد أو نعلق على أى شئ فى العراق، نستخدم اسم (سويسرا) بدلا من العراق من قبيل (التقية).

وفى بداية إقامتنا فى العراق، اشتعلت نيران الحرب العراقية الإيرانية، حرب الدفاع عن البوابة الشرقية للوطن العربي، كما كان يطلق عليها البعثيون، وهى حرب ضد الأنجاس من سلالة المجوس. وكانت برامج التلفزيون شبه مقتصرة على الحرب وأخبارها من انتصارات الأبطال العراقين النشامي. وفى الوقت الذى يعرض فيها صورًا للأسرى الإيرانيين، تتبعها صورة الزعيم، وهو يضع ميداليات التقدير على صدور ضباطه المغاوير، شادًا بيديه على أكتاف كل منهم. ومن أعجب ما قرأته فى تمجيد الزعيم، ما نشرته وزارة الإعلام العراقية فى مطوية من ورق مصقول لامع، تهيل عليه تسعًا وتسعين صفة: الأوحد، العظيم، القادر، الملهم الضرورة العادل المحرر، المنقذ... إلخ، وكان الأجدر أن تكون من بين هذه الصفات (المتوحش). لقد رسخت وسائل الإعلام تقديسًا يناظر صفات الله الحسنى، كما أرجعت سلسلة أنسابه إلى سبط الرسول (ﷺ) الحسن بن على، فى صورة له معلقة فى مساجد كربلاء والنجف.

ولا يفوتنى كيف تم اختيار مجموعات من شباب الجامعات والمدارس الثانوية

للتجنيد والتدريب للانضمام إلى صفوف المقاتلين.. هذا فضلًا عن المناسبات التى كان ينظمها الحزب وفروعه فى المحافظات لجمع التبرعات بالمال من الرجال، وبالحلى الذهبية من النساء.. كذلك لا أنسى جولاته فى بعض قرى المحافظات تارة بزيه العسكري، وتارة بلبسه البدوى وعمامته، وفيها يدخل إلى البيوت لزيارة أهلها وفتح ثلاجاتها حيث يظهر لمشاهدى التلفزيون ما يتوافر فيها من مأكولات ولحوم، مؤشرًا على ما يتمتع به العراقيون من كريم العيش.. وكانت كل تلك الزيارات مرتبة سلفًا قبل الزيارة.

ولعل أبشع وأبأس مشاهد التلفزيون العراقى قصة والد يلتقى مع صدام على شاشته، يحكى فيها الأول هرب ابنه من التجنيد وإبلاغ المخابرات بمكان اختفائه. قبض على الابن واعدم فى الحال.. ويقوم صدام بمعانقة الوالد واعتباره من أبطال الحرب؛ لأنه آثر إعدام ابنه على مخالفة تعاليم الزعيم المفدى بالروح بالدم.

ولقد استخدم صدام وسائل التعبئة والتعمية للجماهير وأحكم استخدامها، وكان من بين تلك الوسائل تنظيمه أو أحياؤه لذلك التقليد الثقافى الشعرى الجاهلى (المربد). ومن ثم كان يدعى إلى المهرجان السنوى شعراء من مختلف الأقطار العربية فى تجمع حاشد لهذا (المربد)، الصدامى إحياء للتقاليد العربية، يتغنون أثناءه بأمجاد بطل العروبة حارس البوابة الشرقية، وقد حضر نزار القباني.. ذلك الاحتفال مرتين، وانقطع بعدها.

والواقع أن تلك الحرب مع إيران قد استنزفت موارد العراق نفطًا وزرعًا وصناعة وبشرًا، كما استنزفت بلايين الدولارات التى كانت تزوده بها بعض الأقطار الخليجية.. ومن عجب أن أمريكا كانت تشجعه وتؤيده فى هذه الحرب غاضَّة النظر عما كان يرتكبه من جرائم بشعة فى مواطنيه، وحتى عند قذفه بالصواريخ لإحدى سفنها الحربية فى مياه الخليج.. لقد رأت فيه رجلها الذى

يستطيع أن يوقف المد الإيرانى الذى أحدثته ثورة الخمينى وإسقاط شاه إيران، صنيعتها السابق، فى توازن القوى على ساحة الشرق الأوسط. ولقد كان الدينار العراقى عملة صعبة قيمته ثلاث دولارات، ثم أخذت قيمته فى الهبوط بعد غزو العراق للكويت حتى اصبح لا قيمة له إلا فى داخل العراق.

ولم يكن مستغربًا كذلك أن تكون نتائج انتخابات المجلس الوطنى النيابى ١٠٠٪ فمن ذا الذى يجرؤ من الناخبين على عدم اختيار أولئك الذين اصطفاهم الزعيم؟ كذلك لا يمكن أن نصرف النظر عن شقه لصف التطلعات القومية فى الوحدة والتعاون بين الأقطار العربية، بعد أن عقدت مصر معاهدة الصلح مع إسرائيل، واستحق فارساها بيجن والسادات جائزة نوبل للسلام !!

من مظاهر التحول والتحديث فى بعض دول الأسكوا بين عامي ١٩٧١، ١٩٨٦:

وعودة إلى عملى فى العراق الذى استأنفت فيه مهماتى الاستشارية إلى دول المنطقة، حيث الحظ التطور العمرانى والخدمى فى الدول الخليجية واليمن الشمالى والجنوبى وعمان. ولا يتسع المقال لإيراد تفاصيل ذلك التحديث فى مجتمعاتها ومؤسساتها ما بين زيارتى الأولى لها عام ١٩٧١ وما شاهدته فيها عام ١٩٨٦م، قبيل استقالتى من العمل فى الأسكوا، ولأضرب مثلًا من خلال بعض المؤشرات.

ففى الكويت مثلًا، كان الثقل فى نشاط المدينة مركزًا فى شارع الجهرة، ولم يكن بها إلا فندقان: أحدهما متواضع فى هذا الشارع والآخر (شيرتون) على أطرافه. وفى قطر والبحرين والإمارات العربية المتحدة وقد استقلت وانضمت إلى عضوية الأمم المتحدة فى عام١٩٧١م، ليس فى أى منها أكثر من فندقين، شوارعها غير مرصوفة، ومكاتبها الوزارية محدودة فى مبان متواضعة، وفى وجود أشخاص بها من المواطنين لا يتجاوزن أصابع اليد الواحد، والبقية إما من الهنود أو بعض الأقطار العربية.. المطارات ترابية فى معظمها، ولا تتعدى مبانيها أكثر من غرفتين أو ثلاثة، ومدارسها القليلة باستثناء الكويت لا تتعدى خمس مدارس ابتدائية فقط. وفى عمان مثلًا كان

بها ثلاث مدارس، وإذاعة تبث برامجها لمدى ساعتين أو ثلاث أو لا تذيع على الإطلاق حسب توجيهات السلطان نسبة الأمية تتجاوز ٩٥٪ بين الكبار، عدد السيارات قليل جدًا بحيث لا تسترعى انتباهك، ليس بها أى صحيفة حكومية أو أهلية.

ومن الطرائف فى تلك الزيارة الأولى لعمان عام ١٩٧١م، أننى بعد أن قضيت أربعة أيام بها، حجزت فى مكتب صغير لشركة كوكس البريطانية للسفر بالطائرة فى يوم وساعة محددة. ولما ذهبت إلى المطار رأيت زحامًا على غرفة شباك التذاكر فانتظرت حتى انتهاء الزحام - وكان معظمهم من الأجانب من موظفى الشركات، التى بدأت تبحث عن مشروعات استثمارها - وأنا مطمئن لسفرى على أساس الحجز المدون فى التذكرة. وعندما ذهبت إلى الشباك، أفادنى الموظف الهندى المسئول بأن الطائرة قد شغلت كل مقاعدها، فدهشت وحاولت أن أبين له على التذكرة بيانات الحجز، فأفادنى وهو آسف أن مقاعد الطيارة لا تملأ حسب الحجز، وإنما حسب من يأتى أولًا حتى تكتمل المقاعد. وقالها بالإنجليزية: First Come, First Served

لم يكن لى حيلة فى مناقشة هذه القاعدة، وعدت أدراجى أحمل شنطتى إلى فندق الفلج حيث كنت مقيمًا من قبل، وكانت بينه وبين المطار حوالى كيلو مترين. وصلت إلى فندق الفلج، وقد كان مكتظًا بمندوبى الشركات، وطلبت من موظف الاستقبال أن يحجز لى غرفة للإقامة لليلة واحدة، واعتذر بإن كل الغرف مشغولة. وشرحت له ظرفى، وأننى كنت مقيمًا بالفندق خلال ثلاث ليال من قبل. وبعد الإلحاح فى الرجاء، عرض أن يعد لى سريرًا فى آخر إحدى الممرات بين الغرف، فسررت لهذا الاقتراح وشكرته، مع تأكيده على أننى سوف أدفع نفس القيمة كما لو كنت مقيمًا فى غرفة عادية مستقلة. ولم أتردد فى قبول هذا الشرط. وبمجرد تناول إفطار صباح اليوم التالى، حملت شنطتى نحو غرفة المطار قبل موعد إقلاع الطائرة بساعتين.. قبل أن يفتح باب غرفة المطار؛ لأكون أول ركاب الطائرة. ومع تعدد

زياراتى سنة بعد سنة، أخذت الصورة العمرانية والحضارية تتغير فى صور جديدة مذهلة.

وفى صنعاء أقمت فى فندق المخا، والحنفية يخرج منها ماء كاللبن، حيث لابد من شراء زجاجات للشرب والغسيل، وكان الإفطار فيها كل صباح خبزًا وبيضتين.. وشوارعها باستثناء شارع الفندق، المسمى بأسم أحد شهداء مصر فى حرب استقلال اليمن، كانت حجرية أو ترابية.. آثار الحرب الأهلية واضحة على ثقوب الأبواب الحديدية للمتاجر من إطلاق الرصاص. ومن طرائف اليمن حديثى مع الشاب، الذى كان مسئولًا عن إسكان الزبائن فى الفندق حين سألنى مرة عند عودتى إلى الفندق لماذا لم تحضر معك بعض القات؟ فقلت له إننى لم اعتد عليه، فأجابنى (هو أنت مش راجل) ضحكت واعدًا أن أحضر له لفة قات فى الغد.

كذلك سعدت بسيارة الأمم المتحدة التى أخذتنى لزيارة منطقة سد مأرب، منطقة خراب بها بعض الصخور الحجرية عليها بعض النقوش الأثرية. وعند عودتى منها إلى اليمن الجنوبى، ركبت طائرة ووضعت أمتعة الركاب فى المساحة الخالية بآخر مكان مقاعد الركاب، وكان يجلس عليها مضيف الطائرة بين الحين والآخر؛ حيث كانت المقاعد على قدر عدد الركاب فلا مكان لمضيفنا.

ذلكم كانت أحوال تلك الأقطار فى أوائل السبعينيات، ومع انفتاحها تحولت إلى مدن لا تكاد تتعرفها مقارنة بالماضي، وهو ما يشهده اليوم الزائر لتلك الأقطار من ازدهار فى العمران الحضرى الباذخ أحيانا، وفى المستويات الحديثة فى خدماتها الصحية والتعليمية والإدارية.

والواقع أنه منذ استقلال معظم الدول الخليجية فى أول السبعينيات من القرن الماضي، أخذت تتوافد عليها بكثافة ملحوظة وفود الشركات والمستثمرين الأجانب. وكثيرًا ما كنت ألحظ فى زياراتى تلك الوفود فى ردهات الفنادق، وفى

انتظار نظرائهم من المواطنين، أو فى مناقشات بينهم، وأوراق تعرض ومفاوضات وتوقيعات تتم. والواقع أن الشركات الأجنبية خلال التسعينيات والثمانينيات، من القرن الفائت، كانت تكتظ بهم الفنادق، ومعهم أوراق مشروعاتهم للاستثمار والابتزاز لموارد تلك الدول.

وفى جميع الأحوال تتجلى بسرعة فائقة مظاهر التحديث والعمران الجديد. وبين كل زيارة وأخرى، أشهد ازدياد تطاول العمارات الشاهقة والفنادق الفخمة ذات الخمسة نجوم، والقصور الرائعة، والطرق المرصوفة، والجسور، مع المحلات التجارية الحديثة والبوتيكيات الزاهرة، ووكالات السيارات الفارهة، والأسواق التى تعج بالسلع والأقمشة والأزياء من مختلف الأقطار الأجنبية.. كذلك أخذت تتوافد هجرات من الأقطار العربية وجنوب شرقى أسيا زرافات ووحدانا، وكان الجميع ينشد الثراء السريع والنعيم المقيم.

أذكر على سبيل المثال أننى التقيت صحفيًّا من أحد الأقطار العربية من نزلاء الفندق، فسألته عن هدف زيارته لدول الخليج، فأجابنى (أريد أن أعمل ضربًا سريعًا أستفيد منه) ولست أعرف حتى الآن ما " الضرب السريع " الذى يمكن أن يقوم به صحفي؟

وأذكر كذلك أن شركة أجنبية فى أوائل السبعينيات قد اتفقت مع وزير التربية والتعليم العمانى على تطوير المناهج الدراسية بثلاثة ملايين دولار. وصادف ذلك زيارتى له فى إحدى مهماتى من قبل لجنة الأمم المتحدة فى بيروت، فأخبرنى بذلك المشروع. ولم أتردد فى أن أعرض عليه اقتراحاتى بأن أعاونه فى ذلك التطوير بثلث ذلك المبلغ أو أقل. وفعلًا قدمت له أسماء ثلاثة خبراء، اثنين من مصر وواحدًا من الأردن ليقوموا بتلك المهمة خلال عام. وقد أخذ بنصيحتي، وأبلغنى فى زيارة لاحقه بأنه كان سعيدًا بما أنجزوه.

ومما يؤسف له اليوم ما ألحظه من توجه نظم التعليم فى معظم الأقطار الخليجية إلى التعليم باللغة الإنجليزية فى كل أو بعض مراحله، كما نلحظ قيام أكثر من جامعة أجنبية، إلى جانب جامعاتها الوطنية والتى أخذت تتأثر بها. ومن العجب أن إحدى تلك الدول الخليجية قد فتحت مصاريع أبوابها لقيام سبع جامعات أو فروع لجامعات أجنبية أمريكية وأسترالية وبريطانية وهندية، ولا يتسع المجال لتشخيص العوامل التى أدت إلى هذا التحول الخطير فى منظومة التعليم، والتى تتركز فى "ثقافة السوق" ومهاراته وقيمه.

جامعة القدس المفتوحة:

وما دمنا فى الحديث عن مهماتى مع الأمم المتحدة وتقديم المشورة للأقطار العربية، أود أن أشير إلى مشروع الجامعة المفتوحة الفلسطينية، والتى تعرف اليوم بجامعة القدس المفتوحة. وقصتها أن منظمة التحرير الفلسطينى قد اتفقت مع الصندوق العربى للإنماء الاقتصادى والاجتماعى فى الكويت على مشروع إنشاء جامعة فلسطينية مفتوحة، تتيح للراغبين فى مواصلة تعليمهم - خارج نطاق الجامعات التقليدية مثل بيرزيت أو نابلس - بأن يكتسبوا تعليمًا جامعيًا دون التقيد بمكان أو زمان محدد، وباستخدام الوسائط التكنولوجية المتاحة.

وقد رأى الطرفان ضرورة عرض المشروع على منظمة اليونسكو لإبداء المشورة الفنية وإمكانات المساعدة المادية، وتم تشكيل فريق للقيام بهذه المهمة مع اليونسكو فى باريس. وتألف الوفد برئاسة أمين صندوق منظمة التحرير إذ ذاك، وهو طبيب لا تسعفنى الذاكرة بذكر اسمه، وعضوية الاقتصادى البارز أ.د. طاهر كنعان، الذى أصبح وزيرًا للتخطيط فى الأردن فيما بعد، ومنِّى كمستشار للأمم المتحدة فى التنمية البشرية.. أقمنا فى باريس فى فندق واحد، واستغرقت حواراتنا مع فريق اليونسكو المكون من نائب المدير العام ومدير قطاع التعليم وأحد الخبراء فى المنظمة، وجرت بيننا مناقشات وحوارات مستفيضة حول أهمية الموضوع وصعوبات بلورة وثيقة

المشروع، على أن تتخذ الخطوات التنفيذية اللازمة له فى اجتماع بين الصندوق ومنظمة التحرير.

لكنه فى اليوم الثانى لإقامتنا فى ذلك الفندق، حدثت مفاجأة غريبة لم يكن لأحد أن يتوقعها فى مثل هذا الفندق المحترم. يعود رئيس الوفد أمين صندوق منظمة التحرير مساء ذلك اليوم بعد انتهاء جلستنا المسائية فى اليونسكو؛ ليجد أن أمتعته مبعثرة حيث قام أحد الأشخاص بفتح حقيبته واستولى على ما فيها من أوراق. كان وقع الحدث مزعجًا ومذهلاً.. سألنا كل الأشخاص المسئولين فى الفندق عما إذا كانوا قد رأوا شخصًا دخل تلك الغرفة، ومن الذى أعطاه مفتاحها، فأنكروا جميعًا أن شيئًا من ذلك قد حدث. واستغلق علينا الحدث، فهو ليس فعل ملائكة ولا شياطين.. إنه فعل بشر دخل الفندق فى فترة كان يعلم أننا جميعًا كنا خارجه. ويمتد التساؤل لماذا يقتحم هذا الشخص غرفة أمين صندوق المنظمة بالذات، وليس غرفة أى أحد من النزيلين معه، إذا كان لصًا عاديًا، وماذا يصنع بالأوراق؟!

استدعينا الشرطة وقامت بإجراءاتها الشكلية من معاينة الغرف، وأخذ ما على الحقيبة من بصمات لمتابعة حادث السرقة، ولكنها لم تنتـه فيها علمـت إلى التعـرف على ذلك اللص. لكن كل الدلائـل قاطعـة فـى رأينا على أنه لص سياسى صهيونى آثر سرقة الأوراق، لعله يجد فيها ما يعين أجهزة الصهيونية فى تجسسها على منظمة التحرير الفلسطينية وقادتها. كذلك دارت مناقشاتنـا حـول ما يمكن مـن تواطـؤ بين الفندق وذلك الصهيونى، وربما قد يكون ذلك بالتواطؤ مع أجهزة الأمن الفرنسية!!

وقد رسَّخ ذلك الحدث فى قناعتى ما لدى الصهيونية من أنصار وجواسيس فى كل أنحاء العالم، وعلى يقظة شباكها فى مراقبة الاجتماعات العربية فى أى مكان. وقد أفادنى بعض الزملاء العرب المقيمين فى أمريكا بأن جواسيس إسرائيل والمنظمات الصهيونية كانت دائمًا تندس فى كل الاجتماعات التى كانت تقيمها سنويًا منظمة

الطلبة العرب فى الولايات المتحدة الأمريكية، مما سبقت الإشارة إليه. ويؤكد ذلك ما نشرته بعض الصحف الأمريكية حول ما نشر من وثائق فى المراقبة والتجسس على تحركات واتصالات وهواتف، المفكر الأمريكى الفلسطيني د. رشدى سعيد، أستاذ الأدب الإنجليزى فى جامعة كولمبيا الشهيرة فى نيويورك والمتاضل فى كشف آيات العنصرية والاستعلاء التى تحتضنها الثقافة الغربية ضد العرب بعامة والفلسطينيين بخاصة.



الحكاية السادسة عشرة
عود على بدء

العودة النهائية إلى كلية التربية:

عدت بعد غيبة ستة عشر عامًا، وأنا مع الأمم المتحدة كالسير الدائر بين مقر اللجنة في بيروت أو عمّان أو بغداد وبين الأقطار العربية. وألفيت تغيرات متعددة ومختلطة في أجواء الكلية ومخاضاتها وشعاراتها وأقسامها وأساتذتها، وهي في سياق متغيرات، غدت فيها القاهرة مختلفة تمامًا عما تركتها.. مات عبد الناصر، ولم أشهد رحيله المهيب الذى روت أخباره الصحافة اللبنانية، كما تابعت من شرفة سكنى فى بيروت القريب من السفارة المصرية جموع المعزين، التى تدفقت عليها موجات بشرية وراء موجات للتعزية، اختلط التعبير عن أحزانها ما بين الدموع ورفع الإعلام المصرية.

ولم يستقر بى المقام فى القاهرة، خلال الحقبة الساداتية، إلا خلال زيارات قصيرة، لم أتمكن من خلالها الانشغال المتعمق بمجريات التغير فى السياسة المصرية أو فى الحياة المصرية اليومية. وكل ما روى لى أو ما استطعت متابعته كان يتمثل فى

نكتتين من النكات، التى اشتهر بها المصرى تعليقًا أو تكيفًا مع الأحداث التى لم يصنعها، وعليه معايشتها: النكته الأولى انطلقت فى السنة الأولى من ولاية الرئيس أنور السادات، يقول فيها الراوي: أن الرئيس عندما كان يصل فى سيارته إلى ملتقى طرق يسأل سائقه، أى اتجاه كان يسلكه عبد الناصر من هنا، ليجيبه كان يتجه يسارًا، فيأمر سائقه بأن يتجه يمينًا.. وهكذا كانت سياسته فى التحول من اليسار إلى اليمين أيديولوجيًّا واقتصاديًّا.

والنكتة الثانية أنه بعد أن قام بزيارته التاريخية إلى إسرائيل وعاد إلى القاهرة، وعقب إحدى صلواته فى المسجد الأقصى قبله أحد مريديه، ودعا له بأن يصلى العيد القادم فى مكة المكرمة، فكان رده – كما تروى النكتة، (أنا السنة جاية رايح أصهين) لما لهذه الكلمات من دلالات سياسية فوق معناها اليومى الدارج.

عجائب التغيير مستمرة فى أجواء الكلية:

وفى هذا السياق المجتمعي الانفتاحي، كما وصفه الكاتب الفذ المتفرد (أحمد بهاء الدين) بتعبيره النافذ (سداح مداح) تغيرت أجواء الكلية وأفكار كثير من أساتذتها بتأثير إعاراتهم إلى النفط لمدة مفتوحة لسنوات عشر، وليس لخمس سنوات، كما كانت فى الحقبة الناصرية، وبفعل تشجيع السادات للجماعات الإسلامية وإعلانه أنه رئيس مسلم فى دولة إسلامية، فى مواجهة القوى المعارضة من القوميين والاشتراكيين، وقد رأيت وسمعت صورًا من "الدروشة" التى طغت على المعرفة العلمية، بل وعلى صحيح الدين لدى كثير من أعضاء هيئة التدريس.. وبذلك اختفت الأفكار الليبرالية أو الاشتراكية، التى كان ينشغل بها جيلنا فى رؤيته لقضايا التربية وسياساتها.

عدت وقد انتقل إلى رحمة الله معظم من كانوا معى فى كلية التربية بالمنيرة؛ لأرافق تلامذتى وجيلًا جديدًا معظمه من خريجى كلية التربية فى مقرها بمنشية البكري، الذى دخلت إليه لأول مرة عضوًا بهيئة التدريس فيه؛ حيث تم الانتقال إليه بعد

مغادرتى إلى بيروت، حين انضمت كلية المنيرة إلى كلية المعلمين فى مؤسسة واحدة، هى كلية التربية الحالية منذ عام ١٩٧٠م.

وأود أن أسجل تقديرى لمن التقيت بهم من تلامذتى من الجيل الأول فى الكلية القديمة، والتى سوف أشير إليه باسم (كلية المنيرة) ولها من اسمها نصيب: منهم، مع حفظ الألقاب، فى قسم أصول التربية حسان محمد حسان/ المعطاء، وشكرى عباس حلمى/ المقتدر الحازم، وعبد السميع أحمد/ المفكر، وسعيد عبد المقصود/ الصارم، والأستاذ المتضخم (أنا من أنا) دون ذكر لاسمه، وسعد مرسى/ القاطع، وعبد الفتاح جلال/ المنفتح المجتهد الطموح، وأخيرًا وليس آخر نبيل نوفل/ الناقد المجدد المغترب.

ومنهم فى الأقسام العلمية والتربوية الأخرى، مع حفظ الألقاب: فؤاد أبو حطب، وحامد زهران وطلعت منصور، وسيد عثمان، وعبد الغنى عبود، وأحمد اللقانى، وفارعة حسن، وعلى لبيب (الذى أصبح عميدًا للكلية). ويظل فى الكلية من جيلى حتى الآن الأخ الودود أ.د. صابر سليم، صاحب الكفايات والمناصب المتعددة فى مناهج العلوم وطرق تدريسها.

وقد شهدت الفترة قبل عودتى فى أواسط الثمانينيات اختيار عميد كلية التربية أ.د.عبد السلام عبد الغفار وزيرًا للتربية والتعليم، ولعله ثانى وزير تربوى بعد إسماعيل القبانى فى أول سنوات قيام ثورة يوليو، وكما لم يتح له إلا سنتين أو أكثر قليلا للعمل وزيرًا لوزارة المعارف، كذلك لم يتح للثانى إلا أقل من ذلك. ولعله كان أول وزير يتولى منصب رئاسة الجامعة (عين شمس) بعد تركه للوزارة، ولم يطل مقامة بها قبل تقاعده فى سن الستين. ويظل معيار الأقدمية معيارًا يطغى على كل معايير الكفاءة والقدرة، بصرف النظر عن حساب الشهور والسنين وفى تقديرى إنه من أسخف المعايير فى اختيار القيادات الجامعية.

لقد تعددت أقسام الكلية العلمية، ومعها تفتت المناهج والمقررات، وتضخمت

أعداد الطلاب بالآلاف، بعد أن كانت بالمئات، سواء فى الدرجة الجامعية الأولى أو فى الدبلومات ودراسات الماجستير والدكتوراه، وتواصلت حدة التكالب على الإعارة إلى النفط ليعود بعضهم أستاذاً فى الكلية بعد أن غادرها مدرسًا. وتغولت قضايا التنافس على تأليف الكتب الجامعية المقررة، وما تبعها من مذكرات حتى غدت للمناقشات كتب، ولأعمال السنة دليل أسئلة فى ذيل الكتاب، يجيب عنها الطالب لينتزعه من الكتاب الأم، ويقدمه للأستاذ ليكون إحدى معايير التقييم فى أعمال السنة، وهذا الدليل مطبوع على ورق لا يمكن استنساخه. أكرر هذه الظاهرة هنا لاستمرارها وترسيخها، ويزعجنى انحطاطها إلى حد كبير. وأذهلتنى هذه البدعة أو الإبداع التكنولوجى الذى يؤدى بالضرورة إلى شراء الكتاب. واختلطت المناهج بين التخصصات الأكاديمية والتخصصات التربوية والنفسية المتعددة. وكان الله فى عون الطلاب !!

وفى سياق المتاجرة بالكتب، وبخاصة فى كليات التربية، ومعظم طلابها من أبناء وبنات الأسر المستورة أو كما يقال من محدودى الدخل، ومن ثم يصبح عبء شراء عديد من الكتب عبئًا ثقيلًا. ومع استهجانى الشديد للمتاجرة بالعلم فى أى صورة من صوره (دروس خصوصية أو فرض شراء كتب)، قررت ألا أشارك فى هذه التجارة، رغم ما تدره من عوائد مغرية. ومع استنكارى لقضية الكتاب المقرر فى الجامعة، صغت إهدائى فى إحدى كتبى (إلى طلابى الذين يريدون أن يقرءوا خارج المقرر).

وشهدت انعقاد سيمنار الدراسات العليا لاختيار موضوعات البحث فى الرسائل الجامعية، وما سادها من (فورمات) محددة، ومن استمارات لعينات البحث تستطلع الآراء والاتجاهات بعشرات وعشرات من تفاصيل ومفردات التجزئة لموضوع البحث. كما أذهلتني، وما تزال، مكرور التقاليد أو البدع الجديدة من السخاء فى تقدير الرسائل، والتى تمنح جميعها بتقدير ممتاز مع التبادل بين الجامعات

ومراكز البحوث المصرية والعربية والأجنبية، وهالنى ما صحب جلسات مناقشة تلك الرسائل من أكاليل الزهور فى القاعة ومن تصفيق بعد كل مقطع من مقاطعها، إلى جانب من زغاريد بعد إعلان نتيجتها، وما يرافق أفراحها من مأكولات ومشروبات كما أشرت إلى ذلك بالتفصيل من قبل. ولا يفوتنى أن أشير إشارة عابرة إلى بدعة إنشاء ما يعرف باللجنة الدائمة لترقية أعضاء هيئات التدريس التى لم تكن موجودة من قبل بل كانت الترقية تعتمد على كل إنتاج ما يقدمه عضو هيئة التدريس، من كتب أو بحوث أو مقالات، يتم تقييمها من خلال لجنة يشكلها مجلس الكلية.

أشير إلى هذه التغيرات والطقوس والتى تفاقمت وترسخت منذ لاحظتها مرة عام ١٩٧٩م فى مفارقتها لما كانت عليه كلية التربية، التى انتسبت إليها منذ عودتى من البعثة عام ١٩٥٢م حتى غادرتها عام ١٩٦٩م. والمفارقة عكسية الاتجاه تمامًا فى كل مَعْلَم من المعالم السابقة. ويبدو أن تلك الظواهر قد سادت فى معظم أجواء الكليات الجامعية وأصبحت من تقاليدها. ذلكم بعض من كل مما جرى من تغيرات بل ومن تشوهات، لم استطع التكيف معها، وأحرص على نقدها حتى الآن.

وفى مجال الإشراف على البحوث الذى طغت عليه المدرسة الوضعية البراجماتية، توزعت مهامه على الأساتذة، وجرى تقليد إسناد كل رسالة إلى اثنين من المشرفين، وقد يبدو أن هذا إجراء سديد، لكن الحمل يقع فى الأغلب والأعم على واحد منهم. وقد تحتدم الخلافات أحيانًا على من يتولى الإشراف مما تصطخب به جلسات مجلس القسم، إلى جانب ما تحتدم فيه المناقشات فى تأليف الكتب وفى وضع الامتحانات. وظلت سيطرة رئيس القسم فى الإشراف على رسائل المعيدين والمدرسين المساعدين تقليدًا سائدًا بصرف النظر عن موضوعات الرسائل. ولعل وراء هذا التقليد الحرص على أن يضمن له من الولاء والتقدير منهم بعد أن يغادر

هذا الموقع والذى أصبح مجالًا للمنافسة، كما أصبحت العمادة مجالًا للتنافسات والصراعات، قبل وبعد أن ألغى نظام الانتخاب لها.

ويبدو أن سيطرة رؤساء الأقسام فى احتكار الإشراف على معاونى أعضاء هيئة التدريس كانت استمرارًا لما كانت عليه الأوضاع فى الكلية قديمًا، حيث كانت تسجل الرسائل تحت إشراف رئيس القسم، بينما يتولى الإشراف الحقيقى أستاذ أو أستاذ مساعد آخر. وكان لى نصيب وافر منها فى الحقبة الأولى بكلية المنيرة، أذكر منها رسائل حول أول رسالة فى تاريخ التعليم الصناعي، وعن الأفكار التربوية لجون ديوي، ولأفكار براتراند راسل، وتاريخ التربية القبطية. أما فى مرحلة العودة، فقد كان من نصيبى الإشراف على غير المعاونين لأعضاء هيئة التدريس، باستثناء حالة واحدة لدرجة الدكتوراه لاضطرار المشرف الثانى إلى السفر فى إعارة، وحالة أخرى لوفاة المشرف كذلك.

وفيما يتعلق ببعثات الأقطار الشقيقة، كان نصيبى من الطلاب الأردنيين واليمنيين والليبيين. وقد رحبت بما كان يسند إلىّ، تاركًا للقارئ ما يستنتجه من معايير هذا التوزيع بالنسبه لمبعوثى الأقطار العربية الأخرى.

ومن الأنشطة المستحدثة المستمرة تنظيم الجمعيات والمراكز التربوية فى مؤتمرات سنوية، تدعو الباحثين من الجامعات المصرية والعربية إلى تقديم بحوث فى الموضوع المعلن عنه. والفكرة فى حد ذاتها جيدة ومثمرة، ولكنها كانت مجالاً للكسب، كما كانت المجلات التربوية، مناسبة لتحصيل ما يمكن تحصيله من الجنيهات المصرية أو العملات الصعبة العربية للجمعية أو لغيرها. يدفع المقدم للبحث ـ وعادة من المتطلعين إلى الترقية ـ ما قيمته حوالى ٢٠٠ - ٣٠٠ جنيه مصري، ومثلها من العملة الدولارية للمشاركين من الأقطار العربية الأخرى، أو حسب حجم البحث. ويقال إن البحوث المقدمة للمؤتمر محكمة، وهى دعوى مشكوك فى صدقيتها أو جديتها إلا عند من رحم ربك.

يبدأ المؤتمر بجلسة افتتاح تحضرها قيادات الجامعة، وبعدها ينفرط عقد السامر إلا من عدد قليل من للمحاضرين؛ ليستمعوا إلى عرض البحوث التقليدية، التى نادرًا ما تشتبك مع الواقع أو تنطلق من رؤية نقدية تاريخية في استخدامها للمنهج الوصفى الأمبيريقى. وربما سبقت إشارتى إلى المقال الذى نشرته فى صحيفة القاهرة بعنوان (مؤتمرات مؤتمرات لكنها قليلة البركات) على الأقل من الناحية العلمية !!

وبمناسبة الحديث عن أعضاء هيئة التدريس، كان من الطقوس الجديدة التى لم تكن موجودة فى كليات الجامعة قبل عام ١٩٧٠ ومغادرتى للعمل مع الأمم المتحدة تصنيف الألقاب ورموزها، والحرص على إبرازها والإعلان عنها فى الرسائل والأبحاث والإمضاءات فى المكاتبات الرسمية، منها: لقب أستاذ دكتور (أ.د.)، أستاذ مساعد دكتور (أ.م.د.)، وإلى مدرس (د. دون رمز آخر).

وكنا قبلها نستخدم لقب دكتور (د.) للفئات الثلاث من أعضاء هيئة التدريس.. كذلك حل محل لقب السيد أو سيادة الدكتور، لقب سعادة مع انتشار التقاليد الخليجية. وقد ارتقى لقب (سعادة) منذ منتصف السبعينيات إلى لقب (معالي) وبخاصة بالنسبة للوزراء ورؤساء الجامعات. ومع هذه الألقاب العلمية والطبقية الأكاديمية، أطلّت من جديد مرتبة الباشا والباشوية والبكوية، وبخاصة فى الأحاديث الشفاهية.

وإذا كانت نظم الحرس الجامعي ورجال الأمن ورسلهم من الطلاب قد تأسست فى الحقبة الناصرية.. إلا أننى لاحظت زيادة أعداد المنتمين إليها من الضباط والموظفين فى داخلها أو على أبواب الكليات. ولم يتخلف التفاتى إلى ما يقدم لقيادات الأمن وضباطها من الاحترام المتزيد لدى العمداء ورؤساء الجامعات، وكان لقب الباشا متبادلًا بين الطرفين فى الحديث الشخصى أو الهاتفي.

وكنت أظن أن تلك البدع والطقوس والتقاليد قد تتغير بعد مضى عشرين عامًا من إلغائها رسميًّا، ولكن العكس قد حدث لتترسخ إلى الحد الذى أصبحت من الأمور الطبيعية المسلم بها كممارسات جامعية، حين يُسْتَغْرَبُ التساؤل حولها أو نقدها. ولعل تنامى ظاهرة الدروس الخصوصية فى غير كليات التربية؛ خاصة فى كليات الطب والهندسة والتجارة والصيدلة؛ مما يحطم تماما مفهوم التعليم الجامعى وأخلاقياته، ولاشك فى أن القضاء على هذه البدع وتأثيراتها السلبية مما يعتبر فى تقديرى أولوية ملحة تسبق الشروع فى مجاهل معايير الجودة الشاملة وتطبيق نظم الاعتماد، والتى تمثل ثوبًا فضفاضًا زاهيا، لا تجدى الأوضاع الجامعية حاليًا الاتشاح به.

أشير إلى تلك القضايا والعلاقات والسلبيات ليس على أساس التعميم، مع وجود زملاء جديرين بالاحترام فى التزامهم بأخلاقيات الأستاذية الجامعية ومسئولياتها.

ومنذ عودتى، لم أقدم على أن أتولى (مسئولية مؤسسية) فى أى عمل رسمي. وقد اعتذرت عن تولى رئاسة لجنة المعونات والمشروعات الممولة أجنبيًا فى وزارة التربية والتعليم؛ حتى بعد صدور القرار الوزارى بها الذى أصدره د. حسين كامل بهاء الدين. وربما رأى الدكتور الوزير أن يكرمنى بهذه المهمة ذات المكافأة السخية لرئيسها، والتى كان لا يظن أن أحدًا سوف يعتذر عنها. ولما عرضت عليه مبرر اعتذارى أدرك موقفى من العمل (المؤسسي). وقد سبق ذلك اعتذارى للدكتور فتحى سرور عن تولى شئون المجلس الأعلى لمحو الأمية وتعليم الكبار، كما سبق تفصيل ذلك.

ولقد شاركت فى عديد من اللجان الفنية والمؤتمرات القومية التى نظمها د. حسين كامل بهاء الدين من أجل تطوير التعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى، وإعداد المعلم وتدريبه، وفئات الموهوبين، والتى كانت ترأسها السيدة الفاضلة

سوزان مبارك حرم السيد رئيس الجمهورية. كما شاركت نقدًا ودعمًا فى كثير من مقالاتى الصحفية حول كثير من القضايا، التى تصدى لها الوزير من معارك شرسة مع الدروس الخصوصية أو فرض الحجاب على تلميذات المدارس الابتدائية، إلى جانب إنشاء الجامعات الخاصة وإجراءات نظام التحسين فى الثانوية العامة، وتمسكه بمجانية التعليم، وغيرها من المواقف، التى وضعت اسمه ضمن قائمة المطلوب اغتيالهم من جماعات الإرهاب الإسلامى أو على الأصح (غير الإسلامى).

شاركت فى كل هذا مما أتذكره، ومما لا أتذكره، بكل ما لدى من طاقة وفكر لوجه الله والوطن، دون أن أتقاضى مليمًا واحدًا من وزارة التربية والتعليم، سوى بعض المكافآت فى تحكيم أربعة من كتب المسابقات فى مجال الدراسات الاجتماعية. وقد سعدت بالتعامل مع هذا الوزير المخلص والمثابر فى محاولاته لتحريك المستنقع الآسن للواقع التعليمى. ومع ذلك فقد كان بعض الزملاء وبعض الإشارات فى الصحف تشير إلىَّ على أننى مستشار الوزير، وقد حاولت تصحيح ذلك غير مرة على صفحات الجرائد، معلقاً بأن هذا اللقب شرف لا أدعيه وتهمة لا أنكرها. وطالبت أولئك الذين يصرون عليه أن ينبشوا فى أضابير الوزارة الإدارية والمالية؛ لعلهم يجدون أننى مستشار رسميًا دون أن أدرى، وساعتها سوف أطالب الوزارة بصرف مستحقاتى خلال السنوات التى قضيتها فى شغل تلك الوظيفة!!

ومع ذلك، فإنى مدين لهذا الوزير والصديق الجليل أ.د. حسين كامل بها الدين بإنقاذ حياتى من ثلاث أزمات صحية خطيرة ومفاجئة. وبفضل معونته السريعة وإشرافه على علاجى أثناء إقامتى فى المستشفى، ومتابعته اليومية شخصيًا لحالتى حتى تم شفائى التام. وهل أتجاوز قدرى - اعتزازًا وتقديرًا وعرفانا، لأن أقول لأولئك الزملاء، بأنه كان مستشارى الطبى الحكيم أيضًا.

ولا يفوتنى فى هذا الصدد مشاركتى فيما كتبته فى الصحف، مع غيرى من الكتاب والصحفيين، من التقدير المستحق لأول وزير يصدر ثلاثة كتب قيمة رائدة فى تصوراته كمفكر فى تطوير مسيرة التعليم... وتلك هى كتاب: التعليم والمستقبل، التعليم فى عالم بلا هوية، وفى مفترق الطرق للدكتور حسين كامل بها الدين. وقد ارتاب بعض الحاقدين فى أنه هو المؤلف الحقيقى لتلك الكتب.. وهاهو قد ترك الوزارة منذ عامين، ولم يظهر فى الأفق مؤلفها المزعوم، أو حتى من أعانه فى تأليفها، أو من يدعى سعة معارفة وخصوبة أسلوبه.

التعبير عن الرأى فى وسائل الإعلام:

لقد حرصت على أن اقتحم وسائل الإعلام مبديًا الرأى والموقف خلال ما اهتمت به (قضايا التعليم). وفى سنة عودتى ١٩٨٧ كان د. فتحى سرور قد أعد وثيقة (استراتيجية تطوير التعليم) ليعرضها فى مؤتمر عام يرأسه رئيس الجمهورية، ويزعم أحد التربويين المنتفخين أنه هو الذى حرر تلك الوثيقة. وحتى لو كان هذا صحيحًا، فإن الوثيقة لا تستحق الفخر بها، بل كانت فى تقديرى من قبيل القضايا العامة التى تتناولها الكتب المقررة فى أصول التربية ومناهج التعليم، وتفتقر كلية إلى مفهوم ومقومات الفكر الاستراتيجى للتحرك.

وقبيل انعقاد المؤتمر ببضعة أيام، أطلعت على الوثيقة وضقت بها ذراعًا. أتلقى هاتفًا من الصديق العزيز المناضل د. عبد العظيم أنيس، يدعونى فيه إلى إبداء الرأى فيها، وأن صحيفة (الأهالى) ترحب بذلك، ووعدته وحررت أول مقال صحفى تنشره لى الصحافة بعد عودتى بعنوان (أول السعى للتطوير إيقاف التردي). وتنشر (الأهالى) المقال مما شجعنى على الكتابة فى مختلف الصحف منذ ذلك الحين، كلما كان التعليق وإبداء الرأى واجبًا تقتضيه المسئولية العلمية والمهنية، والتى كان أولها سلسلة من المقالات بعنوان (فى المطبخ التعليمي).

واذكر أول مرة يظهر فيها اسمى فى الصحافة المصرية؛ حين كنت أعمل مع الأمم فى لقاء أثناء زيارة للقاهرة مع الكاتب الرصين والروائى المبدع أ. يوسف القعيد، حين نشر حوارى معه فى عددين من مجلة (الهلال) وقد ضاعا وربما أجدهما يوما ما.

وقد حفزنى الأستاذ رجب البنا حين كان مسئولًا عن صفحاته (آراء ومواقف) بالأهرام إلى مواصلة الكتابة فى الأهرام. وهو الذى أطلق على لقب (شيخ التربويين) وقد كنت بحق شيخهم بحساب الشهور والأعوام. وأذكر بالتقدير كذلك الكاتب والمثقف النقدى الأستاذ سامى خشبة، الذى أفسح لى مساحة فى صفحة (ثقافة). ومع إصابتى بحرفة الكتابة الصحفية تابعت الكتابة بين الحين والآخر فى صحف الوفد، والعربي، والأسبوع، والقاهرة.. انتهاءً بصحيفة الكرامة حديثة الظهور.

عرضت آرائى وانتقاداتى فيما أثير من إعادة التفكير فى المجانية، وفى قضية السنة السليبة من سنوات التعليم الابتدائى، وفى مخاطر الدروس الخصوصية، وفى التطوير المستقبلى للتعليم الجامعي وما قبل الجامعي، ولضوابط التعليم الخاص ومخاطره، وعلى هجمة الجامعات الأجنبية، وفى صخب موسم امتحانات الثانوية العامة، وفى سحابات التفكير الخرافى والجماعات الإسلامية فى الأنشطة الجامعية واختلاط الجنسين، وفى قصور ومفاسد اللجان العلمية الدائمة لترقية أعضاء هيئة التدريس بالجامعات، ولمفاهيم المشاركة المجتمعية، وتلكؤ مشروعات مكافحة الأمية، وفى نقد الملاحق الصحفية لنماذج امتحانات الثانوية العامة والشهادات الإعدادية، وفى غيرها من المشكلات العالقة فى أساليب التعليم والتعلم، والمبانى المدرسية ومحدوديتها. وكنت حريصًا دائمًا على اقتراح البدائل أو بيان التعقد، وكيفية المواقع الاستراتيجية لفك خيوط ذلك التعقيد.

كذلك لم يبخل على التليفزيون بمقابلات فى ماسبيرو، أو فى دارى حول سيرتى

الذاتية أو قضايا التربية والتعليم الساخنة؛ بمناسبة حصولى على بعض الجوائز التقديرية. وأخص بالذات حواراتى مع تلميذى المريد والشاعر المبدع، فاروق شوشة، فى عدد من أمسياته الثقافية. ولابد لى من الإشارة هنا إلى أن عدم اقتحامى للشاشة التليفزيونية رهبتى حتى اليوم خوفًا ورعبًا من أضواء كاميراتها الساطعة فى العيون. أما الاقتراب من الإذاعة السمعية فهو أقل رهبة ومشقة، ومن بين ما احتفظ به من تسجيلاتها شريطين من حديث مع المذيع القدير صاحب برنامج (شاهد على العصر) الأستاذ (عمر بطيشه).

النشاط الوطنى السياسى:

لقد كان معظم كتبى ومقالاتى تتمحور حول مجالات تستهدف بيان توجهاتى الوطنية القومية والسياسية، أذكر منها إشرافى على رسالة دكتوراه فى (التعليم العلمى والتكنولوجى فى إسرائيل لتلميذتى الدكتورة صفا محمود عبد العال، والعمل على نشر تلك الرسالة وتقديمها ضمن سلسلة (آفاق تربوية متجددة)، التى أمثل أحد مديرى تحريرها، كما قمت بنشر وتقديم كتابها المتفرد حول (تربية العنصرية فى المناهج الإسرائيلية) فى تلك السلسلة، وأشير أيضًا إلى تأليف كتابى بعنوان (ومن القدس يبدأ السلام) إلى غير ذلك من الكتابات السياسية حول أوضاع التعليم المتدنية فى الأراضى العربية المحتلة. هذا إلى جانب توضيح بعض التوجهات السياسية فى بعض الإجراءات والمناهج التربوية. وينطلق هذا الاهتمام بالشأن السياسى إيمانًا ووعيًا علميًا بأن التعليم عملية سياسية، كما أن السياسة عملية تعليمية.

كما أسهمته فى الحوارات التربوية والوطنية والقومية مما كانت تنظمه الجمعيات الأهلية ومنتديات المجتمع المدنى. وانتهى بى المطاف أخيرًا إلى الانضمام إلى لجنة التجمع الوطنى من أجل التحول الديمقراطى التى ترأسها السياسى القدير الحكيم

د.عزيز صدقى رئيس مجلس الوزراء الأسبق، من أجل الدعوة إلى استغلال الأحداث الانتخابية، التى أعلن السيد رئيس الجمهورية بدءها بقراره السماح للأحزاب بالتقدم للترشيح لمنصب الجمهورية؛ بدلًا من إجراء الاستفتاء العام على هذا المنصب، وقد كان ذلك فى نوفمبر عام ٢٠٠٥م. وقد وجدتها فرصة سانحة للانضمام إلى تجمع يحتضن أفكارًا مشتركة ديمقراطية، يحاول ترسيخها على أرض الواقع. وقد أدركت أنه مهما كان المثقف أو المفكر جاهدًا فى نشر أفكاره كفرد، فلن يكون لها من التأثير ما يمكن أن يتحقق من خلال نتيجة الانضمام إلى تنظيم ذى طابع سياسى. ومن ثم جاء انضمامى إلى هذه الجماعة الواعية المناضلة.

المشاركة فى المجال الاجتماعى:

لقد أتيح لى أن اختار أو انضم لعضوية عدد من المؤسسات الاجتماعية والثقافية، ومنها عضوية اللجنة الاستشارية الفنية للطفولة والأمومة برئاسة السيدة الفاضلة سوزان مبارك حرم السيد رئيس الجمهورية. وقد كنت ضمن اللجنة المصغرة للتفكير فى تنظيم وبرامج تلك اللجنة التى كانت ترأسها الزميلة الفاضلة د. هدى بدران بالمشاركة مع د. إسماعيل صبرى عبد الله، والدكتور حسين كامل بهاء الدين والدكتور عماد الدين إسماعيل، وباختصار تم تشكيل اللجنة من مجموعة من الأعلام المعنية بشئون الطفولة والأمومة.

وقد استمرَّ عملى التطوعى وحضورى لجلسات اللجنة، والتى كانت د. هدى مقررًا لها، والتى ظلت حوالى خمس سنوات ومع التغير فى أمانة اللجنة مع تعيين د. أمينة الجندى (التى أصبحت فيها بعد وزيرة للشئون الاجتماعية). تم إعادة تشكيل اللجنة بنفس بإعضائها السابقين، بالإضافة إلى عدد قليل من الأعضاء الجدد، وقد جرى الاستبعاد الوحيد لاسمى من التشكيل الجديد... ومازلت أتساءل حتى اليوم عن سبب هذا الاستبعاد... شىء محزن حقًا !!

ويحدث مثل هذا الاستبعاد أيضًا حين تم اختيارى عضوًا فى اللجنة العامة لاتحاد الجمعيات الأهلية برئاسة السيد عمر عبد الآخر الذى كان محافظًا للقاهرة. وتابعت بانتظام جلسات اللجنة، وأسهمت فى مؤتمرها الأول ببحث عن رؤية فى (تطوير التعليم ودور الجمعيات الأهلية فيه)، وعند إعادة تشكيل عضوية اللجنة سقط اسمى منه، ومازلت حتى اليوم أبحث أيضًا عن مبرر هذا الاستبعاد.. أمر يضاعف الحزن !!

واقتصر إسهامى فى الجمعيات على المشاركة فى تأسيس وعضوية مجلس إدارة (جمعية النهضة بالتعليم)، التى ترأسها الزميلة الفاضلة د. منى مكرم عبيد، ومازلت عضوًا فى مجلس إدارتها، رغم أن مشاغلى لم تتح لى من المشاركة فى أنشطتها العملية إلا بالقدر اليسير فى مجال الخدمات الاجتماعية، التى تقدمها الجمعيات الأهلية للمعاقين والفقراء دون تمييز.

كذلك اخترت عضوًا فى اللجنة الفنية لتحكيم جائزة القس الدكتور صموئيل حبيب، والتى تتولاها لجنة الخدمات الاجتماعية فى الهيئة القبطية الإنجيلية، وما أزال عضوًا فيها منذ أربع سنوات.

المشاركة فى النشاط الثقافى:

مجالات النشاط الثقافى التى خبرتها أو شاركت فيها عديدة حيث تبدو القاهرة والأقاليم مزدهرة فى مجالات الفكر والفن والأدب. وأشرف بمؤسستين مشاركًا فى أنشطتها، منها: المجمع العلمى المصرى (التراث المتبقى من أيام علماء الحملة الفرنسية) حيث يقيم شهريًّا محاضرات وحوارات فى موضوعات ثقافية وعلمية وتربوية وأدبية.

وأعتز كذلك بمشاركتى فى المواسم الثقافية للجان المجلس الأعلى للثقافة، وبعضوية لجنة التربية والتعليم، باستثناء تشكيلها الأخير الذى استقلت من

عضويته للتحيز والعلاقات الشخصية فى ذلك التشكيل. واعتز كذلك باختيارى مقررًا للجنة جوائز الدولة فى التفوق العلمي، على مدى السنوات الخمس الماضية.

كذلك شرفت باختيار وزارة الثقافة لرئاسة مؤتمر الأدباء والمثقفين فى صعيد مصر، الذى انعقد فى الأقصر برعاية رئيس المدينة، المثقف الفنان د. سمير فرج فى أواخر نوفمبر ٢٠٠٤م. وقد سعدت فيه بالتعرف على كثير من المثقفين ممن كنت ألتقى بهم فى مقالاته وكتبهم.

كذلك لا يغيب عن ذاكرتى اختيارى عضوًا على مدى السنوات الخمس الماضية فى لجنة المسابقات الثقافية، التى تقيمها إدارة الشئون المعنوية بالقوات المسلحة فى إطار الاحتفالات بعيد النصر والعبور فى أكتوبر ١٩٧٣م.

وقد احتفظت بها كانت قياداتها تقدمه لى من شهادة تقدير، عقب عشاء أنيق حاشد بعشرات من المفكرين والمثقفين والفنانين والصحفيين.

وهذه المواقع الثلاثة بالذات قد أثرت فكرى ووسعت من خبراتى وعلاقاتى مع المفكرين والمثقفين من أطياف الثقافة المتنوعة.

ومع هذه المواقع الخصبة تبدو مشاركتى فى رابطة التربية الحديثة قاتمة ومحبطة.. ولقد أصبحت فى مجلس إدارتها، الذى تشكل على علم منى قبل عودتى من الأمم المتحدة.

واختتم مجال المشاركة فى المجال الثقافى بدعوة من رئيس تحرير مجلة (العربي) الكويتية، د. سليمان إبراهيم العسكري، إلى الندوة التى أقامتها لموضوع (الثقافة العلمية واستشراف المستقبل العربي) فى الفترة من ٣-٥ ديسمبر ٢٠٠٥.

وقد شرفت بتقديم كلمة الضيوف المدعوين من العلماء والمثقفين من الأقطار

العربية. وقد أشار الأستاذ سامى خشبة فى صفحة (ثقافة) بالأهرام إلى هذه الكلمة، مقتطفًا منها فقرة من مقدمتها (تجيىء ندوتنا فى لحظة تاريخية، يحدونا الأمل فى تلمس طاقات من النور، ونحن نجتاز نفقًا معتمًا مضطربًا فى مسيرة شعوب هذا الوطن...

لقد اهتدت المجلة إلى موقع الضوء الذى نجمع عليه فى مساعينا ونضالنا، وصولًا إلى نهاية هذا النفق، والانطلاق نحو غد أفضل وأكمل وأعلم).



الحكاية السابعة عشرة
الشعور بالمسئولية والزواج

بر الوالدين أولا:

مع بداية تجمع بعض المدخرات لدى، فى نهاية العامين الأولين من عملى بمركز اليونسكو فى سرس الليان، عقدتُ النية على أن أرد لوالديَّ ولو رمزًا ضئيلًا مما ضحيا به خلال أكثر من ثلاثة عشر عامًا فى تعليمي، فاشتريت لوالدتى (كردانًا) ذهبيًّا تعويضًا عن كردان زواجها الذى باعته سدادًا لمصروفاتى الدراسية، كما قدمت لوالدى عام ١٩٥٤ مبلغًا مكّنه من شراء فدانين من أراضى أحد كبار الملاك الزراعيين من خارج القرية حيث انطبق عليه قانون الإصلاح الزراعى وتحديد الملكية، وأراد أن يتخلص مما يملكه من أفدنه فى قرية "سلوا". وأحدث هذان المشروعان بالذات طمأنينة ورضى نفسيًّا عميقًا لدي، متذكرًا قول الحق تبارك وتعالى: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما، وقل لهما قولًا كريمًا).

ثم التفكير فى الزواج:

ومع زيادة مرتبى عندما أصبحت رئيسًا لقسم التدريب بالمركز الدولى، بدأت أفكر فى الزواج والاستقرار فى سكن؛ حيث كانت إقامتى منذ أن عدت من البعثة بين البنسيون أو فى فندق فى شارع سليمان باشا أو فى شراكة مع بعض الزملاء، أو فى مساكن الخبراء بمركز سرس الليان. وتدخل لبنان فى الصورة لتستحثنى على الزواج، بعد أن فشل صديقى الكريم د. أحمد زكى صالح فى تعريفى بأسرة قاهرية، أثناء وجودى فى القاهرة خلال فترة عملى الميدانى أيام البعثة، لم يعجبها أننى لا أنتمى إلى عائلة لها اسمها المعروف. وأصابنى ذلك بالإحباط الشديد، وصرفنى ما كان يسود مصر والقاهرة بالذات من التمايز الطبقى، عن التفكير فى قضية الزواج.

وتأتى المصادفة حين استدعتنى الجامعة الأمريكية فى بيروت إلى إلقاء محاضرة ضمن برنامجها الثقافى التربوى فى موضوع التربية الأساسية عام ١٩٥٣، ودعتنى إلى منزلها بعد المحاضرة السيدة الفاضلة (مليحه فاخورى)، التى تعرفت عليها فى إحدى الحلقات الدراسية، التى كانت تنظمها الجامعة العربية فى إطار قضايا إصلاح المجتمع العربى. وفى تلكم المناسبة عرفتنى بفتاة وسيمة فارعة بنت أخيها، تعمل مساعد باحث فى قسم التربية بالجامعة الأمريكية، وفى السنة التالية ذهبت إلى بيروت فى مهمة اختيار المرشحين للالتحاق بمركز سرس الليان. وصدفة يتصل بى الأستاذ الكبير (أحمد طوقان)، والذى أصبح رئيس وزراء فى الأردن فيما بعد، ليوصينى بأحد المرشحين، ودعانى لحضور حفل يقيمه القسم التربوى فى الجامعة الأمريكية؛ احتفاءً به بعد أن ألقى محاضرة فى برنامجها الثقافى. وكان السيد طوقان شخصية عربية مرموقة، مرحًا عذب الحديث، فعرفنى فى تلك الليلة بنفس الفتاة التى التقيت بها من قبل فى بيت عمتها. وفى تقديمه لها أشار إلى أسرتها الكريمة المثقفة، فوالدها صلاح اللبابيدى مدير شرطة بيروت وشاعر معروف باسم بنته

(أبو ليلى) وعمها كان فنانًا توفى فى ريعان شبابه وهو (يحيى اللبابيدي)، ملحن أغنية (ياريتنى كنت طير لأطير حواليك) التى غناها فريد الأطرش.

ويبدو أن طوقان العربى الشهم أراد أن يوفق بين رأسين، ويبدو أن (سنارتى قد صادت)، وتمت الخطبة فى العام التالى فى بيت مرى صيف عام ١٩٥٥ حيث كانت أسرتها تصيف عادة فى هذه المدينة الجبلية. وعقد مراسم الخطبة قاضى بيروت (د. الرافعي)، وامتد حديثى معه ليسألنى عن حال ذلك الأستاذ الأزهرى (أظن اسمه د. خالد)، الذى أثار زوبعة فى الصحف بأن الصيام لمن لا يتحملونه يكتفى فيه بالفدية، إعمالًا للآية الكريمة (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين)، ويبدو أن هذا التأويل على إطلاقه لم يعجب بعض علماء الأزهر، فانهالوا على الشيخ (خالد) بالنقد والويل والثبور. وأذكر أن د. سعيد النجار الليبرالى الشجاع قد اقتحم تلك المعركة بمقال يؤيد فيه الشيخ خالد معارضًا علماء الأزهر فى هجومهم على الرجل.

واستأذنت الكلية فى السماح لى بأجازة أسبوع لعقد قرانى فى بيروت فى بداية العام الدراسى التالى. وفى ذلك الوقت يلغى البنك المركزى التعامل بأوراق النقد ذات الفئات الكبيرة وتزداد الحيرة، لاقتراض من بعض الأصدقاء بعض الدولارات لسداد بعض احتياجات الزواج. ويتم عقد القرآن فى حفل استقبال حاشد، أقيم فى فندق (البريستول) نوفمبر ١٩٥٥م، حضره رئيس الوزراء اللبنانى رشيد كرامى وجمع غفير من أهل العروس وأصدقاء العائلة وقفت مع العروس ووالدها ووالدتها وبعض الأقارب نستقبل المهنئين، ثم قطعنا الكعكة، بلا زمر ولا طبل ولا مشاعل، وقد ارتديت بدلتى السوداء التى أغرانى د.سلامة حماد بتفصيلها خارج نطاق الكوبونات عندما كنا فى لندن. ينتهى الأسبوع وأتجاوزه بيومين، فلا تتردد البيروقراطية الحريصة على تطبيق اللوائح دائمًا إلى إرسال برقية تذكرنى فيها الكلية بضرورة العودة.. التزمنا وعدنا، وكان عودًا حميدًا على أى حال.

بناء الدار فى مدينة نصر:

منذ عودتى من البعثة وزواجى عام ١٩٥٥م، استأجرت شقة فى عمارة جديدة بمصر الجديدة، وفى عام ١٩٦١م بدأ إصلاح صحراء مدينة نصر حاليا، وتقسيم أراضيها وعرضها للبيع، وكان البدء بأراضى المنطقة الثانية حاليًا، والمنطقة كلها صحراء جرداء، وعرضت تقسيمات أرضها بأرقامها للتملك على أساس القرعة. وقد شجعنى رفيق العمر د.رشدى خاطر على المغامرة بالدخول فى تلك القرعة، فاخترت ثلاث قطع، كل قطعة برسم عشرة جنيهات، كما اختار هو ثلاث، وبعد شهرين "يضرب" معى الحظ لتخرج أرقامى الثلاثة من نصيبى، وتخرج له قطعة واحدة. وكان من شروط التمليك دفع مقدم (٣٠٠) جنيه، وتقسيط الباقى دون فوائد على مدى ثلاثين عامًا.

اخترت قطعة واحدة، وقدرت أن إمكاناتى المالية ومدخراتى من عملى فى سرس الليان قد تمكننى من إكمال عملية البناء والتجهيز لها. واحترت فيما أصنع بالقطعتين الأخرتين، عرضتهما للتنازل عنهما لزملائى فى كلية التربية، وكانت استجابة الجميع بأن لا أحد يرغب فى هذه المنطقة الصحراوية البعيدة. ولما عيل صبرى فى إيجاد صديق لتملك هاتين القطعتين، كتبت طلبا إلى المدير العام لمؤسسة الإسكان والتعمير بمدينة نصر لأتنازل للمؤسسة عنهما، واسترداد مبلغ العشرين جنيها الذى دفعته تأمينًا لإجراء القرعة. لقد سررت باسترداد هذا المبلغ. واليوم تقوم على هاتين القطعتين عمارتان شاهقتان من عشر طوابق فى كل منها.. لقد كان ثمن المتر حين وقعت لى القرعة (٥) خمسة جنيهات، واليوم كما قيل لى يتجاوز ثمنه ألف جنيه. وبهذا التضخم فى ثمن الأرض يمكن اتخاذه مؤشرًا لتضخم الأسعار أى إن قيمة أسعار حاجيات الحياة والخدمات الأساسية قد ارتفعت (٢٠٠) مثل ما بين أوائل الستينيات فى القرن الماضى وأوائل القرن الحادى والعشرين عام ٢٠٠٥م، وبحساب الزيادة فى مرتبى ما بين طرفى هاتين الفترتين، فإن الزيادة لا تتجاوز فى أحسن التقديرات أكثر من (١٢) مرة.

وبعيدًا عن الحسابات تعرفت على مهندس معمارى شاب عائد حديثًا من بعثة فى الولايات المتحدة التقيت به فى زيارته لمركز سرس الليان، فعرضت عليه وضع تصميم لبناء دار (فيلا) من طابقين، قدم لى ثلاثة نماذج لم يعجبنى إلا أبسطها، وكان إحداها محاولة لاستخدام شكل المكعبات السداسية فى الهندسة الإسلامية فى كل الحجرات، فكانت سخرية بعض التقليديين من أصدقائى من أننى سأنام فى هذا البيت وسامشى (بالورب) وليس فى خطوط مستقيمة. وعلى أى حال شرع ذلك المهندس الشاب (د. أبو زيد راجح)، والذى غدا من أشهر المعماريين فى مصر، فى متابعة بناء هذه الدار التى أطلقت عليها (هذه دار حامد عمار).

وأوكل تنفيذها إلى مهندس شاب هو (المهندس حسين صبور)، وهو الآن من أشهر البنائين فى عمران مصر. واشهد أن كلًا منهما قد بذل قصارى فنه وجهده فى إنجاز مهامه؛ بيد أن احتياجات البناء من الأسمنت والحديد كانت خاضعة لعمليات التقنين ومرتبطة بمدى التقدم فى الإنشاء. وأذكر أن (م. حسين صبور) قد أوكل عمليات أعمدة قاعدة الأساس الخرسانية لمهندس آخر، ولما لم تعجبه لما فيها من فجوات وغير متماسكة، كلفه بهدمها جميعًا، وإعادة إرسائها من جديد، دون أن يحملنى أى تكلفة إضافية. كما لم يكلفنى استخراج ترخيص البناء والحصول تعيينات التموين من الحديد والأسمنت ما تجرى به العادة اليوم من دفع إكراميات (رشاوى) فى الحصول، على المستحق منها. كما أعتز أيضًا بأن معظم احتياجات الدار كانت مصرية محلية، ومع محدودية الموارد اللازمة لمختلف العمليات ومواد البناء استمر تشييد هذه الدار حوالى خمس سنوات، ولم نسكنها إلا حوالى ثلاثة أشهر قبل أن نغادر القاهرة إلى بيروت للعمل فى الأمم المتحدة، وقد تبقى علىَّ دين للمهندس صبور من تكاليف البناء قمت بسداده بمجرد ما تيسر لى الحال، بعد الالتحاق بمكتب تلك الهيئة الدولية، ولم أسع إلى تأجيرها على اعتبار أنى عائد بعد سنة هى مدة عقدى مع الأمم المتحدة.

لقد كانت مصر تبنى فى تلك الحقبة من الستينيات نفسها بنفسها، ومن

مواردها ومصانعها. وكان أصحاب المهن من أطباء ومهندسين ومعلمين وأساتذة جامعات، يحترمون مهنهم ويتسمون بأخلاقياتها والتزاماتها فى الأداء... وما أبعد الشقة بين من كانوا يحترمون مهنهم إذ ذاك، ومن يلهثون وراء الكسب السريع والفاحش فى هذه الأيام!! ومعذرة عن تعليقاتى المتشائمة فى المفارقات بين ما كان وما يكون.

بيد أنه بعد أن استطالت فترة بقائى فى بيروت، وكان أخى قد انتدب للعمل فى مكتبة مقر اتحاد الجمهوريات العربية الذى تكون من مصر وسوريا وليبيا، قام بتأجير الدار لأحد كبار الموظفين الليبيين فى الاتحاد وأسرته الكبيرة. لكنه مع الأسف لم يقم بصيانتها، بل إنه قبل سنة من عودتى إلى القاهرة طلب أخى منه أن يبحث له عن سكن آخر، فماطل وتراذل فى الاستجابة لطلبنا. ولما اضطر إلى ترك الدار.. قام بتكسير الأثاث وتمزيق المراتب وعبث أطفاله كتابة على الجدران وتشويهها.

واضطرت عام ١٩٨٦م إلى العمل على إصلاح وتطوير ما خربه، وأتذكر أن تكلفة ذلك قد تجاوزت ضعف التكلفة الأصلية لبناء الدار وتجهيزها، والتى استغرق بناؤها فترة امتدت من ١٩٦٤م إلى عام ١٩٦٨م.

ولعل النزوع التاريخى لتخصصى الأصلى قد جعلنى أتصور أن بناء هذه الدار يوحى من الخارج بخطوطه المستقيمة، على أنه ذو طابع أقرب إلى المبانى الإغريقية القديمة، وأن ما بداخلها عربى الأثاث والتزين، ويبدو أن نشأتى الريفية قد جعلتنى أعنى بما يحيط بالمبنى من حديقة، وكنت دائمًا أتصور أن العناية بالزرع كالعناية بتربية النشء، فحين تبذر البذور وتغرس الأشجار وتغذيها بالماء والسماد والتقليم تأخذ فى النمو، وتصيبها الآفات فترشها بالمبيد مما يحاول الاعتداء عليها من الحشرات والنمل والبق. كذلك شأن النمو فى التعليم، وكثيرًا ما كنت أفضل من مجازات اللغة التربوية استخدام زراعة التعليم بدلًا من صناعة التعليم للتشابه

الحيوى بين تربية النشء ومطالب نموه ورعايته، والعمليات الزراعية، مفضلًا ذلك عن العمليات الميكانيكية فى الصناعة.

ولعل من أكبر مشكلات بيتى الحالى ما يزدحم به الطابقان الأرضى والعلوى من الكتب والمجلات، والتى أنوى كل عام تنظيمها، ولا أفلح فى ذلك، ولم يعد أى موقع مسطح فى الدورين إلا وعليه أكوام من كتب قديمة وحديثة وجديدة عربية وإنجليزية، فهل من مساعد يجعل فيها قدرًا من النظام؟



الحكاية الثامنة عشرة
فلذات الأكباد ومسيرة تعليمهم

من القاهرة إلى بيروت:

منذ أن تزوجت، رزقت عام ١٩٥٦ بوليد سميته (مصطفى) تيمنا باسم والدي، وتوأم عام ١٩٥٨اسم إحداهما (سلوى) مقاربًا لاسم قريتي، والثانية أسماها جدها اللبناني (نوال)، اعتقادًا منه بأنه اسم مصرى صميم حين كانت أغنية محمد عبد الوهاب (يا نوال فين عيونك) سائدة إذ ذاك.. ومنذ ذلك التاريخ كنا نتردد على زيارة أهل زوجتى فى بيروت، خلال عطلة الصيف حتى توفى والدها.

ولقد كان حب الجد لأول أحفاده شديدًا عميقًا، ونظم عند ولادته أبيات شعر عنوانها:

تاريخ الحبيب مصطفى حامد عمار
جعله الله من طوال الأعمار

أتت نعمة الخلّاق تروى قلوبنا ... بينبوع تَحْنانِ حبيب الموارِدِ
فيا مصطفى يا فرحةً فى ديارنا ... ويا درةً فاقت كرامَ القلائدِ

رأينـا بـه سرَّ الخليقة ينجلــى	كـما يـنجلى الـرحمن فى روح عابـد
فتـى عبقـرى الحسن مـن قَسَماتِهِ	تلـوح أسـاريرُ النُّهى والمحامـد
ستُرضِعـه الأم الـرءوم صفـاتها	صـفات روى عنهـا شُـعاع الفـراقِدِ
ويُنْشِئهُ فى روضة المجـد والعـلا	على العلم والأخـلاق...أكـرم والـد
وفى الفرحة الكبرى بتاريخ مصطفى	نظمـنـا تهانيـنـا للـيـلى وحامـد

٢٩٩ + ١٠٤١ + ٥١٧ + ١١٠ + ٥٩ = ١٩٥٦

وهذه الكلمات المرقمة لعجز البيت الأخير على أساس ما يعرف بحساب الجُمَّل، يصل مجموعها إلى ١٩٥٦، وهى سنة ميلاد مصطفى.

أما التوأم فقد لقيتا من جدتهما ومن بقية أفراد الأسرة كل رعاية وتدليل.. وقد أزاح ذلك كله عبئًا ثقيلًا كنت أحمل همه، لا تفرغ لعملى الجديد مستشارًا إقليميا للأمم المتحدة فى التنمية البشرية. ومع ذلك كان إلحاق أطفالى بالمدارس اللبنانية من أوائل مشاغلى، فتمكنا من وجود مكان لمصطفى فى مدرسة تناسب مستواه، الذى بلغه بعد نجاحه فى السنة الأولى الإعدادية من مدرسة الطبرى بمصر الجديدة. أما التوأم فقد التحقتا بمدرسة ابتدائية بمستوى الصف الثالث الابتدائى، بعد أن اجتازتا امتحان الصف الثانى فى المدرسة القومية المشتركة فى مصر الجديدة.

وانتظم الثلاثة فى مدرستيهما، ولم يجدوا صعوبة فى التكيف والانتظام فى الدراسة سوى مصطفى الذى وجد نفسه ضائعًا فى دروس اللغة الإنجليزية؛ حيث كان طلاب مدرسته قد بدأوا تعلمها منذ سنتين. لذلك اتصلت بمدرس اللغة الإنجليزية ليعطيه دروسًا خاصة تمكنه من اللحاق بزملائه. وقد قبل المدرس هذه المهمة، وبعد ثلاثة دروس اعتذر عن الوفاء بما وعد، فلما ذهبت إليه للاستفسار عن السبب أفادنى بأن هذا الفتى يتميز بقدرة فائقة على الفهم والتذكر، وأنه مطمئن إلى أنه سوف يلحق بزملائه مع نهاية الفصل الدراسى الأول. حاولت أن أثنيه عن اعتذاره، ولكنه أصر على أن مثل هذا الفتى لا ينبغى أن يعتاد الدروس الخصوصية،

وأن لديه من القدرات التى تمكنه من تعويض ما فاته. شكرته ومع ذلك حرصت صبيحة كل يوم قبل ذهابه إلى المدرسة على أن أقرأ معه الكتاب المقرر (مزرعة الحيوانات Animal Farm)، وقد استطاع فى نهاية الفصل الأول أن يقفز فعلًا من الحصول على ٣ درجات إلى ٨ درجات فى آخر امتحاناته الفترية، وبعدها تركته معتمدًا على نفسه ومتفوقًا فى جميع مواده الدراسية.

أذكر هذه الحكاية بالذات لأبين الفرق بين هذا المدرس اللبنانى ومدرسى الدروس الخصوصية، الذين جعلوا طلابنا اليوم من مدمنيها حتى منذ الصف الأول الابتدائي!!

وما دمنا فى سيرة النشء فقد كان الثلاثة الأعزاء يتعلمون فى مقررات المدارس اللبنانية، ويلتحقون بفصول الدراسة أيام السبت والأحد فى الفصول الدراسية التى نظمتها السفارة لدراسة المقررات المصرية. كذلك كانوا يجلسون للامتحانات المصرية فى مبنى السفارة المصرية مع أبناء الأساتذة المصريين، الذين يعملون فى الجامعة العربية فى بيروت، والتى تعتبر فرعًا من فروع جامعة الإسكندرية حتى اليوم.

مصطفى/دراساته وعمله فى الخارج:

وقد أكمل مصطفى (O level فى شهادة GCE)، وتقدم للالتحاق بالجامعة الأمريكية فى بيروت، كما تقدم عن طريق مكتب التنسيق فى مصر، فقبلته كلية الهندسة جامعة القاهرة. لكن كان ذهابه إلى القاهرة مشكلة تؤدى إلى توزع الأسرة بينها وبين بيروت، إلى جانب صعوبات تنظيم أمور معاشه وحياته، لو التحق ببيت الطلبة، وقرنا استمراره للحصول على الشهادة الإنجليزية (A level).

بيد أنه قبل ظهور نتائج هذه الشهادة جاءنى راجيًا أن أعطيه (٣٠) دولارًا، ولما سألته فيم تريد أن تنفقها تردد قليلًا، وقال أريد أن أدفعها للجامعة الأمريكية للحصول على استمارات تقديم إلى الالتحاق بالجامعات الأمريكية. فأعطيته ما

طلب، وتقدم لامتحان SAT، ولامتحان JE فى اللغة والفيزياء، والكيمياء، والرياضيات كما أتذكر. وبعد الامتحان ذهبت إلى مكتب بالجامعة لإبداء الرغبات فى اختيار الجامعة التى يريد الالتحاق بها. ونصحنا المسئول عن ذلك المكتب باختيار ثلاث جامعات على الأقل، والتى ستحال إليها نتائج امتحانات القبول. ولما كنت غير متحمس لإلحاقه بجامعة فى أمريكا نظرًا لتكاليفها الباهظة، فقد اخترت له جامعة واحدة هى MIT أشهر معهد تكنولوجى فى أمريكا، ولا يقبل إلا أعدادًا محدودة من قمم المتفوقين فى نتائج شهادة الثانوية وفى امتحانات القبول، ووعدته بأنه لو قبل فى هذا المعهد، سوف أوافق على إلحاقه به.

تظهر نتائج GCE (A) وتأتى تقديراته فى المواد التى اختارها (A)، وهذه خطوة فرحنا بها جميعًا. وتأخرت نتائج امتحانات القبول قليلًا لتأتى أول نتائجها فى اللغة الإنجليزية، فلما اطلعت عليها كان تقديرها ٥٠٪ من الدرجة النهائية، وقلت (بركة ياجامع) لقد أغلق باب الجامعات الأمريكية.

يعود مصطفى مساء ذلك اليوم من السينما لأقدم له بطاقة النتيجة، فيذهل ويعود إلى غرفته ومعه تلك البطاقة، يحقق فى اسم صاحبها. وفى رقم امتحانه، ليخبرنا بأن هذه ليست نتيجته، وإنما هى نتيجة طالب يونانى. ولما لم اتفحص الاسم أو الرقم على اعتبار أن الكمبيوتر لا يخطئ وأن الأمريكان أهل دقة وتدقيق، بادر الشاب على التوّ بتحرير برقية إلى هيئة الامتحانات الأمريكية، يحيطهم علمًا بالخطأ الذى وقعوا فيه، فلم يمض عشرة أيام حتى جاءنا الرد بنتيجة الدرجة الصحيحة التى أحرزها، والتى كانت ٩٠٪ وتتابعت نتائج الامتحانات الأخرى بدرجات تتراوح ما بين ٩٢٪، ٩٥٪. وبعدها بأسبوع يأتى قبول MIT للالتحاق به، شرط تقديم ضمانات مالية بالقدرة على دفع المصروفات وتكاليف الإقامة. ووفيت بوعدى، مؤمنًا بأن التعليم هو أكثر الاستثمارات عائدًا إنسانيًا، وعائدًا ماديًا فى المستقبل، ويستحق كل التضحيات.

يتابع الشاب(مصطفى) دراسته فى معهد MIT، مشيرًا فى خطاباته على ما يجرى من تنافس شديد للسبق فى الدرجات بين الطلاب، وإلى ما يتطلبه ذلك من جهد جهيد، ويحصل على درجة البكالوريوس فى علوم الحاسبات والهندسة الكهربائية. وفى خلال العطلة الصيفية لذلك العام يختاره أحد أساتذته ليكون مساعدًا له فى استشاره هندسية، سيقوم بها فى الرياض بالسعودية أخذ مصطفى مكافأته فى نهاية المدة، وأصبح لديه رأسمال قدره (٥) الآف دولار، ليشترى بها سيارة عند عودته إلى بوسطن لمتابعة دراسة الماجستير. ويعينه المعهد مشرفًا أكاديميًا على قسم من بيت طلبة البكالوريوس، وقد اعفاه من المصروفات، وزوده ببطاقات لوجبات الطعام.

وخلال سنتى الماجستير نشر بالاشتراك مع أستاذه المشرف بحثين: أحدهما يأتى اسم الأستاذ أولًا واسم مصطفى بعده كباحثين فى هذه الدراسة، أما فى البحث الآخر يتقدم اسم مصطفى على اسم الأستاذ. فلما سألته كيف يوضع اسمك قبل الأستاذ، فأفادنى بأن الاسم الأول يكون دائمًا لصاحب الفكرة الأساسية والذى قدمها لمتابعة بحثها، وحيث إنه كان صاحب الفكرة الأساسية فى البحث الثانى وضع اسمه أولًا. وذلك هو أحد التقاليد العلمية الجامعية فى البحوث بصرف النظر عن المرتبة العلمية الوظيفية لأى منها، وأتوقف لأتأمل هذا الالتزام بأخلاقيات البحث العلمي. مقارنًا بأحوالنا !! معذرة مرة قبل الأخيرة للمقارنات.

وبعد حصوله على درجة الماجستير جئنا فى إجازة صيفية إلى القاهرة، وأردت أن أسجله فى نقابة المهندسين بمصر. وأفادت النقابة بأنه لابد من أن يحصل على معادلة شهاداته بالشهادات المصرية. ذهبنا إلى مكتب البعثات لنستفسر عن الإجراءات المطلوبة، فأفادنا المسئول بأن المجلس الأعلى للجامعات هو الذى يقوم بمثل هذه المهمات. وسألنى هل كان مبعوثًا حكوميًا أم تحت إشراف البعثات. وقد وضعت اسمه فعلًا تحت الإشراف الذى لم يره ولم يسمع عنه، وأخذته إلى مكتب الموظفة

المسئولة عن هذا الشأن. وطلبت منه إفادتها عن الجامعة التى كان يدرس فيها، فأفادها بأنه معهد ماساتشوست التكنولوجي، فما كان منها إلا أن تعلق شفاهًا عليه (يا ابنى تاعب والدك كى تدرس فى معهد فى أمريكا... عندنا معهد تكنولوجى فى القاهرة يلتحق به من لم تسمح مجاميعهم بالالتحاق فى كليات الهندسة) ولما أدرك مدى معرفتها كان رده الساخر (أعمل إيه أنا ياستي، عمرى ما كنت شاطر وهذا نصيبي) تحققت السيدة من وضعه تحت الإشراف.

وعدنا إلى مدير البعثات، وفتح دفاتره ليرى عما إذا كان قد اعتمد المجلس الأعلى للجامعات شهادة الماجستير من MIT من قبل، فلم يعثر إلا على حالات قليلة من الحاصلين على الدكتوراه. وعندئذ نصحنا بأنه لكى نقدم طلب اعتماد شهادته، عليه أن يقدم لنا شهادة من المعهد بأسماء المقررات التى درسها خلال الأربع سنوات فى البكالوريوس ونسخة من الرسالة، لكى يتم فحصها وتحديد مستوياتها بالنسبة لطلاب الماجستير فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة.

وعلى الفور غمزنى ابنى بيده فى رجلي، ونهض بحركة عصبية، شاكرًا للمدير معلوماته، وأنه سوف يحاول استيفاء البيانات المطلوبة من الجامعة. قمت معه وكررت شكرى للمدير، وانصرفنا. وقد عقد العزم على أنه لن يتعامل مع المؤسسات المصرية أو جامعاتها فيما بعد... وهكذا أفشلت البيروقراطية محاولاتى لإغرائه بالعمل فى مصر.

قصة مصطفى طويلة مفرحة ومصدر لاعتزاز والديه.. وقبل امتحانه العسير فى الماجستير، يتخطفه أحد القناصين من شركة (بل) للاتصالات ليوقع معها عقدًا للعمل فى مكتب بحوثها فى أوتاوا عاصمة كندا. وكان يقوم هناك ببحث جماعى مع فريق الباحثين بالمركز إلى جانب بحث منفرد. ولم يكن فى المركز مواعيد للحضور، وإنما كان مفتوحًا نهارًا وليلًا لفرق الباحثين.. لكنهم جميعا كانوا ملتزمين بحدود زمنية لإنجاز مهامهم أو بتقديم مذكرة توضح سبب التأخير وتحديد موعد محدد

آخر. اطمأن الابن إلى عمله ومعيشته فى اوتاوا خصوصًا، بعد أن رقى فى أواسط سنته الثانية إلى باحث أول، وهى خطوة تالية؛ لكى يصبح رئيس فريق ثم مديرًا للمشروعات وهذا هو طريق مستقبله الذى يريده.

لكننى لم أكن مستريحًا لذلك؛ خصوصًا وأن التوأم على وشك إنهاء دراسة الماجستير وعزمها على مواصلة الدراسة لدرجة الدكتوراه. حاولت إغراءه لترك المركز والالتحاق بجامعة كندية للحصول على الدكتوراه... وبعد محاولات عدة استجاب لرغبتي، شريطة ألا يحملنى أى تكلفة فى تعليمه. تقدم بطلب الالتحاق بجامعة ووترلو، وهى من بين أحسن الجامعات فى الدراسات التكنولوجية وفى تكنولوجيا الحاسبات والاتصالات بالذات، ثم تقدم بطلب إلى المجلس الوطنى للبحوث والدراسات العلمية فى كندا يطلب معونة لدراسة الدكتوراه فى تلك الجامعة. تقبله الجامعة، وتمنحه (٥) آلاف دولار شهريا نظير مشاركته فى التدريس، ويقدم له المجلس الوطنى الكندي(١٠)ألف دولار شهريًا لمساعدته حتى حصوله على الدكتوراه.

وحين قام بلقاء مدير مركز شركة (بل) الذى يعمل فيه، معلنًا إنهاء عمله بالمركز شكره المدير على جهوده، وأرسل له بعد أسبوع خطابًا يحيطه علمًا بأن مجلس أمناء المركز قرر منحه (١٠) ألف دولار شهريًا غير مشروطة بعودته إلى المركز بعد حصوله على الدكتوراه. عندها قوى عزمه على دراسة الدكتوراه؛ لأنه حصل على معونات دراسية تكفل له الاعتماد على نفسه خلال دراسته وبنفس مرتبه أثناء العمل.

مرة أخرى أعتذر عن الإطالة فى سرد قصة ابني، وإنما أردت من خلالها أن أبين الفرق الشاسع بين ما يتعرض له الباحثون عندنا من إحباطات وبيروقراطيات وإهدار للوقت، وهذا التشجيع السخى للمتفوقين ورعايتهم، وتحقيق طموحاتهم مع مساحات واسعة للحرية فى مجال البحوث، ودون شروط أو قيود فى الخارج (وأقر بأن هذا سوف يكون آخر مقارنة).

وبعد حصوله على الدكتوراه، تقدم بطلبات للالتحاق بجامعات أمريكية اختار من بينها المعهد الذى يدرِّس فيه حاليًا (معهد جورجيا التكنولوجي) GIT فى مدينة اتلانتا عاصمة ولاية جورجيا. ويتابع اجتهاده وتفوقه ليترقى فى السلك الجامعى ليصل إلى درجة الأستاذية منذ خمسة أعوام مضت، ثم ليرقى إلى درجة أعلى والمعروفة بدرجة أستاذ الريجنت Regent Professor، وهى شهادة يمنحها مجلس جامعات الولاية (مقابل المجلس الأعلى للجامعات عندنا) للمتميزين من الأساتذة. وكم طالبنا هنا بإنشاء كرسى الأستاذ المتميز فى جامعتنا المصرية بعد درجة الأستاذية، حتى لا يركن كثير من حامليها إلى الاسترخاء، بل وهجران النمو المعرفى وممارسة البحث فى غير قليل من الحالات. وفى العام الماضى يحصل على مكافأة (١٠) آلاف دولار مناصفة مع أستاذ من أصل صينى لتميزهما فى الإشراف على الرسائل الجامعية.

التوأم سلوى ونوال والدراسة فى الخارج:

لست أدرى كيف ورثنا جينات التوأمة، فليس فى عائلتى توءم، ولم تشهد عائلة زوجتى إلا توأمًا لإحدى عماتها، وربما امتدت جيناتها عبر هذه القرابة لتنوء بحملها زوجتى. سعدنا بولادتها سالمتين بأوزان معقولة، ونمتا بصورة طبيعية، لكنهما لم يكونا توأمًا متطابقًا، بل تجلى الاختلاف بينهما عندما كبرا. إحداهما سلوى هادئة رزينة انطوائية والأخرى نوال لا تكل من الحركة والنشاط والشقاوة والتمرد. تعلما مع أخيهما فى مدارس التعليم العام نفسها فى القاهرة، وافترقا عنه فترة فى لبنان أول سنة ليشتركا معه فى مدرسة برمانه فى الجبل بالقسم الداخلى بعد ذلك.

وعندما حصلا على شهادة GCE (A)، كانت سلوى الهادئة تتخصص فى الدراسات الرياضية والعلوم، بينما نوال الحركية فى قسم الآداب فى التاريخ والاقتصاد. ويقدمان للالتحاق بالجامعات البريطانية حسب النظام السائد فى التوزيع من اختيار الجامعات للطلاب؛ فالتحقت سلوى بجامعة ساتنفورد فى

مانشستر للتخصص فى الهندسة الإلكترونية، والتحقت نوال بجامعة إيست إنجليا للتخصص فى علم الاجتماع. وكانت هذه أول فترة ينفصلان فيهـا عـن بعضهما.

بيـد أن نوال لم تقنع بذلك. وفـى زيـارة لأختهـا فى مانشستـر سعـت إلى مقابلـة رئيـس قسم الاجتماع فى جامعة أختها، وعرضت عليه ما أدعته مما تعانيـه فـى إيست إنجليا عن مصاعب صحية نظرًا لشدة رطوبة الجو فيها، كما أنهـا تشعـر بالغربة ووحشتها وبالوحدة بعد انفصالها من أختها التـوأم لأول مـرة. أشـفق عليهـا الأستـاذ، ووعدها إذا ما نجحت فى كل امتحاناتها فى إيست إنجليا فسوف يقبلها للالتحاق بقسم الاجتماع فى جامعة أختها. وصممت واجتهدت بصورة غير مسبوقـة لتنجح، وقد كان، وسكنت مع أختها فى بيت الطالبات فى الجامعة ثم فى شقة صغيرة فيما بعد.

ومنذ تلك الفترة انطلقت نوال التى لم تبال بالتفوق فى الدراسة من قبل على بذل الجهد وتذوق حلاوة المعرفة لتشق طريقها بنجاح حتى حصولها على البكالوريوس من تلك الجامعة. وواصل التوأم دراسته للماجستير فى جامعة ساتنفورد. ومن طريف ما يمكن قوله أن تكلفة تعليمهما معًا فى إنجلترا كانت تعادل تكلفة تعليم مصطفى فى أمريكا.. وهكذا أصبح للذكر تكلفة الاثنتين.

ورأيت أنه من المفيد لهما أن يخبرا نوع التعليم الأمريكى فقبلت نوال فى جامعة Florida State University فى تلهاسى عاصمة ولاية فلوريدا، وسلوى فى جامعة فلوريدا Florida University فى مدينة جينزفيل، فى الولاية نفسها لكن الانفصال ظل مزعجًا لنوال فقامت بالسعى نفسه، الذى قامت به فى إنجلترا لتنجح فى الانتقال إلى جامعة أختها وليعيشا معًا فى شقة واحد فى مدينة جينزفيل.

ومما تتميز به الجامعات الأمريكية من مرونة ما صادف سلوى من تخصص فى الهندسة الإلكترونية فى درجة البكالوريوس، ثم الانتقال إلى الهندسة الصناعية فى الماجستير، انتهاءً بالعلوم الإدارية فى درجة الدكتوراه Management Sciences،

يقف على رجليه ليستوى بعد أيام واقفًا مبرطعًا حول أمه، ترضعه وتلعق جسده بحنانها وحمايتها.

وما أزال حتى اليوم مسحورًا بانفلاق الحبة فى حديقتى الصغيرة، وبصغار القطط وهى تلتف حول أمها تتبعها أينما ذهبت.. أقول إننى ربما قد تماهيت مع ظاهرة النمو الطبيعية وشروطها فى مسيرة حياتى: تربة أسرية صالحة وقابلة بخيالها لمجالات توفير شروط النماء كلما استطاعت إلى ذلك سبيلًا. ومعها تولدت لدى الرغبة الملحة فى النماء، مع حفزها وتضحياتها التى تظل بداخلى وأمامى تستحث طاقات المثابرة والمقاومة والتميز؛ حتى لا يخيب رجائى ورجاء أهلى فى حصادها المأمول.

ومع هذه الرغبة الملحة فى النماء أخذت طاقاتى الفكرية وخبراتى الحياتية عامرة بالتفتح والتغذية فى مراحل متدرجة، تكاد تلتقى مع تطور الحضارة الإنسانية فى ارتقائها.. ارتقيت مما يشبه الحياة البدائية المغلقة بثقافتها وقبليتها وعنادها، إلى حياة العمران الحضرى فى مدنه الصغيرة فالكبيرة فالأكبر، ومن أجوائها إلى آفاق ثقافية مغايرة إلى حد كبير، وصولًا فى نهاية المطاف إلى مستويات التعامل على الصعيد العالمى والدولى.

ومع ذلك كله تراكمت وتفاعلت الأفكار والمعانى والقيم حول الضفيرة الحياتية، بين جديد مبهر، وقديم يتلاشى بعضه، وينحسر بعضه الآخر فى الظل، كامنًا أحيانا ونشيطًا فى أحيان أكثر، وغدا فكرى صنيعة ثقافات متعددة، كما حاول جاهدًا أن يكون فاعلًا صانعًا فيها.

كذلك شهدت مسيرتى الحياتية، لحظات تاريخية مفصلية فى الفكر والنظم المجتمعية فى مصر وفى الخارج، فكل عصر جديد يولِّد معرفة جديدة. ومن بين تلك اللحظات الحاسمة، حين يصبح عمل العقل صناعة المعرفة الجديدة والمتجددة، فترة

التحاقى بالجامعة فى أواخر الثلاثينيات امتدادًا لنهاية الحرب العالمية الثانية. ومن هنا انطلق العقل من الجمود والمسلمات والحفظ والالتزام بالنصوص إلى السياحة فى حرية التفكير والتأثر ببدايات الحركة الليبرالية، ومفاهيم الوطنية والاستقلال، وكتابات الأساتذة والمفكرين العظام.

وتأتى الصدمة الثقافية فى الذهاب إلى إنجلترا والحياة فى جامعة لندن، وكانت السنوات الخمس التى قضيتها فيها أعنف وأقوى المؤثرات الثقافية والحضارية، تأملًا وتجربة وانطلاقًا. وكانت أقطار العالم كله، وإنجلترا بالذات، تدخل عصرًا جديدًا يولِّد قيمًا جديدة ومعرفة فى مختلف ميادين المعرفة، ومنها الفكر التربوي؛ خاصة فى إطار الاشتراكية التى أشاعها تولى حزب العمال مقاليد الحكم فى بريطانيا إذ ذاك، بعد حزب المحافظين بزعامة ونستون تشرشل.

وفى مصر أعود لألتقى مع ثورة يوليو ١٩٥٢ بتغيراتها الراديكالية وحروبها مع الاستعمار والصهيونية، وما تمخضت عنه من تطلع لبناء مجتمع اشتراكى جديد. وأعقبها تحول رأسمالي، وانفتاح نحو السوق، وتسيُّد القطاع الخاص، إلى غير ذلك مما هو معلوم. ومع التحول السوقى تقوم قائمة العولمة وما صاحبها - سببًا ونتيجة - من ثورات علمية وتكنولوجية وسياسية ومعلوماتية واتصالية وتربوية. ومن معالم هذه اللحظة التاريخية إلى جانب تيارات العولمة، بروز هيمنة القطب الواحد على مصائر العالم والتحكم فيه وفق مصالحه، بعد انهيار إمبراطورية الاتحاد السوفيتى وصعود الإمبراطورية الأمريكية وجبروتها العسكرى والسياسي، ودعاواها فى نشر الديمقراطية وحقوق الإنسان– دون الشعوب – ومكافحة الإرهاب بالإرهاب والغزو العسكري.

وبهذه التفاعلات ودوافع التوثب الفكرية وما واجهتها من أحداث وما صاغتها من استجابات مع مجمل التيارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية تشكل

فكري، متماسكًا أحيانا، ومضطربًا أحيانا أخرى، متبلورًا أحيانًا، وغائبًا فى أحيان غير قليلة. لكنه كان وسيظل مشتبكًا مع الواقع الوطنى والقومى العربى فى خضم المتغيرات العالمية.

وسوف أشير فيما يلي إلى بعض ما تجسد فى إنتاجى العلمي من تلك السياقات التاريخية التى أشرت إليها.

من سمات الفكر والإنتاج:

إن صفة الاشتباك مع الواقع من خلال معايشته، تكاد أن تكون هى اللحن المميز فى تقديرى للتربية وللعلوم الاجتماعية، إلى الحد الذى يمكن أن يقال إن التربية مرادفة للحياة، وهذه من عبارات (كارل ما نهايم) الشهيرة Education is coterminous with life هذا التصور الاشتباكى والمتلاحم مع ما يؤثر ويتأثر التعليم به وفيه من خلال تفاعله مع قوى المحيط السياسى والاجتماعى والثقافى تلخصه إشكالية: نعلِّم من؟ ونعلِّم لماذا؟ ونعلِّم ماذا؟ ومن أجل ماذا؟ وضد ماذا وفى مواجهة ماذا؟ وفى هذه الإشكالية تضطرب منظومة التعليم مع المتغيرات والتناقضات والتوازنات المجتمعية ومصالحها وصراعاتها.

ومن ثم.. فإنه نظرًا لأن مضامين التعليم وأجواءه تعنى بتكوين الإنسان فى الزمان التاريخى وفى المجال الجغرافي، فإنه لا يمكن النظر إلى هذا التكوين بصورة مجردة أو بعمليات فنية تخصصية ضيقة فحسب، وإنما تتشابك معها أبعاد الانتماء إلى الماضى بتراثه وأساطيره، أو الانتماء للحاضر وإعادة إنتاجه أو بالتطلع إلى المستقبل وتحدياته الداخلية وضغوطه الخارجية أو مع جميع هذه الانتماءات بدرجات متفاوتة. وفى صورة أخرى تتشابك الفواعل بين منطق العلم والفن أو منطق السلطة والتسلط. وكثيرًا ما تصاغ إشكالية التوظيف الاجتماعى للتعليم بين القوى التى تتخذ منه أداة لمعاودة إنتاج النمط الثقافى والحياتى الراهن من ناحية، وبين تلك

القوى التى تسعى إلى تجاوز ذلك النمط إلى نمط أكثر أفقاً لآفاق حياة أفضل من الناحية الأخرى.

وقد قادنى هذا التوجه نحو النظر إلى التعليم فى سياقه المجتمعي، وهو ما احتضنته نظريات المدرسة الاجتماعية التى استوعبتها من معهد التربية فى لندن، إلى أن تتشكل كتاباتى فى التربية والتعليم بذلك المنظور، وهو مغاير لما تعلمته فى معهد التربية فى القاهرة من الانطلاق من الطفل أو المتعلم كفرد فى المدرسة باعتبارها مؤسسة " علمية فنية عقلانية "، مما يشيع حتى الآن فى معظم الفكر التربوى. وهذا باعتباره فكراً متخصصًا قائمًا بذاته على أسس من " الفنية العقلانية Technical Rationality "؛ مما تؤكده النظرية النقدية فى تشخيص النمط الحالى فى مسيرة التعليم. وتوحى النظرة التقليدية بأن ما تقدمه المنظومة التعليمية هو علم خالص حيادي، يتطلب الحفظ والاستيعاب، له كتب مقررة، وله امتحانات إجاباتها محددة، وللامتحانات (دليل) تضعه الوزارة. ولها كتب خارجية بنماذج أسئلتها وإجاباتها، تدعمها حاليًا صحف يومية تقدم نماذج لأسئلة الامتحانات العامة وإجاباتها. وتلك هى الآفات التى حاولت نقدها نتيجة إفسادها لكل عمليات التعليم والتعلم، مقرونة بما تحدثه الدروس الخصوصية من تدمير إضافى ساحق.

وقد دعانى هذا التوجه الضيق فى وظيفة التعليم والتلقين فى بداية الستينيات إلى أن اكتب مقالًا فى صحيفة (الأهرام)، أدعو فيه إلى تخصيص صفحة فى هذه الصحيفة تسمى صفحة "النقد التربوي"؛ للتعرف على ما يجرى وما يطرح فى أفق التربية ومؤسساتها، كما هو الشأن فى تخصيص صفحات للنقد المسرحى والأدبى والرياضي.

من كتابات الاشتباك مع الواقع:

وفى ضوء الانخراط فى التوجه المجتمعى الكلى واشتباك التعليم بسياقاته أعددت رسالة الماجستير (عدم تكافؤ الفرص التعليمية فى المجتمع المصري)،

ورسالة الدكتوراه (التنشئة الاجتماعية فى قرية مصرية) فى حقبة الأربعينيات؛ حيث سيطرت أجواء فواعل الإقطاع ورأس المال على مصائر المجتمع. وقد تابعت هذا النهج فيما أعقب ذلك من كتاباتى بصورة واضحة فى عناوينها أو فى معالجاتها للقضايا التربوية.

ولقد استرعى تأكيدى هذا المنظور الاجتماعى نظر المفكر الناقد (د. غالى شكري) فى مقاله بصحيفة الأهرام بتاريخ ٢٨/ ٦/ ١٩٨٩م ملاحظًا (هناك أساتذة فى مجال الدراسات الاجتماعية المصرية قدموا خدمات جليلة فى نقل المناهج العلمية الحديثة لعلم الاجتماع... ولكنى أحب أن اختار من بين الرواد ثلاثة اقترنت إنجازاتهم بالواقع اقترانا حميمًا، أفضى إلى فتوحات معرفية تجاوزت عملية النقل إلى آفاق الإبداع النظرى من معايشة الواقع، أكثر من الحوار الفكرى المجرد مع النظريات.. هؤلاء الثلاثة هم (حامد عمار) صاحب الكتاب الرائد (فى بناء البشر)، والراحلان (سيد عويس وعاطف غيث...).

ويبدو أن كتابى (فى بناء البشر) قد أحدث صدًى واسعًا فى تشخيص نمط بدأ يسود من أنماط الشخصية المصرية فى منتصف الستينيات، ويعلق عليه المفكر والصحافى القدير (الأستاذ أحمد بها الدين فى المصور ١٢/ ٢/ ١٩٦٥م): (أستطيع أن أقول فى غير مبالغة أن هذا هو أهم كتاب ظهر فى مصر خلال سنة. إنه استطاع أن يضع يدنا فى بساطة وشجاعة وهدوء على أهم قضايا تكوين المواطن الجديد فى المجتمع الاشتراكي، واعيًا بكل المؤثرات السياسية والاقتصادية والثقافية والتربوية والإعلامية التى تسهم فى هذه المهمة).

ولعل من أهم قضاياه ما صغته من مقولات الثقافة السائدة من تفشى نمط شخصية (الفهلوي)، وسلوكه من خلال ثغرات النظام الشمولى فى حقبة الستينيات من القرن الماضي، حيث شاع فيها نمط هذا الفهلوى برشاقته و (حداقته) ونكتته ونفاقه والذى تحول إلى شخصية (الهباش) خلال السبعينيات والثمانينيات، شعاره

(خد الفلوس وأجرى) وانتهى تطور هذا النمط أخيرا منذ التسعينيات حتى اليوم إلى تغوله لتسود شخصية (البلطجي)، الذى يستخدم ماله وعنفه وسلاحه لتحقيق مطامعه الخاصة متجاوزًا سلطة كل قانون.

وأود أن أشير هنا إلى اغتباطي، كشأن أى باحث – بصدور إنتاجى البكر، كتاب (العمل الميدانى فى الريف)، والذى نشره المركز الدولى للتربية الأساسية فى العالم العربى عام ١٩٥٤م. وفيه محاولة للاقتراب العميق من السلوك والاتجاهات لدى الفلاح المصرى إزاء دعوات المرشدين الزراعيين والاجتماعيين؛ حيث امتزج فيه التنظير العام مع الخبرة العيانية فى العمل الميدانى الذى مارسته فى ذلك المركز. وأذكر فى هذا الصدد ما كان يساور الفلاحين من شكوك مع التعامل الحكومي، حين جسد ذلك أحد الفلاحين عندما سألته لم لا يأخذ بقرته إلى (العجل الطلوقة) فى الوحدة الزراعية ليحصل على خلفة أفضل؟ وكانت إجابته باختصار (طلوقة الحكومة ما بتنطش) أى غير قادرة على عملية التزاوج مع بقرته، على الرغم من عدم محاولته تجربة الوحدة الزراعية.. إنها شكوك عامة يترسخ الاعتماد عليها فى معظم أحكامه على الحكومة إذ ذاك، نتيجة خبرته خلال عصور طويلة من الاستغلال والاستبداد والإهمال.

وفى محاولة لتفهم العلاقة المتبادلة بين التعليم والاقتصاد صدر كتابى (فى اقتصاديات التعليم) عام ١٩٦٣م، وهو أول كتاب بالعربية يتناول قضية الاستثمار فى التعليم وعوائده على ضوء الدراسات السابقة فى الاتحاد السوفيتي، وفى إنجلترا؛ وخاصة دراسات الاقتصاد الأمريكى (شولتز) الحائز على جائزة نوبل. وهى دراسات تنقل تصور التعليم من تصنيف مجرد كونه من الخدمات الاستهلاكية إلى موقع الاستثمار الاقتصادى الإنتاجي. وقد تفضل بمراجعة هذا الكتاب الرائد التربوى أ.د.عبد الله عبد الدايم مستشار اليونسكو فى مجلة (التربية الجديدة)، التى يصدرها مركز اليونسكو لتدريب القيادات التربوية فى بيروت.

مع مفهوم التنمية البشرية:

كذلك غامرت بأول استخدام لمفهوم (التنمية البشرية) بدلًا من استخدام مفهوم (الموارد البشرية) فى دراسة عن (العوامل الاجتماعية فى تنمية الموارد البشرية)، كلفت بإعدادها لمؤتمر (التنمية والتخطيط فى العالم العربي)، الذى عقد بالكويت عام١٩٨٧م، والذى اشترك فى تنظيمه برنامج الأمم المتحدة فى نيويورك بالتعاون مع الصندوق العربى للإنماء الاقتصادى والاجتماعي، والصندوق الكويتى للتنمية الاقتصادية العربية ومعهد التخطيط بالكويت.

وفى مطلع دراستى أشرت إلى (تغيير مقصود فى العنوان) مستخدمًا (التنمية البشرية بدلًا من الموارد البشرية)؛ وإذ أبديت اعتذارى عن تغيير العنوان سعيت إلى تبرير هذا التغيير ومقاصده ودلالاته مما سطرته فى تلك الدراسة المنشورة فى وقائع المؤتمر. وتلخيصًا لدواعيه، انتقدت مفهوم اعتبار البشر موارد للتنمية يساوى بينها وبين موارد الأرض والمال والتكنولوجيا، فى حين أن البشر هم غاية الغايات فى نهاية جهود التنمية، قبل أن يكونوا موردًا من مواردها كذلك.

ولا أريد أن أدعى ريادتى فى إشاعة هذا المفهوم فى الكتابات العربية لمجرد المباهاة، وإنما أشير إلى تفضل أ.د. محمد محمود الإمام الاقتصادى الجليل ووزير التخطيط الأسبق فى الإشادة بهذه الريادة فى إحدى محاضراته فى رابطة التربية الحديثة. وأيًا ما كان الأمر فإنى قد اقتبست هذا المفهوم من أحد كتب جامعة الأمم المتحدة فى اليابان بعنوان (التنمية البشرية)، فى محاولاتى للاستفادة من تطور المفاهيم فى الأبحاث والمراجع الأجنبية وتوظيفها فى أدبيات التربية العربية.

واستلهامًا من ذلك الكتاب ومفهومه، عكفت على إصدار أول كتاب باللغة العربية عن (التنمية البشرية فى الوطن العربي) من جزأين، أولهما بعنوان فرعى: (المفاهيم والمؤشرات) ج١ عام ١٩٩١م، وثانيهما (الإحصائيات والوثائق) ج٢ عام

١٩٩٢م. وقد استحق هذا الكتاب مع جملة إنتاجى العلمى (جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي) عام ١٩٩٤م، وهى السنة نفسها، التى منحت فيها (جائزة الدولة التقديرية) من المجلس الأعلى للثقافة فى مصر.

ولقد هيأ لى هذا الكتاب فرصة المشاركة ضمن فريق المستشارين فى إصدار معهد التخطيط القومى لتقاريره السنوية (مصر/ تقرير التنمية البشرية) منذ عام ١٩٩١-١٩٩٤م. وقد تابعت إصدار كتاب آخر فى مسيرة التنمية البشرية فى أقطار الوطن العربى بعنوان: (مقالات فى التنمية البشرية العربية) عام ١٩٩٨م، وكتاب (التنمية البشرية وتعليم المستقبل) عام ١٩٩٩م، وقد سبق هذه كتابى (فى بناء الإنسان العربي) الذى نال شهادة تقدير أفضل كتاب فى العلوم التربوية فى معرض القاهرة الدولى للكتاب، الذى تقيمه الهيئة العامة للكتاب - وزارة الثقافة.

وفى مجال الانشغال بقضايا التنمية البشرية ووسائطها، أتذكر دورى فى المسلسل التلفزيونى (افتح ياسمسم) الموجه إلى مرحلة الطفولة المبكرة. وتتلخص حكايته فى خطاب وجهه (الدكتور صائب جارودي) المدير العام للصندوق العربى للإنماء الاقتصادى والاجتماعى فى الكويت إلى مكتب الأمم المتحدة؛ لأقدم للصندوق مشورتى فيما يتعلق بإسهامه فى شراء حق الملكية لهذا المسلسل الأمريكى (Sesamee Street)، مع ترجمة عباراته الإنجليزية إلى العربية وإذاعته فى التلفزيونات العربية.

وفى حديثى مع الدكتور جارودي، أشرت بأن مجرد ترجمة الحوار الذى يجرى فى المسلسل من الإنجليزية إلى العربية لا يكفي، بل إن الصور والمواقف محملة بالثقافة الأمريكية. ومع تقديرى للقيمة التربوية والفنية لهذا المسلسل، إلا أنه لابد من إعادة صياغته فى إطار الثقافة العربية، مواقف وصورًا ومحادثة لغوية عربية. وأشرت عليه بتأليف لجنة لدراسة إمكانيات تعريب هذا المسلسل.

ولذلك اقترحت تأليف لجنة من السيدة فاطمة حسين، و د. محمد الرميحى من

الكويت، ومدير إذاعة قطر، ومن الفنانين الكبيرين صلاح جاهين وصلاح السقا، ومن موسيقى مصرى شهير (نسيت اسمه).. اجتمعت اللجنة بدعوة من الصندوق، وقدم الخبراء الأمريكيون عرضًا لثلاث حلقات من المسلسل الأمريكي. وقد أقر الاجتماع بالقيمة التربوية لهذا المسلسل والاستفادة من إمكاناته الفنية، وتكوين لجنة من الخبراء العرب للقيام بالبحوث والإجراءات اللازمة لتعريب المسلسل واستخدام اللغة العربية المناسبة، وكان من بينهم كاتب الأطفال المبدع الأستاذ عبد التواب يوسف.

تم إنجاز المسلسل، ووافق على عرضه مجلس وزراء إعلام الدول الخليجية، واعتمدت إذاعته فى تلفزيونات تلك الأقطار. وأطلق علىّ الصندوق (أب المشروع) وكانت أمه السيدة الفاضلة (عزيزة حلمي)، إحدى خبراء الصندوق التى تولت الإشراف على عملياته التنفيذية.. وقد جرى للمسلسل أكثر من تطوير فيما بعد، وبلغنى أنه حين عرض المسلسل على التلفزيون المصرى لم يجد قبولًا لديه لأنه محمل بالصور الخليجية !!

مع مناهج البحث التربوى:

ومن نمط التشابك فى السياق إلى مناهج البحث، حيث ألفيت تسيَّد المنهج الأمبيريقى الوصفى فى مناهج البحث بما فيه من اختيار ما يسمى بالمشكلة المحددة، بغية الوصول إلى حل لها. لقد شاع وما يزال هذا المنهج ساحة البحوث التربوية والاجتماعية فى رسائل الماجستير والدكتوراه وفى الأبحاث المقدمة لترقية أعضاء هيئات التدريس. وهى بهذا المنهج الأمبيريقى الوضعى تزعم الاقتداء بمنهج البحوث فى مجال العلوم الطبيعية؛ أى إنها دراسات موضوعية محايدة غير منحازة، تلتزم بحصاد ما تدل عليه نتائج الاستبانات واستطلاع الرأى التى يتم ضمان صدقها وثباتها من خلال آراء القضاة المحكمين، ومن المعاملات الإحصائية لرؤية العينات واستجاباتها.

ويتعرض مثل هذا المنهج الأمبيريقى إلى إلباس الظواهر التربوية وأشكالياتها المعقدة والمترابطة لا ثوبًا لا فضفاضًا، وإنما ضيقًا لا يتناسب معها فى حجمها أو لونها أو تعقدها أو امتداداتها أو حتى فى " موضتها ". ومن ثم يتركها عارية منكشفة، وحيدة على المسرح الذى تقف عليه، مجردة مما قبلها وما بعدها من أحداث، وبذلك تصبح نقطة أو كلمة، وليس خطاً أو جملة كاملة مفيدة.

ومع ما يتعرض له هذا المنهج الامبيريقى الوصفى من اختزال البحث بما يمكن نعته بتعبير الاهتمام بجوانب (ظواهر القضايا) وليس (حقائق القضايا) أو (سطح القضايا) وليس (بواطن القضايا) أو (تجزئة القضايا) قائمة مستقلة بكيانها الحالى وليس (فى منظورها التاريخى)، أو هى (ظواهر واقعية حاضرة) وليس لها (امتداد فى الماضى أو تداعيات مستقبلية) أو هى (ظواهر موضوعيه) بعيدة عن تحيزات الباحث مع أنها (اختيارات تتدخل فيها ذاته من أول اختياره للمشكلة إلى جانب ذات مشرفه فى وضع الاستمارة وذوات محكميها وحجم العينة وتفسيرات النتائج). كما أنها تشى بأن المشكلة موضع البحث ظاهرة لم تخضع لسياق متغير، وبأنها لا تتعرض فى وجود كيانها لمجتمع غير متغير، مهما كانت وتيرة تغيره.

ولهذا تفتقد معظم البحوث التربوية الوصفية الرؤية العلمية فى التفكير النقدى الاجتماعى التاريخى الدينامى، ويشوبها المنطق الأرسطى، والوهم بالموضوعية العلمية كما هو الشأن فى العلوم الطبيعية. مشكلاتها ساكنة باردة، مع أنها فى خضم محيط اجتماعى لا يكل عن الحركة، وفى جدلية المتغيرات والمصالح فى تفاعلاتها المتحالفة والمتوازنة والمتناقضة والمتصارعة. ومن ثم تجيئ معظم نتائجها للإصلاح فى مجرد قلب أو عكس الوجه الحالى لعملة تلك المشكلة، أو صب زيتها القديم فى قنانٍ جديدة.

وهل يمكن مثلًا فى التشخيص والوصف الإمبيريقى لمشكلة الدروس الخصوصية الاقتصار على ضرورة القضاء عليها ومعاقبة من يقوم بها؟ ومن ثم

نتجاهل تحديد العوامل التى أدت إليها من سياسات القصور فى بناء منشئات تعليمية جديدة لتعالج كثافة الفصول والمدرجات واكتظاظها، وفى تدنى مرتبات المدرسين، ومنها إلى التوغل فى ميزانية الدولة، والدخل القومي، وأولويات استثماراته وتوزيع موارده، ومنها إلى النظام الضريبى وتحيزاته ثم إلى الطلب الاجتماعى المتنامى على الالتحاق بالجامعة مع محدودية إمكاناتها لعدم التوسع فى إنشاء جامعات جديدة، ثم إلى مشكلات السعى الجماهيرى تفاديا مشكلات بطالة الخريجين. وذلكم هو مثل من أمثال المقاربة المنهجية النقدية الاجتماعية الدينامية التاريخية الذى أدعو إليه، وإلى حرصى الملح على اتباعه، حتى فى استكمال أبعاد البحوث الامبيريقية من خلال اقتحام امتداداتها بوضع المشكلة ونتائجها فى هذا المنظور المتكامل.

وقد التزمت بهذا المنهج فى معظم مقالاتى فى الصحف أو فى الكتب، أذكر منها على سبيل المثال كتاب (من همومنا التربوية) الذى علّق عليه المفكر الموسوعى الأستاذ سامى خشبة فى صحيفة الأهرام بأنه(أحسن كتاب ظهر فى هذا العام) ١٩٩٥م. وتجلى هذا المنهج أيضًا فى كتاب (فى آفاق التربية العربية: من رياض الأطفال حتى الجامعة)، والذى حظى بجائزة أحسن عمل ثقافى فى معرض القاهرة الدولى للكتاب عام ٢٠٠٣م، وفى كتاب (السياق التاريخى لتطور التعليم المصرى: رؤية فى الماضى والحاضر والمستقبل) ٢٠٠٥م.

محاولة التجديد فى المفاهيم والصياغة:

لقد اقتضت مناهج التشابك النقدى مع الواقع فى حركته وتجدده أهمية المحاولة فى أن يكون لى ما يناسبها من أسلوب فى الكتابات العلمية التربوية، تتجاوز ما يسودها من الاقتصار على رصد الواقع وسكونه وبرودته لتعيد تصنيفه ودلالاته فى لغة أكثر دينامية وامتدادًا ودفئًا، حيث إن مفاهيم التربية لا تلتزم بالضرورة بما فى المعاجم اللغوية من معانٍ، كما تجرى العادة فى كثير من شرح المصطلحات معجميًّا.

والقارئ للكتابات التربوية سوف يذهل لرتابة أسلوبها وجمود صياغاتها وتصنيفاتها، مصابة بتصلب فى الوعى وتسيب فى المفاصل، باستثناء القليل النادر من بين كتابها. ويبدو أن التيبس فى الفكر والتعبير قد ألجأ أحد أساتذة التربية فى بريطانيا فى كتابه (التربية فى عالم ما بعد الحداثة) إلى معالجة هذه الظاهرة بأن تكون مناهج التربية فى إعداد المعلم (أقل علمًا وأكثر أدبًا) أى الأدب بأوسع تجلياته.

والفكر المتجدد فى تعبيره عن نفسه هو (مشروع متجدد وليس خطابًا محددًا) كما يقول الطبيب المفكر د. يحيى الرخاوي؛ فاللغة هى لحمة نسيج الفكر وخامة مهمة من خاماته. وهى ليس مجرد وعاء له، وهذا يعنى أن الفكر المتجدد يصنع لغته ومجازاته الجديدة. وفى هذا الصدد يذكرنا عالم المعلوماتية د. نبيل على، من أن (اللغة فى عالم المعرفة تتجه من الخضوع لها ومن قيودها إلى إخضاعها للنهج المعرفى الذى تنتمى إليه؛ لذا فمن غير المنطقى أن تُخضع العام اللغوى إلى الخاص المعرفي). ومن هنا حاولت العلوم الحديثة أن تفلت من إسار اللغة إلى آفاق جديدة من التعبير فى ارتباطها مع عالم المعرفة، (وإلى توجه توليدى إبداعي) مع تعقد ظواهر الكون والحياة. ولما كانت اللغة التربوية صنيعة الفكر وصانعته فى الوقت ذاته، جاء نقدى لأساليب صياغة الكتب والأبحاث فى أنماط جامدة مكرورة على أنها لغة العلم الموضوعى الدقيق.

ولا أزعم أننى نجحت فى بلوغ (التوجه التوليدى الإبداعي) الذى يشير إليه د.نبيل على، وإنما حاولت جهد المقل فى تغيير بعض المجازات اللغوية، منها على سبيل المثال إحلال وصف المعلم على أنه (طاقة محركة) بدلًا من كونه (حجر الزاوية)، ومفهوم (الشجرة التعليمية) بدلًا من (السلم التعليمي) وتعبير (نبش الواقع) بدلًا من (وصف الواقع)، (شواغل الباحث) بدلًا من (مشكلة البحث)، والتعرف على (الاتجاه والشعور العام بكل محور) بدلًا من (الاكتفاء بالاتجاه نحو كل من جزئيات المحور الذى يتم استطلاع الرأى فيه).

ولعلى ارتدت منذ بداية تدريسى وكتاباتى صياغة مجازات لغوية أو استعارة مجازات من علوم أخرى، منها على سبيل المثال (وظيفة الغربلة فى التعليم) فى عملية الاستبعاد لفئات ومراحل خلال العملية التعليمية: واستعرت مفهوم (البنية الأساسية) المتمثلة فى أرض المدرسة ومبانيها وتجهيزاتها، كما هو الشأن فى البنية الأساسية من مرافق وموانئ ومطارات ومواصلات واتصالات فى التنمية الاقتصادية. كما صنعت معادلة ما تنميه الجامعة فى خريجها بأنها (تنمية بمتوالية حسابية فى قدراتهم الإنتاجية وبمتوالية هندسية فى طموحاتهم الاستهلاكية). ومن عالم البيولوجيا استعرت (توأمة التعليم والثقافة).

كذلك أعجبتنى كلمة (الاقتضاءات التعليمية) بدلًا من (المطالب التعليمية)، واستخدمت لأول مرة تعبير (المجتمع المعلم) حيث أن كل مؤسساته وتفاعلاته قوى معلمة (الأسرة، الإعلام، موقع العمل، التعامل مع الرؤساء) وهو المفهوم، الذى قتبسته فى رسالة الدكتوراه من عميد معهد التربية فى لندن (سيرفرد كلارك) فى كتابه The Educative Society الصادر عام ١٩٥٠. وقد اتسع هذا المفهوم فيما بعد ليظهر معه مفهوم (المجتمع المتعلم) The Learning Society، أو ليصبح (أمة من الطلاب) Nation of Students.

كذلك كان لى السبق فى استخدام وشرح مفهوم (اجتماعيات المعرفة) فى كتابى (دراسة المجتمع: حدودها وقيودها) من منشورات معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٥٦م، وقد استخدمت هذا المفهوم لإنزال أفلاطون من عرش جمهوريته من المفهوم المثالى الشائع لها. وفى هذه المحاولة استعنت بكتاب (كارل بوبر – المجتمع المغلق، سحر أفلاطون وهيبته)؛ حيث شخص المجتمع الذى ينشده فى الجمهورية بأنه مجتمع تراتبى طبقى مغلق ثابت لا حركة فيه ولا تغير، بعد أن وضع حدودًا لكل فئة اجتماعية مواصفاتها وأدوارها، لا تتعداها ولا تتخطاها.

واستخدمت هذا المفهوم كذلك فى أول مقال، يدعو إلى التشكك فى مصداقية اختبارات الذكاء وتحيزاتها الطبقية باسم العلم والموضوعية، بعنوان (اختبارات الذكاء دعوة لمراجعة فروضها) فى مجلة الثقافة المعاصرة عام ١٩٥٧م. وسعيى فى إدخال هذه المفاهيم الجديدة إنما هو اعتزاز بفضل الأساتذة العظام الذين تأثرت بأفكارهم وكتاباتهم فى جامعة لندن وعلى رأسهم كارل مانهايم. وكانت تلك المفاهيم طازجة فى ذهنى عند عودتى إلى مصر، وأردت أن يتزود بها طلابي، وأن تنعكس فى كتاباتي.

كذلك لا يفوتنى استخدام مفاهيم وقواعد أصولية فقهية أو عبارات تراثية حين تكون ممتلئة بدلالات تغيرها وإقناعها فى الواقع المعاش. منها تطوير القاعدة الأصولية (الضرورات تبيح المحظورات) مستخدمًا لها فى عدم المساس بمجانية التعليم تحت أية ضغوط سياسية أو اقتصادية لتكون (الضرورات الاقتصادية لا تبيح المحظورات التربوية). كذلك فى الحديث عن بعض اللوزميات التعليمية التى ينبغى التعجيل بتوفيرها وفق القاعدة الأصولية (مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب). ومنها مقولة (من البلية تشييخ الصحيفة) حين يقوم الكتاب المقرر مقام المعلم أو الأستاذ. ومنها أيضًا [إن الأحكام تدور مع العلة وجودًا وعدمًا] لتأكيد أثر المتغيرات المجتمعية فى المفاهيم والسياسات التعليمية. وإليكم مقولة (عند الامتحان يكرم المرء أو يصان) بدل (أو يهان) فالطالب من خلال الامتحان يتحقق من قدراته الحقيقية؛ ليتفاعل مع واقع إمكاناته بعيدًا عن الأوهام والأحلام وشكوى الزمان.

كذلك سعيت إلى بعض المقولات والأفكار التقدمية النهضوية من كتابات السلف منها مقولة أبى حيان التوحيدى (الإنسان ما عاش فى تجريب) ودعوته إلى التجديد والتغيير الراديكالى (الحركة فى النار لهب، وفى الهواء ريح، وفى الأرض زلزلة)، ومفهوم التنمية بقضية (عمارة الكون).

مرة أخرى، أعتقد أن اللحظة التاريخية التى تعلمت فيها ثم علمت بعدها قد أتاحت لى مساحة واسعة لأبذر فيها، وأنمى من خلالها زراعة جديدة، أعتز بحصادها وثرائها مع ما تراكم فى "جرن" المعرفة التربوية لكل أولئك، الذين استفادوا وأفادوا من فرق المبعوثين إلى الخارج فى تلك الحقبة من المعارف الجديدة، عقب الحرب العالمية الثانية وما بعدها.

سلسلة (آفاق تربوية متجددة):

وأخيرًا، رأيت أنه من ضرورات العمل لتجلية العتمة فى الكتابات التربوية، وتوفير بعض مصادر الضوء والإنارة، أن أسعى إلى تكوين ونشر سلسلة من الدراسات، متميزة عن الكتب المقررة أو عن غيرها من السلاسل التربوية.وقد شجعنى على المبادرة بها الرجل المقتحم فى عالم النشر الأستاذ محمد رشاد المدير العام للدار المصرية اللبنانية، وتم الاتفاق على تسميتها سلسلة (آفاق تربوية متجددة).

وتهدف هذه السلسلة كما ورد فى افتتاحية كتبها (السعى لنشر الجديد والمتجدد فى الأدبيات التربوية من الخبرات العربية والأجنبية. وتحرص على أن تجوب موضوعاتها أهم قضايا الفضاء والواقع التربوي، فكرًا ورؤية.. حتى يتبلور للتنمية العربية الشاملة رصيد تربوي، محَّصه الفكر الناقد، والخبرة العريضة، والممارسة المتنوعة، وتصور البدائل المستقبلية فى مجال التربية).كذلك ترحب السلسلة (بإسهامات مختلف الأجيال من أساتذة العرب، وغيرهم من أساتذة العلوم الاجتماعية بحيث تلتقى فيها حكمة القدامى واقتحامات الشباب، ورصانة ما بينهما من الفئات العمرية).

ولقد وقفت إلى إصدار (٣٠) كتابًا فى هذه السلسلة، ابتداء من عام ١٩٩٩م حتى اليوم ٢٠٠٦م. وقد حظى بعضها بمراجعات ثرية فى الصحف والمنتديات العلمية، كما أعادت (مكتبة الأسرة) التى تصدرها الهيئة العامة للكتاب نشر أحدها.

وكان هذا الكتاب (المعلمون بناة ثقافة) أول كتاب تربوي، ينضم إلى هذه السلسلة منذ أن بدأت مهامها قبل عشرة أعوام.

الأبعاد الثقافية فى التنمية البشرية:

أحسب أنه فى نهاية عرضى لمنطلقات اهتمامى بالتنمية البشرية العربية، تأكيد رؤيتى لقضايا التنمية البشرية ووسائطها وعوامل سداد الجهد فى معالجتها الالتفات إلى الإطارات الثقافية، التى نعايشها زمانا ومكانًا، قبل إغراءات عمليات النقل والتحديث من تجارب الأمم الأخرى. ومن ثم لم يقتصر تناولى على ما تقدمه تقارير التنمية البشرية من مؤشرات إحصائية (دخل/ تعليم/ صحة... إلخ) وإنما جاء تركيزى منذ خمسة عقود على تلك الإطارات الثقافية. وهو المنهج الذى اتخذه المفكر الاجتماعى الناقد سيدس من أنه (يلزم تصور الشخصية العربية لا فى فراغ، وإنما فى سياقها التاريخى، وفى ظروفها الاجتماعية والاقتصادية والحضارية).

والواقع أن الثقافة ونتاجها من الشخصية الاجتماعية ليست معطى ثابتًا لا يتغير. وكما يقول ابن خلدون (من الغلط الخفى الذهول عن تبدل الأحوال فى الأمم والأجيال بتبدل الإعصار ومرور الأيام؛ وذلك لأن أحوال العالم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة منهاجًا مستقرًا، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة).

ومن ثم كان المنهج الوصفى فى تفكيك الظواهر المجتمعية، ودراستها كأن ليس لها تاريخ أو ارتباط بعوامل أخرى، والاقتصار على تحليلها الإحصائي، يعجز عن الرؤية الكلية المترابطة اجتماعيًا وتاريخيًا، أفقيًا ورأسيًا فى حركة المجتمع وتطوره. وهذا المنهج المجتزئ أو المختزل للحالة الإنسانية قد استشرى فى الدراسات الاجتماعية والتربوية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وهو المنهج الذى لجأ إليه كتاب الغرب وبعض مستشرقيهم فى الحديث عن (العقل العربي) أو (الثقافة العربية)؛ لإثبات تحيزهم فى فهم تخلف الإنسان العربى ومجتمعاته.

والثقافة باختصار وكما هو معروف، هى جماع أساليب الحياة والعيش فى حقبة زمنية سادت فى مقوماتها المادية والمعرفية والقيمية معان ودلالات ورموز تعيش بها وتعيش معها أفرادها وجماعاتها فى تعاملها مع مؤسساتها المجتمعية. وذلك يجرى فى مختلف مواقف الحياة وتفاعلاتها فى تكوين الأسرة وعلاقاتها، وفى إنجاب الأطفال، وفى مواقع العمل والإنتاج، والاستهلاك والادخار، وقيم الثروة والمعرفة، وفى علاقاتها بالسلطة وبالمكانات الاجتماعية وتراتبها. وهى فى مجملها ثقافة متحركة متدافعة، متسقة أو متناقضة ومتصارعة، وليست ساكنة راكدة فى دينامياتها الداخلية. كما أنها تتعرض للمؤثرات الخارجية من ضغوط أو تهديدات أو غزو أو لمحاولات التفاعل الإيجابى أو السلبى مع تلك القوى والمؤثرات الخارجية.

وقد تهتز وتتخلخل موازين القوى الداخلية أو بفعل المؤثرات الخارجية. ومع ازدياد التناقضات، كمًّا ونوعًا، فى قيم العيش المشترك، تظهر بذور الأزمات والتحديات والاضطرابات والثورات، ولعل ما تشهده المجتمعات العربية من صور هذه الاهتزازات والرجرجات فى قيمها الثقافية كثيرًا ما ينعكس فى اختلاف الرؤى بين أنصار القديم والحديث، والانخراط فى العولمه وأسواقها أو الحذر والوعى بمخاطرها على الهوية وترابط المجتمع، ومما لا شك فيه أن مفهوم الاستقرار والسلام الاجتماعى على المستويين القطرى والقومى والعالمى ينطلق من (تعظيم الجوامع وتقليل الفوارق) كما يقول الإمام الشهرستاني، ويظل السؤال فى تطوير المجتمع وإصلاح مؤسساته متوقفًا على (أى ثقافة نريد بمكوناتها المادية والسياسية والاجتماعية وقيمها الحاكمة لمؤسساتها وعلاقاتها؟).

وقد أوليت أهمية خاصة لمفهوم التراث فى عمليات التطوير المجتمعى والتنمية البشرية، وأنه جزء لا يتجزأ فى تحليل الواقع المعاش أى التراث الحي، وليس المتحفى - فى ثقافتنا الراهنة، وأوضحت أن دراسة التراث تعترضها مشكلات مفاهيمية وأيديولوجية وتاريخية وذاتية، وعاطفية. ومع تفضيلى لاستخدام الجمع (موروثات) بدل تراث (مفرد) بينت أنه حقيقة موضوعية اجتماعية، يؤدى التفاوت

فى قيمتها وأهميتها حاضرًا ومستقبلًا إلى ما تعانيه الثقافة العربية من مشكلات تلك الموروثات فى سداد تحريك الواقع.

ثم إن التراث ليس (واقعة واحدة) وليس كتلة (صماء)، وإنما هو موروثات وأحداث تغيرت وتبدلت وأخذت معانٍ مختلفة على مر العصور. وهو تاريخى فى طبيعته، فلماذا يختزل ويقتصر البعض على فترة تاريخية محددة، بل يمكن أن نشير إلى أن التراث هو كل ما انتهى إليه واقعنا حتى هذه اللحظة.

وهو موروثات مختلطة.. هناك على سبيل المثال تراث أول الخلفاء الراشدين أبى بكر الصديق (إنى وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وأن أسأت فقوموني)، وهناك جبروت الحجاج (إنى لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها، وإنى لصاحبها) وهناك (عدل عمر) وبعده من حقب حكم (كان يخشى الناس فيها من مجرد الإشارة إلى (عدل عمر)، كما فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان، فيه الحكم شورى ومعه الوراثة والاستبداد، فيه انتصارات حطين وعين جالوت، وفيه الهزائم واجتياح المغول لبغداد عاصمة الخلافة العباسية والاحتلال الأجنبي، فيه الفكر التجريبى العلمي، وفيه الفكر الصوفى والفكر الخرافى والشعوذة.

ومن ثم فأين القداسة فى التراث، ولماذا يتصوره خيال كثيرين نقيًا طاهرًا مصفى، حيث إنه سبل حياة بشر لا ملائكة، ومن ثم فهو خاضع للنقد والتقييم والتعمق فى العوامل التى أفرزته أو قطعته. ومع هذه النظرة الناقدة يصبح تراثنا هو العناصر الحية المؤثرة فى هذا الواقع واستيعابها النقدى الواعى فى مسيرة التطور والإصلاح، دون تجاهل تأثيراتها فى ذواتها فى ذواتنا، ودون ارتداد إلى تقديسها على أنها المنقذة من الضلال.

ويجيىء تأكيدى لهذه المجالات الثقافية وسبر أغوارها ونبش عواملها – دون عقد أو تعصب أو أيديولوجيات مصمتة منغلقة، من أهم شواغل التنمية البشرية؛

فالعيش المشترك فى مساحات الحرية الإنسانية والمشاركة الواسعة فى صنع القرار والمسار هى قواعد الانطلاق فى تنمية مادية وبشرية حقيقية.

ولا تكفى مؤشرات الدخل والتعليم والصحة، مجردة من سياق مجتمع ديمقراطى حر ومواطنة حرة، فاعلة كما أنها واعية منفعلة.

وفى داخل هذا الإطار الثقافى المرن، تتصالح وتتضامن وتتكامل التوجهات المتخاصمة اليوم، بين الوطنية والقومية، والإسلامية والعالمانية، والمحلية والعالمية. وهذا مما يتطلب حوارًا عميقًا وجهودًا مخلصة من أجل (تعظيم الجوامع وتقليل الفوارق)، وتجعل من التنوع الثقافى الخلاق دعمًا وإثراءً فى نهضة أمتنا العربية والإسلامية والتحاقها وتفاعلاتها مع العالم الخارجى وتحدياته، من خلال إنسان وطنى قومى إيمانى عالمى (لاعولمي).



الحكاية العشرون
مع التعليم والمتغيرات السياسية

التوظيف السياسى للتعليم:

إن العلاقة بين المنظومة التعليمية والنظام السياسى والقوى الاجتماعية، التى تهيمن على مقاليد الحكم والسلطة علاقة قد تكون وثيقة فى تبعية التعليم لتوجهات نظام الحكم، كما أن بها من الإمكانات التى تجعل العلاقة مرنة غير محكمة، تتيح لها من حرية الحركة فى التمتع بقدر من الاستقلالية والمرونة فى تفاعلاتها وتوجيهاتها. وقد قام التعليم بدوريه من التبعية والاستقلالية؛ أى بالتوافق والمقاومة فى مراحل النهضة المصرية منذ إنشاء نظام التعليم الحديث فى عصر محمد على، بل وحتى من خلال تعليم الأزهر الشريف قبل ظلمات حقبة حكم السلطنة العثمانية لولاية مصر. كما يظهر أحيانًا فى مواجهة موجات التبعية، من خلال إيقاد مشاعل المقاومة فى بعض المواقف. بيد أنه مع ظهور تيارات الاستقلالية تواجهها سدود القمع والكبت.. وهكذا دواليك، تتوالى وتختلط تيارات التبعية والاستقلالية فى ديناميات التعليم وتوجهاته.

لكن الأعم فى تلك العلاقة بين التعليم والسلطة باتت غلبة علاقات التبعية نظرًا لما ساد فى حكم مصر من قوى سيطرة الاستبداد السياسي، وسلطان الدولة المركزية، ومحاصرة الأفكار والمؤسسات الديمقراطية، سواء كان ذلك فى الحقبة الملكية أو تحت سيطرة الاحتلال البريطانى أو فى فترة يوليو ٥٢ رغم ما تمخض من بعض سياساتها التعليمية من إيجابيات التوسع فى إتاحة فرص التعليم بصورة عامة والجامعية بصورة خاصة، بجعلها مجانية منذ عام ١٩٦١م. وكان من جراء تلك السياسات حتى اليوم حشد التعليم للتعبئة الأيديولوجيه الاشتراكية أو الرأسمالية أو التكنولوجية أو السوقية فى ضوء التوجهات الرسمية الفوقية، دون التمكين لنمو المواطن الناقد والواعى والمبدع، فاعلًا لا مجرد متلقن مفعولًا به وبمصائره.

أشير إلى هذه المقدمة التى استطالت لأمهد للمواقف السياسية فى كتاباتى حول قضايا التعليم وهمومه؛ وبخاصة تلك التى حررتها بعد عودتى من العمل مع الأمم المتحدة التى لم تكن تتيح لى ظروف العمل فيها أو فى ضوء سياساتها إبداء آراء خاصة فى كتابات، قد تتعارض مع دبلوماسيتها فى التعامل مع الدول الأعضاء. ومن ثم خلت سبعة عشر عامًا فى حياتى (١٩٧٠-١٩٨٧م)من مؤلفات بها مذاقى الخاص، لما كان يجرى فى مصر أو فى غيرها من الأقطار العربية. ومع هذه الخسارة لا يسعنى إلا أن أقدر ما منحته لى من جزاء سخى مكننى من إكمال وتجهيز داري، ومن تعليم أولادى فى أحسن المؤسسات التعليمية.. هذا فضلًا عن توفير نظام تأمين صحى شامل لى ولزوجتى بعد الاستقالة منها؛ مما مكننى بفضل الله وإرادته أن أظل على قيد الحياة حتى الآن.

* استأنف الحديث عن مشاركتى فى القضايا السياسية، التى تكمن وراء السياسات التعليمية، مما أشرت إليه سابقًا، وبخاصة قضية مجانية التعليم، ورغم التأكيد الرسمى على أنها حق مشروع تصبح الدعوة فى مواجهة الكتابات المنادية بإعادة النظر فى مسألة المجانية بتبريرات مختلفة من منطلق سياسات الخصخصة مسألة

واجبة وحاولت فى عدة مقالات ومواقف صائحًا بأن (لا مساس بمجانية التعليم)، مبينًا أن المساس بها يعنى حرمان ٧٠٪ ممن يتمتعون بالتعليم حاليًا من أبناء شرائح الفقراء ومحدودى الدخل، وأعداد كبيرة من أبناء الطبقة الوسطى من التعليم العالي. هذا إلى جانب ما أشرت إليه من مخاطر التوسع فى التعليم الخاص بنجومه المختلفة، كما أوضحت فى كتاب (التعليم الجامعى الخاص فى الميزان) ما يؤدى إليه تباين توجهات التعليم من مخاطر ثقافية؛ خاصة فى مناهجه المستترة، وما يترتب عليه من خريجين ذوى رؤى مختلفة ومتصادمة فى إطار القيم الثقافية فى المجتمع.

* ولعل من أهم ماأبديت فيه الرأى اختراق تقاضى المصروفات فى قلب التعليم الجامعى الرسمى بإنشاء شعب فى بعض الكليات، يتم التدريس فيها باللغة الإنجليزية.. كذلك لم أتوقف عن النقد الحاد والمتواصل لدخول الجامعات الأجنبية إلى منظومة التعليم فى مصر، مما لم تشهده خريطته طوال قرنين من الزمان؛ حيث لم يكن فيها إلا فى موقع واحد هو الجامعة الأمريكية، لتصبح لدينا خمسة مواقع: جامعة فرنسية، وألمانية وبريطانية وكندية، وروسية (فى الطريق) إلى جانب الجامعة الأمريكية... والبقية تأتى !!

وقمت فى أكثر من موضع بدق الأجراس حول مخاطر هذه الجامعات الأجنبية، التى تبرر وجودها بأنها تحمل لنا آخر منتجات العلم والتكنولوجيا والإدارة الحديثة، وذخائر المعلوماتية. ويبين التحليل النقدى ـ لما وراء هذه الدعوة ـ أن هذه الجامعات إنما تستهدف تكوين متعلمين من أبناء وبنات مصر (من أهل البلد) للعمل فى خدمة استثماراتهم فى مصر، وفى غيرها من أقطار المنطقة العربية وما يجاورها من المناطق الأفريقية.

هذا فضلًا عن إمكانات إغراء خريجيها للعمل فى أقطارها الأجنبية، بعد أن أعدوا الإعداد المناسب، وبالتكلفة الأرخص. وسوف تؤدى مثل هذه الهجرة إلى

سد الفجوة الديمُغرافية المتزايدة الناجمة عن نقص فئات الشباب؛ نظرًا لتدنى تناقص النمو الطبيعى للسكان فى تلك الدول، والذى يصل فى بعضها إلى معدل أقل من ١٪ سنويًا.

كذلك تركزت كتاباتى فى السنوات القليلة الماضية على نقد تداعيات التوجهات السياسية على التعليم، نحو الخارج؛ طلبًا للاستثمار أو اجتهادًا فى التصدير أو استكمالًا لبيع القطاع العام وخصخصة الاقتصاد وقطاع الخدمات، إلى غير ذلك من مطالب الاندماج فى السوق العالمية. وقد استتبع ذلك التوسع فى التعليم الخاص والأجنبى، بدءًا من رياض الأطفال فى امتلاك مهارات السوق، لغة وفى مناهج وتكنولوجيات ومعايير لجودة التعلم واعتماد مستوياته تحكمها مطالب سوق العمل الخارجى، أكثر من مطالب وأولويات التنمية الذاتية. وتحوَّل هدف التعليم من إنتاج المواطن المصرى العربى إلى إنتاج الفرد السوقى العولمى.

* ومن بين ما حررته من كتب فى هذا الشأن (مواجهة العولمة فى التعليم والثقافة)عام ٢٠٠١م؛ أضف إلى ذلك ما دهانا من الأحداث المفجعة المعروفة بأحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م من تدمير لمبنى التجارة العالمى وجزء من بناية البنتاجون. ومنها انطلقت حملات الولايات المتحدة الأمريكية للقضاء على الإرهاب؛ خاصة فى الدول العربية والإسلامية، وما تمخضت عنه تلك الحملات من مبادرات واتفاقيات لتغيير خريطة الشرق الأوسط الكبير؛ من أجل تفكيك خريطة أواصر الوطن العربى الكبير. وقد استخدمت أمريكا فى تحقيق هذا الهدف كل مصادر إرهابها من أساليب التهديد الناعمة والخشنة، بما فى ذلك الغزو العسكرى لأفغانستان واحتلال العراق. وجاءت دعاوى التدخل أو النصائح بتعديل المناهج الدراسية جزءًا لا يتجزأ من إعادة تشكيل الخريطة الجديدة؛ نظرًا لما تولده هذه المناهج فى مزاعمهم من العنف والإرهاب فى فهمها وكراهيتها للحضارة الغربية والنظم الديمقراطية. وقد أفردت لهذا الحدث وتداعياته الأمريكية فى أوضاع الوطن العربى كتاب (الحادى عشر من

سبتمبر ٢٠٠١م وتداعياته التربوية والثقافية)، ودعوته المحورية: (إلا التعليم يا أمريكا).

* كما أشرت فى فصول سابقة، تضمنت كتاباتى تناول الصراع العربى الإسرائيلى؛ وبخاصة احتلال الصهاينة لأرض الشعب الفلسطينى فى كتابى (ومن القدس يبدأ السلام). وفى إشرافى على رسالة للدكتوراه عن (التعليم العلمى والتكنولوجى فى إسرائيل) اقتناعًا بمبدأ (أعرف عدوك)، ومراجعة وتقديم كتاب (التربية العنصرية فى المناهج الإسرائيلية) وهما من الإنتاج العلمى لتلميذتى النابهة (صفا محمود عبد العال) المتخصصة فى الدراسات العبرية.

* كما نشرت مقالات، منها: عرض كتاب (ج. فنكستاين) باللغة الإنجليزية بعنوان (صناعة الهوكوست واستغلال آلام اليهود) فى الضغوط الإسرائيلية على بعض الدول الأوروبية لابتزاز ما أمكنها ابتزازه من تعويضات. ومنها مقالات (إلا التعليم يا بيريز)، حين أراد التفاوض فى إنتاج برمجيات تشارك فيها مصر مع إسرائيل لاستخدامها فى المدارس المصرية، إلى جانب مقالات أخرى متعددة فى مناسبات مختلفة.

* كذلك لا يفوتنى أن أشير فى هذا الصدد إلى تلك الرسالة التى وصلتنى فى منتصف الستينيات من أستاذ بأحد الجامعات الأمريكية؛ يدعوننى للمشاركة فى تأليف كتاب عن (العقل العربى) ومع الرسالة خطة مفصلة لمحتويات الكتاب، والإشارة إلى الفصول التى أرغب فى تحريرها عند الموافقة. ورغم أن العناوين العامة للفصول لا تدل على أى تحيز واضح، إلا أننى خشيت من الدخول فى مغامرة المشاركة مع مؤلف لا أعرف هويته ومقاصده؛ لذلك قررت أن أكتب له معتذر لمشاغلى الكثيرة.

ثم يظهر الكتاب بعد سنتين من تلك الرسالة A. Patai, The Arab Mind أقرأ الكتاب، وإذا فى صفحاته تنبث آيات التحيز وسموم الصهيونية فى توضيح عوامل

تخلف العقل العربى (هكذا عقل كل عربى بالجملة!!) من تأثير لبنية اللغة العربية والدين الإسلامي، ونظم الحكم وغيرها من عوامل تدهور ذلك العقل العربي. حمدت الله أنى لم أشارك فى تلك الدراسة اللا علمية واللا تاريخية، والتى تمتلىء بالتحيزات والاستعلاءات الصهيونية لدى " شعب الله المختار".

وتمضى الأيام والسنون، حين كنت فى اجتماع بمكتب برنامج الأمم المتحدة للتنمية فى نيويورك فى أواخر السبعينيات؛ لتطلب منى إحدى المشاركات اللقاء فى نهاية الاجتماع (وكانت رئيسة اتحاد موظفى الأمم المتحدة فى نيويورك). وفى حديثها ترجونى نيابة عن (بتاي) أن أحدد موعدًا للقائه قبل مغادرة نيويورك، فاعتذرت عن المقابلة نظرًا لضيق الوقت ولبعض ارتباطاتى المهمة عقب الجلسات. شكرتها ورجوتها أن تعلن للأستاذ (بتاي) عن عدم موافقتى على كثير مما كتبه فى (العقل العربي). وساعتها كنت قد عرفت أنها وباتاى يهود صهاينة؛ حيث كان الأخير أستاذًا فى جامعة أمريكية يهودية. وقرأت فيما بعد أن إحدى الدول العربية كانت ترسل بعض طلابها فى ندوات للحوار حول السلام وتداعياته فى العلاقة بين العرب وإسرائيل إلى تلك الجامعة.

* ومن غرائب الأمور ما جرى من نظام المراسلات أثناء عملى فى الأمم المتحدة بمكتبها فى بغداد. ونظرًا للظروف السائدة فى العراق خلال حقبة الثمانينيات، تم الاتفاق على أن يكون عنوانى البريدي: الأمم المتحدة فى نيويورك، حيث تقوم هى بدورها فى إرسالها مع الحقيبة الدبلوماسية إلى بغداد.

وفى عام ١٩٨٧م، كان الحزب الجمهورى فى الولايات المتحدة الأمريكية يقوم بحملته فى دعم انتخاب (رولاند ريجان) للمرة الثانية، ويعمل على جمع التبرعات لهذه الحملة من خلال (اللجنة القومية للحزب الجمهوري) التى كان يرأسها Frank Fahrenkopf، ووصلنى خطاب من اللجنة يدعونى باعتبارى عضوًا داعمًا لانتخاب (ريجان) ومعه بطاقة (عضو داعم) رقمها (٩٣٦٦١٨٢- ١٩٨٧م)،

ومعها بطاقة أخرى لتحديد قيمة التبرع من ١٥ دولارًا متدرجة حتى ٥٠٠ دولار، وما فوقها دون تحديد، وفيها العنوان الذى يرسل إليه شيك التبرع.

وعجبت بطبيعة الحال كيف وصل اسمى إلى هذه اللجنة، وكيف اعتقدت أنى من أنصار ريجان. وقد أعجبنى أيضًا أسلوب جمع التبرعات الذى يبدو أن الدعوة كانت ترسل لكل من يعتقدون أنهم قادرون على الإسهام فى تلك الحملة سواء من الأمريكان أو من غيرهم. لكن ظنهم كان خاطئًا بالنسبة لى، فلم أكن إذ ذاك إلا من الناقمين على سياسة ريجان فى فترة ولايته الأولى، بل ومن سياسة حزب المحافظين بصورة عامة، فيما يتعلق بقضايا الشرق الأوسط؛ وخاصة بالنسبة للصراع العربى الإسرائيلى امتدادًا إلى ولاية بوش الأكبر، ثم ابنه الصغير فى هذه الأيام (٢٠٠٥م). وما زلت محتفظًا بتلك الرسالة والبطاقة، وتظل مصدر استغراب وتعجب كلما صادفتها بين رسائلى التى احتفظ بها.

ثقافتى السياسية:

لدى إحساس بأن فى داخلى، فكرًا ووجدانا، رصيدًا ثريًا من تاريخ الحركة الوطنية، بعضه مما أودعه التعليم أيامنا فى عقولنا ونفوسنا، وأغلبه مما عايشنا هوامشه أو عانينا مشاهده وأحداثه. وأجدنى مدفوعًا إلى محاولة تسجيل شفراته ورموزه، وبعض أشرطته، وإن انمحت من الذاكرة تواريخها. وهى فى مجمل تفاعلاتها تمثل مركبًا لمعانى السياسة التى يضطرب بها الإحساس بالوطن، والوطنية ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا.

- ومن تلك الرموز أتصور ذلك الثائر زعيم الحزب الوطنى الشاب مصطفى كامل يصيح بنا (لو لم أكن مصريًا لوددت أن أكون مصريًا). وهاهو سعد زغلول زعيم الأمة وحزب الوفد يصرح فى ثقة باسم الشعب (لو رشح الوفد حجرًا لانتخبناه) ولا تسل عن مشاعرنا، ونحن نردد فى مدارسنا واحتفالاتنا:

اسلمى يا مصر إننى الفدا ... ذى يدى إن مدت الدنيا

أبـدًا لـن تستكـينـى ابــدا إننى أرجو مـع اليـوم غـدا

ومعى قلبى وعزمى للجهاد فأنت بعد الدين دين... الخ

وإليك ما حفظته عن والدى مما يرويه عن أحد الزعماء الدينين من نجع حمادى (أظنة الشيخ أبو الوفا الشرقاوي)، حين جاءت لجنة ملنر البريطانية لتبحث الأوضاع فى مصر فى أوائل العشرينيات من القرن الماضي؛ إذ قال لها عند مقابلتها:

لجنـة التحقيـــق إنــَّا قد أنبـأنا الوفـد عنَّـا

فاسألوا سعدًا فليجبكم لا جواب اليـــوم منـَّا

وربها كانت هذه المعانى هى الإجابة الشعبية فى مواجهة ما تقوم به اللجنة من تحقيقات.

- ومع معلم الجيل أحمد لطفى السيد، وهو يدعونا إلى أن (مصر للمصريين)، وأحمد حسين زعيم مصر الفتاة ينادى بأن (مصر فوق الجميع).

- عايشنا الشيخ حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين داعيًا إلى مكارم الأخلاق والاقتداء بالرسول (ﷺ) وبالخلفاء الراشدين، وبالتضحية فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام فى مقره بالحلمية، حفظنا عنه:

ولسـت أبالى حـين أقتـل مؤمنـًا

على أى جنبٍ كان فى الله مصرعي

- ونشارك فى الاضرابات والاحتجاجات هاتفين: (الاستقلال التام أو الموت الزؤام، يسقط هور وأبو هور) وكان وزيرًا للخارجية البريطانية، فيها أتذكر.

- ونقرأ فى نصوص الأدب لأبى العلاء المعرى دون حرج ممن المؤلفين:

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها

وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

- يموت سعد زغلول، تقوم مصر عن بكرة أبيها تعلن حزنها ورثاءها لفقده، كما تمثل فى قول حافظ إبراهيم شاعر النيل، الذى الذى قرأته فى صحيفة (البلاغ) على ما أتذكر:

قالوا دهت مصر دهياء قلت ويحكِمُ

هل غُيِّض النيل أم هل زلزل الهرمُ

قالوا أشد وأدهى، قلت ويحكــمُ

إذًا لقد مات سعد وانطوى العلــمُ

- وتحتدم معارك الحياة النيابية، ليلغى إسماعيل صدقى باشا دستور ١٩٢٣م، وليصوغ مكانه دستور ١٩٣١م، الذى شوّه وقلص سلطة الشعب ونوابه. ونجد جريدة (الشعب) مفروضة على العمد فى القرى، ونقرًا فى البلاغ قصة شارع الكورنيش فى الإسكندرية، وما أحاط بتنفيذه من فسادٍ إفساد.

- يتدخل الإنجليز ويدعون الملك لإسقاط وزارة وتأليف وزارة أخرى، والمليك (الديمقرطاني) لاهيًا عابثًا ماجنًا بين ملاهى الهرم وفجور كابري، كما تجلى فى صحيفة (البلاغ).

- نسمع عن مشروعات النائب إبراهيم شكرى ومحمد خطاب ومريت غالى مطالبين بالإصلاح الزراعي، ونجيب الهلالى وطه حسين داعين إلى تكافؤ الفرص التعليمية.

- وهذه هى جماعة الرواد ساعية بالجهود التطوعية إلى إصلاح حال الريف وتحسين أحوال الفلاحين، وما صاحبها من مشروعات من بينها مشروع مقاومة الحفاء.

أما بعد: فتلك بعض ذكريات الخبرة التى اكتسبتها من القرية والمدرسة والجامعة والمعايشة قبل الذهاب إلى البعثة، والتى ظلت تمثل جذور ثقافتى السياسية حتى

اليوم. أوردتها كما جاد بها الخاطر، ومع ذلك يمكن تصنيفها فى محاور ثلاثة: ثقافية سياسية ترتكز على استقلال الوطن وحرية إرادته، وأهمية مؤسساته البرلمانية فى تمثيل الإرادة الشعبية، وكرامة العيش للمواطن التى يصونها العدل الاجتماعي.

وقد استقرت هذه المعايير الثلاثة هادية لى فى إثراء ثقافتى السياسية، عندما كنت فى إنجلترا، وفى مواقفى واستجاباتى مع التحولات فى أيديولوجية نظم الحكم فى حقبة ثورة يوليو بمبادئها الستة، ثم بتحولاتها الاشتراكية، انتهاء بالتحول الرأسمالى الانفتاحى السوقى منذ سبعينيات القرن الماضي.

ويمكننى تلخيص توجهاتى التى تبلورت بصورة عامة فى ضرورات تأسيس المجتمع الديمقراطي، القائم على مشاركة الشعب فى إقرار نظم الحكم ومؤسساته وعلاقات العيش المشترك حقوقًا وواجبات، وفى أهمية الحوار الجاد بين شرائح المجتمع وفئاته ومصالحه، وضمان مشاركة المواطنين فى فرص العمل مع ما يقتضيه ذلك من الجزاء الوفاق العادل لثمرات العمل وأجوره.



الحكاية الحادية والعشرون
من المشاهد العامة للإحباط

احباطات الكلية والجامعة:

* أوردت قصة تعييني في الكلية بعد عودتي من البعثة وما جرت فيها من مياه عكرة، وهنا أورد حكاية ترقيتي من مدرس (أ) إلى أستاذ مساعد، وكانت عمليات التعيين والترقيات - تتم في معظم الأحوال - على أساس الإعلان في الصحف عن الوظيفة ومواصفاتها وشروطها. وفي سنة ١٩٥٨ مضت المدة القانونية التي استحق الترقية بعدها. يتم الإعلان عن وظيفة أستاذ مساعد بكلية التربية جامعة عين شمس. وظننت أني سوف أكون المؤهل الوحيد للحصول عليها من أعضاء قسم أصول التربية.

وفجأة يحرك أحد كبار الأساتذة في القسم شخصًا آخر من خارج الكلية للتقدم لهذه الوظيفة، وهو الدكتور محمود بسيوني، أستاذ التربية الفنية في المعهد العالي للتربية الفنية، وقد كان تابعًا لوزارة التربية والتعليم، قبل أن يصبح إحدى كليات جامعة حلوان عام ١٩٧٦م. وهو أستاذ قدير وفنان له بصماته في إعداد معلمي

التربية الفنية، بل وكان رحمه الله زميلًا فى المدرسة النموذجية الابتدائية بحدائق القبة، وكان الأستاذ سعد الخادم الفنان المبدع مدرس التربية الفنية معى فى المدرسة الثانوية (وأقصد من هذا الاستطراد بيان كيف كان رائد التربية الحديثة إسماعيل القبانى يختار مدرسيه لهاتين المدرستين النموذجيتين). وقد كان المتقدم للوظيفة د. محمود بسيونى مستوفيًا للشروط من حيث مؤهل الدكتوراه، والمدة والخبرة التدريسية.

أصابنى الإحباط حين سمعت النبأ وخلفياته التى حركته، وتمضى الأسابيع ثقيلة مكفهرة، قبل أن تجتمع لجنة الترقيات التى كانت تتألف من بين أساتذة الكلية، ومن أعضائها ذلك الكبير المحِّرك.. وفجأة تنفتح طاقات الفرج ليستبعد طلب د.بسيونى من الترشيح فى أول جلسة للجنة، حيث تبين لها أن من بين شروط المتقدم أن يكون حاصلًا على درجة الليسانس أو البكالوريوس من إحدى الجامعات المصرية أو ما يعادلها. ولما كان المتقدم الثانى حاصلًا على دبلوم معهد التربية الابتدائى (سنتان بعد الثانوية) أو مدرسة الفنون التطبيقية، أعتبر طلبه غير مستوف للشروط لأن شهادتها غير معادلة للشهادة الجامعية. وأصبحت بذلك المرشح الوحيد بإنتاج علمى مناسب، وتأهلت لأكون أستاذًا مساعدًا.

* كذلك أجد من الأمور التى تدعونى إلى التأمل.. فمرارة الإحباط أن كلية التربية لم يخطر على بالها أن ترشحنى (لجائزة جامعة عين شمس التقديرية) مع أنى كنت حاصلًا على جائزة الدولة التقديرية وجائزة الكويت للتقدم العلمى. ويأبى علىَّ اعتزازى بنفسى أن اذِّكر الكلية بذلك، وليس فيها ممن حصل على مثل تلك الجوائز.

بيد أنى بعد أن حصلت على أكثر مما استحق من الجوائز والشهادات التقديرية لبعض مؤلفاتى، أثرت الموضوع من قبيل العتاب مع رئيس الجامعة أ.د. صالح هاشم الذى أراد أن يقنعنى بأن عندى من الجوائز ما هو أهم من جائزة الجامعة،

فكان ردى بأنه ليس هناك ألذ ولا أشهى من مذاق طعام بيتي، وما كان منه إلا أن ينصرف إلى هاتفه ليرد على أحد الباشوات فى الطرف الآخر.

* ومن إحباطاتى ومراراتى من مواقف الكلية كذلك، والتى يصعب تبين كنهها ومبرراتها، أن جاءت إلى أقسام كليات التربية والعلوم بالجامعات، رسالة من المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتونس، يطلب فيها ترشيحات لجائزة المنظمة التقديرية لعام ٢٠٠٠م فى مجال مستقبل التنمية البشرية العربية، يصلنى قرار مجلس الكلية بترشيح خمسة من الزملاء الأفاضل، واسمى مدرج فى آخر هذه القائمة (لم يكن الترتيب فيها حسب الحروف الأبجدية أو الأقدمية). ومن عجيب أن يخبرنى وكيل كلية العلوم بجامعة حلوان إذ ذاك، أ.د. عبد الحكيم طه قنديل، بترشيح الكلية والجامعة لى لنيل تلك الجائزة، وأعلم بعد ذلك أن كلية التربية الرياضية بجامعة حلوان قد تقدمت بترشيحى أيضًا.

وعلى الرغم من أنى كنت آخر قائمة مرشحى جامعة عين شمس وقع اختيار المنظمة على هذا الأخير، وبعثت لهم بإنتاجى، ونلت الجائزة مناصفة مع تربوى عراقى رصين، ومجدد هو أ.د. محمد جواد رضا، الأستاذ بجامعة البحرين ومستشار وزير التربية والتعليم حاليًا.

* ومما يدعو إلى الحيرة والقنوط مشهد ثالث حين نلت جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٩٤م، حين جاءت كما سبقت الإشارة – لا بترشيح الجامعة – وإنما بترشيح جمعية الدراسات النفسية، التى كان يرأسها تلميذى النابه أ.د. فؤاد أبو حطب رئيس قسم علم النفس التعليمية ورفاقه من تلامذتى بالقسم، وكانت قيمتها خمسة آلاف جنيه مخصومًا منها الضريبة. وقد تبرعت للجمعية بألف جنيه منها، وأردت أن اتبرع للكلية بمبلغ الجائزة كاملًا خمسة آلاف جنيه، قابلًا للزيادة كلما يسر الله لى فى الرزق، كوديعة يخصص عائدها السنوى لجائزة رمزية، تمنح للحاصل على أعلى مجموع فى مادة أصول التربية فى شهادة الدبلوم الخاصة.

بعثت بهذه الرغبة فى رسالة إلى رئيس قسم أصول التربية فى الكلية، ووافق عليها مجلس الكلية التى أحالها إلى رئيس الجامعة،وكان ذلك فى أوائل عام ١٩٩٥م. وحتى الآن لم تصلنى أو تصل الكلية أية استجابة بالقبول أو حتى بالرفض من رئيس الجامعة. ألا يستحق هذا ما كان يختتم به صلاح جاهين رباعياته عجبى.. عجبى !!

كانت هذه استجابة جامعة عين شمس، وفى مفارقة معها ما حدث مع جامعة جنوب الوادى حين نلت جائزة الكويت للتقدم العلمي. ويحدث أن يدعونى عميد كلية التربية فى أسوان الأخ العزيز، أ.د. أحمد كامل الرشيدي؛ للمشاركة فى مناقشة رسالة الدكتوراه لأحد طلابه، وقد جعلها ضمن برنامج أعده للاحتفاء بابن أسوان لنيله تلك الجائزة. وعقب المناقشة، تهيأت القاعة لحضور رئيس الجامعة والمحافظ، وقد احتشد فيها جلوسًا ووقوفًا جمع غفير من " بلدياتى " لتهدينى الكلية (مسلة فرعونية) منقوش عليها عبارة تقدير باسمي.

وعقب الحفل أبديت رغبتى لعميد الكلية للتبرع بالمبلغ نفسه وللغرض نفسه الذى تبرعت به لكليتى فى جامعة عين شمس.. حررت رسالة موجهة له فى هذا الشأن، والتى حولها إلى رئيس الجامعة. ولم يمض شهران على ذلك، ليصلنى خطاب من رئيس الجامعة جاء فيه (يسعدنى أن أنهى لسيادتكم بأن مجلس جامعة جنوب الوادى قد قرر بجلسته المنعقدة فى ١٩٩٦/٣/١٢ قبول التبرع من سيادتكم... وإنى لأشكر لكم أصدق الشكر وأعمقه كريم تفضلكم).

المفارقة واضحة بين استجابة الجامعتين، لا تحتاج إلى تعليق.

ومع ذلك فإننى لم أعرف حتى الآن ماذا تم فى توظيف ذلك التبرع، ولقد حاولت الاستفسار عنه عدة مرات، وقد مضى عليه حوالى ٩ سنوات !! وإذا كان عجبى مرتين بالنسبة لجامعة عين شمس، يكفى عجبى مرة واحدة فى حالة جامعة جنوب الوادى !

* ثم إليكم قصة أستاذ، اكتشفت أنه يغترف من كتابات الآخرين بحروف أسلوبهم دون الالتزام بالقواعد العلمية للاقتباس، وفى عشرات من كتبه. وقد كتبت فى شأنه إلى الجامعة، فلم تصدر فى دعواى أى حكم حتى الآن، وقد مضى على المسألة ست سنوات. وهى تطبق علينا أحسن سياسة لديها (أكفى على الخبر ماجور) كما يقول المثل الشعبى أو (لامين شاف ولامين سمع ولامين قال)، تشبهًا بتماثيل الصين الثلاثة.

وفحوى دعواى أنه من أوليات الأخلاقيات فى البحث العلمي – بل ومن بدهياتها – أن يسند أى رأى يستعين به الباحث أو المؤلف إلى مرجع صاحبه الأصلي. وفى هذه الحالة يقوم المؤلف بصياغته فى أسلوبه الخاص بحيث يندمج ويتفاعل مع آرائه: توضيحًا أو تفسيرًا أو نقدًا أو تأسيسًا. والوجه الثانى هو الاقتباس الذى يورد فيه المؤلف العبارات نفسها بصياغتها الحرفية من المصدر الأصلي؛ شريطة أن يوضع النص المقتبس بين علامتى التنصيص، رمزًا لأمانة المؤلف فى الحفاظ على الصياغة الأصلية. ومن المتعارف عليه أيضًا ألا يتعدى هذا الاقتباس المنصص أسطرًا معدودات، وألا يكثر المؤلف فى نقل هذا النوع من الاقتباس فى أكثر من نصف الكتاب؛ بحيث يتعذر علينا تبين آراء المؤلف وتوجهاته الفكرية فيما يكتب.

ومعذرة فى سرد هذه البديهيات؛ إذ أجد نفسى مضطرًا لها نتيجة لملاحظتى المتكررة بإهمالها فى عدد قليل من الرسائل الجامعية، ثم ألفيت بعد حين أنه لم يبرأ من الاجتراء عليها بعض من كتابات الأساتذة. ويتمثل ذلك بوجه خاص فى إيراد عشرات وعشرات من نقل نصوص المراجع بصياغة صاحبها الأصلي نفسها، دون علامات التنصيص، على زعم إن الإشارة إلى المرجع فى الحاشية كافية. ولكن ذلك شرط لازم وليس بكاف فى الأمانة العلمية، التى ينبغى أن تكون ضوابطها كاملة غير منقوصة، وغير قابلة للتجزئة أو الاختزال. وذلكم هو شأن الشاهد العدل، حين ينبغى عليه أن يقرر (الحق، وكل الحق، ولا شيء غير الحق).

ويلجأ المؤلف إلى مختلف الحيل المألوفة فى التمويه، كتغيير الجملة الأولى من النص المقتبس حرفيًّا، أو إلى حذف بعض المصطلحات أو الأسماء الأجنبية، بل وإلى نسبة بعض آراء الغير إلى كتاباته، أو إلى حذف بعض الأسطر، أو إلى تغيير مثال رياضى من ٥×٥ إلى ٤×٤، أو الإشارة إلى مرجع بعنوانه الأجنبي، مع أنه اقتبس من ترجمته العربية. وفى أحيان أخرى ينقل حرفيًّا – دون تنصيص – من بعض رسائل الماجستير، مشيرًا إليها فى الهامش مع إضافة عبارة (وقد تمت تحت إشرافنا) كما لو كان ذلك مسوغًا للملكيتها والنقل عنها. والغريب أن صاحبنا لم يصبه أى قلق البتة من اختلاف الأساليب فى صفحات كتبه؛ نظرًا لاختلاف أساليب أصحاب المراجع التى اغترف منها.

وقد دعا أحد كبار الصحفيين فى إحدى تعليقاته على هذه المسألة، عند نشر إحدى مقالاتى حول هذا الموضوع، أن على من له رد أو رأى آخر فى هذه القضية يسر الصفحة أن تنشره.. لا رد ولا تعليق من أحد على هذه المسألة حتى اليوم. وكنت كلما حاولت مناقشة ذلك الأسلوب من (التلاص) يبرر لى الزملاء بأن (الكل بيعمل كده حتى فى الكليات الأخرى). وهذه أخلاقية من نوع آخر للتبرير وإزاحة المسئولية والالتزام. ولقد وجدت أن بعضًا ممن نشرف عليهم من الطلاب، كغيرهم فى كل كليات التربية ورسائلها يتبعون طريقة (القص واللصق) من أساليب الآخرين. ومع تحذيرى لهم، لا اشك فى أن بعض مظاهر هذا (التلاص) قد تسربت إلى رسائلهم.

واذكر أن أحد طلابى من الأقطار العربية قدم فى فصول رسالته بيانات واقتطافات من مراجع صادرة فى بلده، بيد أنه ليس لدىَّ وسيلة للتحقق من أنها ليست منقولة حرفيًّا؛ حيث ان مراجعها ليست متاحة لدىّ، فما كان منى إلا استحلفه بأنها ليست منقولة نصًّا وحرفًا. والواقع أن بعض الكليات والجامعات تتغاضى عن الاعتراف بخطايا الاجتراء على الأمانة العلمية، حرصًا على سمعة

الكلية ومكانتها، مع أن الأجدر بها أن يكون ذلك من ميزاتها، كما أن العقوبة فى معظم الحالات ليست رادعة.

* ومشهد آخر من مشاهد إحباطي، مع ثقل التحديث عن النفس، لكنني اعتبره من الأخلاقيات الشائعة، عدم الاعتراف بالفضل لمن يستحقونه. واذكر أنه بعد حصولى على جائزتى التقديرية والكويت للتقدم العلمي، لم تدرجنى لجنة التربية وهى إحدى اللجان التخصصية فى الأمانة العامة للمجلس الأعلى للثقافة مكونة من زملاء فى كليات التربية، ضمن من يستحقون التكريم فى برامجها السنوية التى تنظمها كل عام. وتقيم لذلك ندوة يعد فيها بعض أعضاء اللجنة دراسة عن المعالم المتميزة، التى ساهم فيها المكرم، سواء من الأحياء أو ممن انتقلوا إلى رحمة الله. وهذا تقليد رائع أسهمت فى أول ندواته بكلمة افتتاحية؛ تأكيدًا للقيم المتضمنة فى هذه المناسبة والمتمثلة فى مركب من العرفان والتقدير والإعزاز والوفاء والقدوة، وختمت كلمتى فى تلك الندوة الأولى فى عام ١٩٩٥م داعيًا (لنغتنم هذه المناسبة لكى نستمد من عطاء أساتذتنا المكرمين قبسًا ينير طريقنا، ويصحح مسيرتنا، ويجدد طاقاتنا نحو استكمال مسيرتهم، جهدًا وفكرًا وإبداعًا وقيمًا...).

وقد تساءلت بينى وبين نفسى لماذا أحرم من هذا التكريم من الزملاء، وقد كرمنى غيرهم. وقد أسرَّ إلى أحد المنصفين الذى ذكرَّهم بتكريمى ليكون الرد (عنده كفاية تكريم) عجبى !!!

ويجيء تكريم لجنة العلوم الاجتماعية (وهى أيضًا من لجان المجلس الأعلى للثقافة) برئاسة الأستاذ الجليل د. أحمد أبو زيد؛ ليزيل المرارة العالقة من لجنة التربية. تعد لجنة العلوم الاجتماعية ندوة حوارية فى مبنى المجلس الأعلى للثقافة، يتولى فيها الصديق المبدع أ.د. أحمد زايد (عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة حاليًا) توجيه أسئلته حول قضايا تطور المجتمع الريفي، والتنمية ومشكلات التعليم؛

لأقدم فى استجابة لها بعض ما تبلور من أفكارى فى تلك القضايا، إلى جانب بعض الأسئلة من الأساتذة المشاركين، إنها فكرة رائعة وتكريم أروع.

* ومما يحبطنى فى أجواء القسم والكلية أنك نادرًا ما يدور بين أعضائهم أو أقسامهم مناقشات أو حوارات علمية. وفى حالتي، سواء فيها أصدر من كتب أو فيها أكتب من مقالات صحفية، لا أجد فى القسم إلا أستاذًا واحدًا هو أ.د. محسن خضر يتابع ويناقش ما أحرره. وفى بعض الأحيان كنت على سبيل الهدية أوزع نسخًا من إنتاجى ومقالاتي، لكن دون جدوى فى الاستجابة لأى تعليق عليها تقريظًا أو نقدًا. والمشكلة أننا لا نقرأ لبعضنا البعض، ولا يتفاعل بعضنا مع بعض، اللهم من خلال ممارسة العضلات فى فراغ السيمنار أو المؤتمرات العلمية قليلة البركات. وأبالغ لأزعم أننا لا نمارس عادة القراءة أصلًا !!

* وأخيرًا وليس آخرًا، دعونى أتساءل، ولا مانع لدى أن أتثاقل، لماذا لا أجد لى مكانًا فى المجالس القومية المتخصصة، وبها لجنة للتعليم، ينضم إليها بعض زملائى من جيلي، كما يحظى بشرف عضويتها كثير من تلامذتي. ومنذ أن عدت من عملى فى الأمم المتحدة أى منذ حوالى عشرين سنة تتابع على رئاسة هذه المجالس د.عبد القادر حاتم، د. عاطف صدقي، وهاهو اليوم يشرف عليها أ. كمال الشاذلي. ألم يتذكرنى أحد منهم، أم أننى لست أهلًا لعضوية لجنة التربية. وربما ظنوا أننى بياع فجل أو جرجير، وما أشعر به من تجاهل لا يحبطني، ولا يترك مرارة، وحتى لو عرضت على عضويتها فسوف أعتذر؛ إذ البركة فيمن فيها، وبركه يا جامع كما يقول المثل الشعبى. وأنا واثق من ذلك الحائط الذى يمنع دخولى إليها ومبرراته وشعوره بالنقص !!

* وأخيرًا لا أريد أن أثقل على القارئ ببعض همومى التافهة؛ حين أحيطه علمًا بأننى مستبعد من عضوية لجان الترقية لأننى تجاوزت العمر الافتراضى للقدرة على المشاركة فى مهامها العلمية الجليلة. لكن ذلك هو القانون والتشكيل الرسمي،

ولا راد لقضاء أى منهما. أما أن استبعد حتى من تحكيم ما يتقدم به أعضاء هيئة التدريس من بحوث للترقية، فهذا أمر يستحق التأمل.

والخلاصة أننى حين أوردت تلك المشاهد مما سميته إحباطًا شخصيًا، فإنما أردت أن أقدم بعض المؤشرات لما يسود من خلل وتشوه وتلوث فى الأجواء الجامعية؛ حيث تجرى تلك المشاهد فى الوقت، الذى تتعالى فيه الصيحات والشعارات فى الخطاب الرسمى بالجودة الشاملة وبإعداد المعلم منشئ أجيال المستقبل، وبالجامعة قائدة العلم والمعرفة وذخيره المجتمع فى معارك التنمية والتقدم؛ لتحتل مصر مكانتها الجديرة بها بين الأمم.

وأحسب أن لدى غيرى من الأساتذة خبرات غزيرة من هذه الاحباطات فى حياتهم الجامعية. ولعل ما أعانيه دون أن يشل حركتى – شريحة صغيرة، وقد تبدو تافهة مقارنة بمعاناة آخرين.



الحكاية الثانية والعشرون
من اللطائف والاحتفاءات المفاجئة

من لطائف الرسائل:

* من المفاجآت السارة ما كان يصلنى من رسائل بعض الأفراد من الأقطار العربية، منها مجموعة رسائل بعث بها الأستاذ (ناجى بن سالم الهدنه) من نجران فى المملكة العربية السعودية، وهو من المهتمين بقضايا التعليم فى المملكة، حسب تعبيره فى إحدى خطاباته (إن موضوع التعليم يستولى على تفكيرنا)، وقد بدأ تراسلنا بعد أن قرأ مقالًا لى فى مجلة (العربي) الكويتية، حول فكرتى الساعية إلى استخدام (مفهوم الشجرة التعليمية)، واقتضاءاتها فى تطوير التعليم بدلًا من (مفهوم السلم التعليمي). ولعل رسالته المؤرخة ٢٧/ ٦/ ١٤٢٤هـ ٢٦/ ٨/ ٢٠٠٣م تظهر موضوع هذا التواصل؛ حيث يقول فيها(إن ذكرك فى نفسى دائمًا من خلال مشروعك العظيم الشجرة التعليمية، والتى استشهد بها كلما يأتى إصلاح التعليم) ويختم تلك الرسالة بعبارة عذبة (سلامى لنفسك الكريمة، وختامًا استودعكم الله الذى لا تضيع ودائعه – محبكم ناجى ناصر

سالم الهدنة) وقد أرسلت له بعض مؤلفاتى مع أحد الزملاء الذين يعملون فى نجران.

* ورسالة أخرى موجزة من معلم جزائرى (ميلود بن عزايز) بتاريخ (١٩ ذى الحجة ١٤٢٦هـ) يقول فيها (إلى فضيلة الدكتور حامد عمار... مقدرًا لشخصكم الكريم... راجيًا أن ترسلوا إلى نسخة كهدية غالية من كتبكم. فى بناء البشر، فى بناء الإنسان العربي، وقضايا تربوية. وجزاكم الله عنى خير الجزاء) وقد أرسلت له بالبريد نسخة من الكتابين الأخيرين.

* ومن لطائف الرسائل المفاجئة رسالة دمشقية بتاريخ ٩ آيار ١٩٩٦ من أحد الأساتذة السوريين، من بين من التحقوا بمركز سرس الليان منذ أربعين عامًا، وهو الأستاذ (أنور كديمي). وقد تذكرنى حين أطلع فى مجلة (العربي) الكويتية على (حوار وجهًا لوجه) أجراه معى الزميل المريد أ.د. محسن خضر. واقتبس فى مطلع رسالته مقولة د. محسن (أنا أحد آخر خريجى عباءتك) مضيفًا إليها مع د. رشدى خاطر. ومما أعجبنى فى رسالته أنه أطلع أفراد أسرته على حوار المجلة (لقراءته وتفهم ما جاء فيه، قائلًا لهم: كنت أتلقى المعرفة والخبرة والتدريب من أساتذة بهذا المستوى، وأحدهم د. حامد عمار...) كما ورد فى رسالته التى ختمها بإخبارى عن مسيرة حياته، منذ أن تخرج فى مركز سرس الليان عام ١٩٥٦م. وما أحلى وقع الوفاء فى النفس من أى مصدر أتى، طالما كان خالصًا مخلصًا.

* وإليك – أيها القارئ– رسالة أطرف وأعجب، أنقلها بنصها لقصرها وعميق دلالتها:

بسم الله الرحمن الرحيم

(بالقلم الأحمر) السيد مندوب منظمة حقوق الإنسان بمصر..

(بالقلم الأزرق) تحية طيبة – وبعد..

أرجو من سيادتكم قبولى عضوًا فى المنظمة الأهلية لأدافع عن حقوق الأطفال والإنسان فى مصر ومستقبلهم.

الاسم (بالأحمر) زينب عبد المحسن محمد أحمد عطوه الرفاعي

السن (بالأحمر) ١٣ عام

العمل (بالأحمر) طالبة بمدرسة الدبابية الإعدادية المشتركة

السكن (بالأحمر) الدبابية – بركة السبع – منوفية

نرجوكم الرد..

وتفضلوا بقبول الشكر،،،

وعلى الغلاف العنوان التالي:

روكسى – القاهرة

يصل ليد/ السيد مندوب منظمة حقوق الإنسان بمصر /

د. حامد محمد عمار – أصول التربية

هذا نص الخطاب الذى لم أتبين تاريخ إرساله حتى على خاتم البريد، وأعتقد أنه ورد إلى الكلية منذ أكثر من خمس سنوات. واستجابة لطلبها سعدت بالرد عليها مبديًا إعجابى بها وبمدرستها، التى جعلتها تهتم بحقوق الأطفال والإنسان، وتريد فى هذا العمر أن تدافع عنها، ومتمنيًا أن يكون لدى البنات والبنين بمدارسنا فى القرية والمدينة وعى واهتمام بهذه المسألة، ودعوت لها بالتوفيق والنجاح حتى تكمل دراساتها فى الجامعة. وعندئذ يمكنها أن تلتحق بجمعية أهلية، سواء فى القرية أو المحافظة أو القاهرة، مهتمة بحقوق الطفل والإنسان، وسوف تكون عضوًا مهمًا فى هذه الجمعية، إذا ما استمرت متابعة للقراءة فى هذا الموضوع.كذلك أبديت لها إعجابى بالبحث أو السؤال عن اسمى وعنواني؛ حيث إنى إستاذ فى كلية التربية

بجامعة عين شمس، مهتمًا بقضايا حقوق الإنسان وحقوق الطفل المصري، وليس مندوبًا لمنظمة حقوق الإنسان بمصر.

كان ذلك ردى، لكن سطور تلك الرسالة والشوق المعرفى والرغبة فى الإسهام فى عمل اجتماعى سياسى لدى هذه الطالبة، قد أثار ما يمكن أن تكوّنه مدرسة أو يغرسه معلم فى ريف مصر، من اتجاهات وطنية فى مرحلة المراهقة. ولو تركت الحرية لقلمى لحررت مقالًا طويلًا فى دلالات هذه الرسالة.

إن هذه الرسالة تبعث الأمل فيما يمكن أن يقوم به التعليم الملهم من رؤى واهتمامات لأجيال المستقبل المأمول.

* ومن لندن إلى سيراكيور، أتلقى رسالة مفاجئة من الإنترنت حين أطلب من ابنتى (سلوى) أن تبحث لى على مواقع الإنترنت عن أحدث الكتب فى مجال التربية والاجتماع والانثروبولوجي. وبعد دقائق تأتينى بورقة مكتوب عليها اسم كتابى المطوَّر من رسالتى للدكتوراه ,Growing up in an Egyptian Village Silwa, Aswan, Province, Routledege, U.S.A., 2003. أدهشنى أن يكون هذا كتابى الذى نشرته هذه الدار عام ١٩٥٤م فى ثلاث طبعات متتالية فى لندن، كما نشرته **Octagon Books** فى نيويورك فى طبعتين بين عامى ١٩٩٦-١٩٧٣م.

ومنذ ذلك الحين، انقطعت أخبار ذلك الكتاب الإنجليزي، كما مضى على استقبال مستحقاتى الضئيلة من عوائده أكثر من ربع قرن. وبذلك أعتقدت أنه لم يتم طباعته، وانتهت سوقه.وهاهى سلوى تؤكد لى أن الكتاب قد أعيد نشره عام ٢٠٠٣م. تبادر بطلب نسخة من الكتاب من المكتبة الشهيرة Barnes & Nobles أطلع على الكتاب، أسمى عليه فى الغلاف الخارجى والصفحة الأولى بالعنوان، محذوفًا منها ما كان تحت اسمى من الوظيفة (مدرس بجامعة إبراهيم)، ومكتوب فى

حاشية من هذه الصفحة (لقد بذلنا كل الجهد للتعرف على عنوان المؤلف فلم نستطع الاهتداء إليه) وكانت جامعة إبراهيم قد تغير اسمها إلى عين شمس، ويبدو أننى لم أغير هذا العنوان، عندما أرسلت نسخة الكتاب إلى الناشر فى لندن عام ١٩٥٢م.

وقد عدت إلى ما تم بينى وبين الناشر فى لندن من تعاقد، لعلى أجد ذريعة لمقاضاة الدار الأمريكية، فتبين لى أننى تنازلت لها عن حق النشر مدى الحياة. والواقع أننى كنت سعيدًا فى ذلك الوقت بنشر الكتاب – مهما كانت الشروط– فى السلسلة المرموقة:

International Libray of Sociology and Social Reconstruction.

والتى كان رئيس تحريرها (كارل مانهايم قبل وفاته)، وكان اعتزازى إلى جانب ذلك بأنها أول رسالة دكتوراه تنشر لمصرى فى مجال اجتماعيات التربية، ويستمر عليها طلب من عام ١٩٥٤- ٢٠٠٣م، وهى على حد علمى أول رسالة دكتوراه لمبعوث مصرى إلى الجامعات البريطانية يتم نشرها من رسائل التربية، وأظنها آخرها حتى اليوم.

اللطائف الصحفية المفاجئة:

* تهدى إلى مجلة روز اليوسف – حيث تتضاعف متعتى، ويشتد اعتزازى بما يرد فى الصحف والمجلات من لطائف مفاجئة -بتاريخ ٢٩/ ٩/ ٢٠٠٠م (وسام الاحترام) ومن تقاليدها كما هو معروف أن تختار فى كل أسبوع شخصية مصرية لها بصماتها فى حياة المجتمع تقدم لها ذلك الوسام، مع صورة له، وجاء تحت صورتى عنوان (بنَّاء العقول) اقتبس من إهدائها، (وفى كل مجتمع فئة من النخبة – ضئيلة للغاية – تدفع بها قدراتها ورؤيتها إلى ساحة بناء عقل الأمة والإسهام فى تطوره. ومن هذه الفئة فى مصر الدكتور حامد عمار. وبسبب رصيده العلمى العريض وإسهامه الدائم فى بناء عقل المجتمع، يوصف بأنه

"شيخ التربويين" في مصر... وعلى خلاف كثيرين، اكتسب حامد عمار مكانته من تمتعه بعين نافذة، وهو صاحب رؤية خاصة... مزج في دراساته بين دوائر الاجتماع والتاريخ والتربية... حامد عمار أستاذ يمثل قيمة، وإن كان هناك من يختلف مع آرائه، إلا أن إلهامه الفكرى النابغ والمبادر كان ركنا أساسيًّا في بناء العقل المصري. وهى عملية صامتة يقوم بها المفكرون، فيما يشبه العبادة داخل محراب خاص، لذلك كله، ولكثير غيره، نحن نقدم له وسام الاحترام).

* وفى مجلة الهلال بتاريخ فبراير ٢٠٠١م تصدَّر العدد فى افتتاحيتها (عزيزى القارئ)، (يصادف هذا الشهر ميلاد الدكتور حامد عمار شيخ التربويين العرب حيث يبلغ الثمانين من عمرة المديد...)، ويجيء فى عرض ملامح إنتاجى (وقد انحاز حامد عمار إلى الإنسان وتنمية الوطن وهموم الكادحين والبسطاء من أبناء هذا الوطن، ليس لأنها قضايا عدل اجتماعى فحسب؛ بل لأنها قضايا نهضة أمة وعزة وطن).

* ومفاجأة الدكتورة (مارلين تادرس) فى زيارة منزلية على غير موعد لتحاورنى فى معالم مسيرتى، ولتعرضها فى صحيفة (الأهرام الأسبوعية باللغة الإنجليزية Ahram Weekly)، فى الصفحة المخصصة " للبروفيلات " الشخصية جاء فيها بعنوان:

Hamed Ammar,

Educational Revolutionary

(Chance and prodegious intelligence took H. Ammar, from a poor upper Egyptian family to become one of the country's leading academics. A vociforous commentator on education, he campains vigorously to preserve the principle of the right of the underprivileged to free schooling. This principle, which was widely implemented by the Revolution of 1952, is increaingly threatened by the burgeoning population and the infamous private lessons system...).

الترجمة:

حامد عمار..

تربوى ثوري،،

بالصدفة والذكاء العالي، تمكن حامد عمار من النقلة من أسرة فقيرة فى صعيد مصر إلى أن يصبح واحدًا من القادة الأكاديميين فى مصر، ولقد كافح بقوة من خلال تعليقاته الصارخة؛ من أجل الحفاظ على مبدأ حق الفئات المحرومة فى التعليم المجاني. وقد أرست ثورة ١٩٥٢م هذا المبدأ على أوسع نطاق، بيد أنه قد ازداد تهديده بتأثير نمو الفئات المتزايدة الجديدة من السكان، ومن نظام الدروس الخصوصية المشين.

وفى (الأهرام الأسبوعى باللغة الفرنسية Ebido) يكتب الأستاذ (أحمد لطفي) دون مقابلة بيننا عرضًا لمسيرتى بعنوان:

Hamed Ammar:

Le champion de l'education pour tous.

Hamed Ammar est l'un de specialistes de la pedagogie en Egypte. Institeur de la sociologie de l'enseigment, it est aujourdhui un fervent adept de l'education pour tous, et combat l'elitisme sous toutes ses forme).

الترجمة:

حامد عمار..

رائد التعليم للجميع،،

حامد عمار واحد من المتخصصين فى التربية فى مصر، ومن خلال ريادته فى مجال اجتماعيات التربية، أصبح اليوم خبيرًا يتقد حماسًا فى الدعوة للتعليم للجميع، ومقاومة التوجهات النخبوية بكل أشكالها.

* وفى صحيفة الأهالى نشرت بتاريخ ٢/ ١/ ١٩٩٦ استفتاء أجرته بين العاملين بها من مجلس إدارة ومحررين وعمال، وعددهم (٧٥) شخصًا حول أبرز ١٦ متميزًا من شخصيات العام فى المجالات المختلفة، التى حددها الاستفتاء فى السياسة، الاقتصاد، الرياضة، الأدب، الإعلام، التمثيل، الإخراج، الغناء، النقابات، التلحين، الفن التشكيلى، الفكر، النشر، التربية، الطب. وسعدت حين وجدت اسمى من بين تلك الكوكبة: وهم الأساتذة والدكاترة: عمرو موسى (السلم من أول درجة) –إسماعيل صبرى عبد الله (أبو السباع) رانيا علوانى (فراشة مصر الذهبية)– بهاء طاهر (أيها الملك جئت) طارق علام (الموجة الصحيحة)، عادل إمام (كل هذا الحب) – يوسف شاهين (رحابة العينين) – كاظم الساهر – (عذب كالفرات) – محمد أبو منذور (البذور والطمى الأسمر) – نقابة الصحفيين (حماية الحرية) – كمال الطويل (لا مسافة بين القلب والقلب) – عدلى رزق الله (مائيات القلب) – نصر أبوزيد (إعمال العقل وروح الإنسان) – دار الثقافة الجديدة (التنوير والحصار) – حامد عمار (كاد المعلم أن يكون رسولًا) – ومحمد غنيم (التفتيش عن الداء).

ومع كل اسم ورمز لكفاحه وجهده نبذة قصيرة عن معالم تميزه. وفى حالتى تحت رمز (كاد المعلم أن يكون رسولًا) يقول المحرر (يا أستاذنا: سنقوم لك تحية وإجلالًا، فأنت المقصود بقول الشاعر:

قم للمعلم وفـه التبجيـلا كاد المعلم أن يكون رسولا

لك السلام والعافية

أجيال وأجيال تشع نورًا فى جوانب نظامنا التعليمى رغم كل الملاحظات – تناضل من أجل التطوير، جاءت جميعها على بساط يديك، فكم أنت فخور بهم، وكم نحن فخورون بك أيها المعلم الرسول).

* ومع صحيفة الدستور، وفى مقال افتراضى يكتب الصحفى الفذ إبراهيم عيسى بتاريخ ١٢/٥/١٩٩٦ مقالًا بعنوان: (بعض الضوء على حكومة الظل)، وهو نظام تتبعه الدول الديمقراطية وبخاصة انجلترا. وقد اجتهد فى تأليف وزارة حكومة الظل لكى يجمع بين السياسيين والحكماء، لا مجرد الفنيين والخبراء. ويعلن فى مقاله أنه لم يستأذن أو يسأل أحدًا ممن اختارهم لهذه المهمة. وقد اختار لهذه الوزارة مجموعة من الشخصيات العامة الوطنية؛ لتعمل على تأسيس نظام ديمقراطى ينشغل بحاجات الجماهير.

وفيما يلى تشكيل حكومة الظل، وتحت كل اسم منها مبررات اختياره:

١ – د. محمد عصفور: رئيسا للوزراء.

٢ – د. حامد عمار: نائب رئيس الوزراء ووزير التعليم.

٣ – المستشار يحيى الرفاعي: للعدل.

٤ – الأستاذة منى ذو الفقار: للخارجية.

٥ – د. محمد نور فرحات: للداخلية.

٦ – صلاح الدين حافظ: للإعلام.

٧ – الأستاذة تهانى الجبالى: للأوقاف.

٨ – د. يونان لبيب: للهجرة والتعاون الدولى.

٩ – د. فوزى حماد: للكهرباء والطاقة.

١٠ – السيد أبو العز الحريرى: للصناعة.

١١ – د. أحمد مستجير: للزراعة والنيل.

١٢ – الأستاذ حمدين الصباحى: للإسكان والمجتمعات العمرانية.

١٣ – د. سليم العوا: للشئون الاجتماعية.

١٤ – د. جودة عبد الخالق: للتخطيط والإدارة المحلية.

١٥ – د. محمد المخزنجى: للثقافة.

١٦ – مصطفى كامل السيد: لقطاع الأعمال.

١٧ – الأستاذ أحمد طه: للتموين.
١٨ – د. سامية سعيد: لمحو الأمية.
١٩ – الأستاذ كمال أبو عطية: للقوى العاملة.
٢٠ – الأستاذ أحمد نبيل الهلالي: لحقوق الإنسان.
٢١ – الأستاذ نجيب ساويرس: للسياحة.
٢٢ – م. عبد السلام شعث: للنقل والمواصلات.
٢٣ – الأستاذ طاهر أبو زيد: للشباب والرياضة.

وقد أورد هذا الصحافى البارق فى مبررات اختيارى للمنصب الوزارى، ما يلى:

(د. حامد عمار صاحب مشروع وطنى وقومى فى التعليم، ينطلق من فلسفة تقول: إن البشر هم أهم ثروات مصر على الإطلاق، وأن هذه الثروة لو أحسن استخدامها وصقلها، بمقدورها أن تعيد صياغة مستقبلنا والانطلاق إلى آفاق التقدم والازدهار الشامل...) ثم يشير إلى مؤهلاتى وخبراتى.

وقد كان هذا التخيل لتولى منصب وزير أمرًا لم يخطر لى على بال، لا فى أحلام اليقظة، ولا فى أحلام المنام. ومن الأمور الملاحظة فى مسيرتى أننى لم أتقلد رسميًّا أى منصب فيه صفة الرئيس أو المدير أو العميد، فما بالك بصفة الوزير وعلى كل حال جزى الله إبراهيم عيسى كل خير، فقد رفع ذلك من روحى المعنوية لبعض اللحظات.

* ومع صحيفة الوفد بتاريخ ١٨ يونيه ٢٠٠٥ وقضية انتخابات رئيس الجمهورية ومجلس الشعب القادمة التى تشغل الرأى العام، طالبت أحزاب المعارضة الكبرى (الوفد والتجمع الناصري) بضرورة تشكيل حكومة محايدة ومؤقتة لإدارة شئون البلاد فى الأشهر الخمسة القادمة للإشراف على تلك الانتخابات.
وكان منطلقها ضمان نزاهة الانتخابات، وحياد الإعلام ومحاولة تجنب كل ما قد يشوبها من تزوير أو ضغوط من قبل الحكومة.

وفى هذا السياق ترى الصحيفة أهمية اختيار شخصيات بارزة فى حكومة مؤقتة، ليس لها أطماع فى السلطة أو تحقيق الثروات، والحصول على المغانم، بل هى شخصيات تريد مصلحة هذا الوطن والخروج من الأزمة الحالية من احتكار الحزب الحاكم للعوامل المؤثرة فى الانتخابات. وتقترح الصحيفة أسماء الحكومة الجديدة من شخصيات محايدة مستقلة، وذلك على سبيل المثال وليس الحصر؛ مع بيان دورها فى الحياة المصرية.

وتقدم (٤٨) اسمًا تحت عنوان (مصر ليست عقيمة). وسوف نختار على سبيل المثال أيضًا بعض تلك الأسماء: المشير عبد الحليم أبو غزالة، د. كمال الجنزوري، د. عمرو موسى، د. عبد العزيز حجازي، د. محمد البرادعي، د. يحيى الجمل، د. فاروق الباز، د. مجدى يعقوب، د. سليم العوا، د. محمد عماره، د.عبد الوهاب المسيري، د. نصر فريد واصل، د. حمدى البمبي، السيدة/ جيهان السادات، د. سعاد صالح، د. نادية مكرم عبيد، فاتن حمامة، سهير المرشدي، نجلاء فتحي، يوسف شاهين، حمدى قنديل، د. محمد السيد سعيد، محفوظ الأنصاري، د. محمد الجوادي، د. فخرى عباس، طاهر أبو زيد، طه إسماعيل.. الخ، ومن بين تلك الأسماء د. حامد عمار شيخ التربويين.

وسَرَحتُ عند قراءة ذلك التشكيل الوزاري؛ لاستيقظ على أن تحقيقه من سابع المستحيلات فى سياق الأجواء الحكومية والحزبية السائدة، ووجدت نفسى تداعبها الأحلام مرة أخرى، والتى لم تخطر لى على بال، سواء فى أحلام اليقظة أو أحلام المنام. ولم أتردد فى أن أقول ساعتها ما قلته لرئيس تحرير الدستور، جزى الله الأستاذ عباس الطرابيلي رئيس تحرير (الوفد) كل خير، حيث أتاح لى لحظات من الأحلام السانحة المنعشة.

* واختتم هذه النسمات المنعشة المفاجئة من مواقع (صاحبة الجلالة) بمقالين متتالين فى (الأهرام) لتلميذى المريد الشاعر المبدع والكاتب الرصين المثقف

(فاروق شوشه)، والمقال الأول بعنوان (الدكتور عمار وكتابه الخطير)، والثانى بعنوان (إلا التعليم يا أمريكا) بمناسبة ظهور كتابى (الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وتداعياته التربوية والثقافية فى الوطن العربي).

وفى المقال الأول يتذكر الكاتب ذلك العام الذى قضاه فى كلية التربية ليتخرج فيها أول الخريجين عام ١٩٥٧- ١٩٥٨ فى الدبلوم العام فى التربية، كما يشير إلى شغفه بهذا المجال الذى تولد لديه من ذلك الحين بتأثير أساتذتها وبخاصة حامد عمار (إنسانًا ومفكرًا وصاحب رسالة، حيث كانت محاضراته مناقشة، خطوة بعد خطوة، وحوارًا عميقًا هادئًا، يكشف عن قدراته الهائلة فى الجدل الموضوعي...)، ويتابع (كان منظره يلوح لنا فى صورة صوفى زاهد، يكسوه علمه مهابة وجلالًا. وكان فى خلقه أبًا روحيًّا، ينجح دائمًا فى أن يشعرنا -عن قصد- بأننا أنداء له وأكفاء...).

ويستعرض فيه معالم بعض من فكرى فى كتاباتي، وما قد يضطرب فى ثقافتنا حسب تعبيره (حيث لا تزال غشاوات الخلطات والاضطرابات الثقافية ممتدة حتى اليوم؛ إذ تتلبد سماء الثقافة فى الوطن العربى بسحابات قاتمة، بعضها يمطر إحباطًا، وبعضها ينذر بسيل من الغضب اليائس).

وقد تملكتنى الغبطة حين يقول: (ولقد أسعدنى الوصف الذى أطلقه عليه الناشر باعتباره شيخ التربويين العرب، بل هو "عميدهم" فى حقيقة الأمر، والعمادة لقب يحمل الريادة والاقتحام ومتانة القلم – المعنى، الذى أطلق على طه حسين فى مجال الدراسات الأدبية والأدب العربي، بأكثر مما توحيه كلمة " الشيخ").

وفى المقال الثانى (إلا التعليم يا أمريكا) يستعرض بإيجاز مركز لما أسماه بالكتاب الخطير عن إعصار (الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م وتداعياته التربوية والثقافية فى الوطن العربي)، ويصفه بأنه (محاولة جادة وثاقبة... لاستشراف ما يحيق بهذا العالم العربى من مؤامرات وأخطار، وكيف السبيل إلى مواجهتها، وكيف يتشكل

لدينا وعى بمخاطر هذه اللحظة المفصليه فى حياتنا، كى نبنى مجتمعًا عربيًّا أفضل وأجمل بكل معرفة نافعة ترفده؛ لترفرف فى أرجائه أعلام العدل والحرية). وهو يرى أن أهم ما يطرحه هذا الكتاب مما أفرزته الأحداث المأسوية فى الحادى عشر من سبتمبر، هو أنها أفسحت المجال للمستتر من أطماع الغرب والولايات المتحدة بالذات فى الهيمنة على موارد الشرق الأوسط، نفطًا وسوقًا وعقلًا. ولذلك لا يمكن اعتبار تداعيات تلك الأحداث أمورًا مفاجئة مباغتة، وإنما هى حسب تعبير المؤلف (رد فعل لطغيان " القطيع الإلكترونى ذى الألف ذراع " طغيان على الدول النامية ينهب ثرواتها، ويقهر شعوبها، ويوسع الفجوة بينها وبين دوله، كما أنها جاءت ذريعة لإحداث أخطر أشكال التدهور فى الكيان العربي، وأبشعها: غزوًا وتهديدًا وترهيبًا وشرذمة)، وقد ارتبط بذلك الهجوم على نظم التعليم العربية ومناهجها باعتبارها مولدة لاتجاهات العنف والكراهية للحضارة الغربية، ومن ثم إلى عمليات الإرهاب.

وتسعى جاهدة هذه الرغبة إلى " برمجة العقل العربى " ومحاولة " أمركة الإنسان العربى " وما يترتب على ذلك من تمكين للهيمنة الأمريكية ومشروعاتها السياسية والتعليمية فى إعادة خريطة المنطقة سياسيًّا وجغرافيًّا وثقافيًّا.

أكتفى بهذا القدر من إشارات لبعض ما ورد من مراجعة أديبنا الكبير لهذا الكتاب، وإبراز أهم ما دعا إليه من مخاطر وما اقترحه من فعل ثقافى تربوى للمواجهة والتطوير الذاتى لمجتمعنا العربي. ومما يؤسفنى ألا يجد هذا الكتاب صدى فى الأوساط التربوية، سواء من مراجعة أو مناقشة أو حتى من مجرد قراءته.

ولعل من آخر ما وصلنى من رسائل المودات التى أعْتزبها (أبريل ٢٠٠٦) ما ألفيته فى كتاب التربويين المرموقين، علمًا وفكرًا، أ.د. شبل بدران، أ.د. كمال نجيب (التعليم الجامعى وتحديات المستقبل) من إهدائه (إلى حامد عمار... الذهنية المبدعة، والتجربة الخلاقة... كى نجدد معه بناء البشر).



الحكاية الثالثة والعشرون
مباهج الجوائز والدروع

الجوائز حوافز:

شهدت الفترة ما بين عامى ١٩٩٤-٢٠٠٠م، والعمر ما بين الخامسة والسبعين والثمانين جوائز تقديرية من حيث لا احتسب، ولَّدت لدى طاقة هائلة من الحيوية والعنفوان الفكرى لمواصلة التأليف والترجمة، وإعلان الرأى والموقف فى أجهزة الإعلام، والانخراط فى قضايا السياسة وحرية التعبير فى الأزمات الوطنية والثقافية. والجوائز التى أحرزتها خلال تلك الفترة، هي: جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمى عام ١٩٩٤م، وجائزة الدولة التقديرية عام ١٩٩٥م، وجائزة المنظمة العربية التقديرية عام ٢٠٠٠م. وقد أشرت إليها فى بعض الأحداث فيما سبق، بيد أن لكل منها حكاية، تستحق فى تقديرى أن أسردها باختصار فيما يلي:

جائزة الكويت للتقدم العلمى:

تعلن مؤسسة الكويت للتقدم العلمى التى يرعاها صاحب السمو أمير دولة الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح إذ ذاك، عن جوائز متنوعة فى العلوم الطبيعية

والآداب والعلوم الاجتماعية كل عام. ولم أكن على وعى أو اهتمام خاص بها، أو بالتطلع إلى جوائزها اعتقادًا منى – دون تواضع – على أننى لا أقدر على التنافس فيها، وهى مفتوحة لكل الأقطار العربية، ولعلماء العرب فى بلاد المهجر.

وكان لها شروط ومؤهلات ومواعيد للتقديم. وفى عام ١٩٩٣م تعلن المؤسسة عن موضوع الجائزة فى العلوم الاجتماعية(تنمية الموارد البشرية فى الوطن العربي). وكان من حق المؤسسة أن تكتب من قِبَلِها إلى من تعتقد أن له إسهامات فى هذا المجال.. يصلنى خطاب من المؤسسة يدعوننى إلى التقدم إلى هذه الجائزة إن شئت. ويصلنى هذا الخطاب قبل أسبوع من التاريخ المحدد لانتهاء التقديم.. ساعتها قوى عزمى لاغتنام هذه الفرصة، فخطاب المؤسسة فى حد ذاته تكريم.

لكن كيف السبيل إلى الكويت لتوصيل الإنتاج العلمي، الذى اخترت منه (١٥) كتابًا مع السيرة الذاتية المفصلة والموافقة على دخول المسابقة فى الموعد المحدد. البريد لا يسعف، والسفر إلى الكويت غير مسعف أيضًا مع إجراءات السفر والفيزا وتكلفتها. وفى ومضة هنية، قررت الاتصال بالصديق الجليل د. حسن الإبراهيم وزير التربية والتعليم الأسبق، ومن أعلام الفكر والثقافة فى الكويت. حكيت له تليفونيًّا عن الفرصة وأزمتي، ولم يتردد فى طمأنتى بأنه سوف يتصل بالسفارة الكويتية فى القاهرة لإنجاز هذه المهمة. وفعلًا تم الاتصال، وأبلغنى المستشار الثقافي، الذى تبين لى أنه ممن عرفت أيام زياراتى للكويت، بأنه ينتظر منى إحضار ما أريد إرساله إلى المؤسسة غدًا، وسوف يتم شحنه فى اليوم التالى مع الحقيبة الدبلوماسية بحيث يصل إلى المؤسسة بعد يومين؛ أى قبل الموعد المحدد لتقديم الإنتاج العلمى بيومين.

اتصلت بعدها بالمؤسسة فأبلغتنى بأن صندوقى قد وصل، وسوف يعرض على لجنة تحكيم الجوائز، شكرت مدير الجوائز وحمدت الله على أننى سعيت ووفقت فى المسعى.

تظهر النتائج ويتم اختيارى لهذه الجائزة القيمة معنويًا والسخية ماديًا. وأسافر إلى الكويت لتسلمها فى حفل رائع، يقدم لنا فيه الشهادة والدرع والمكافأة معالى وزير الإعلام نائبًا عن سمو أمير الكويت. ينظم لقاء للحاصلين على هذه الجائزة مع سمو الأمير.. نلتقى مع سموه بصحبة المدير العام للمؤسسة الدكتور على الشملان.

ومن شروط الجائزة إلقاء محاضرة عامة فى موضوعها، وفى عجالة أعدت دراسة عن (التنمية البشرية فى الوطن العربى) عرضتها فى مدرج كلية التجارة، وعدت من هذه المصادفة الرائعة وأحداثها إلى القاهرة سالمًا غانمًا بفضل الله ودعاء الوالدين.

ولعله مما يشير إلى مضمون هذا الكتاب فى طبعته الأولى ١٩٨٥م اقتباس الفقرات التالية: (هو محاولة لتحصيل كثير من ظواهر الواقع العربى المتجسد فى مفاهيمه وممارساته الإنمائية: اقتصادية واجتماعية وثقافية وتربوية، سعيًا لاختراق سدود التخلف الحضارى والواقع أنه رغم ما تشهده الساحة العربية فى فترات قليلة متقطعة وأحداث نادرة من الإشراقات المبدعة... إلا أن زمانها الحضارى يظل فى معظمة راكدًا.. إنه زمان جزره أقوى من مده، وقبليته أفعل من وطنيته، وقوميته رهينة قطريته، وعروبته أسيرة لتبعيته. ولطالما كان بناء الحجر أولى من بناء البشر، وحرية الإنسان خاضعة لأجهزة السلطان...)

ولا سبيل إلى نهضة إنسانية مطردة إلا من خلال سعى قومى عربى متكامل وموحد، تغدو فيه التنمية الاقتصادية شرطًا ضروريًا للتنمية البشرية، كما تغدو التنمية البشرية أكثر ضرورة للتنمية الاقتصادية...

ومن التقاليد التى اتبعتها المؤسسة فى متابعة اتصالها بالحائزين على جوائزها دعوتهم كل سنتين لزيارة الكويت لمدة أسبوع، يحددون فيه الموعد وبرنامج اللقاءات أو المؤسسات التى يرغب كل منهم فى الاتصال بها، وقد استمتعت بهذا التقاليد مرتين منذ تطبيقه.

جائزة الدولة التقديرية:

أما الجائزة الثانية وهى جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية والاقتصادية، فهى أرفع الجوائز العلمية التى تمنحها الدولة حتى عام حصولى عليها ١٩٩٥م، وبعدها تم الإعلان عن (جائزة مبارك). وكما ذكرت سابقًا رشحتنى لها الجمعية المصرية للدراسات النفسية، دون علم منى على الإطلاق؛ حيث إنها لا تتطلب تقديم إنتاج علمي. ويتم الترشيح من قبل الجامعات والهيئات العلمية المعتمدة لحق الترشيح من قبل المجلس الأعلى للثقافة؛ إذ لا يتم الترشيح لها من قبل الأفراد. وكانت جائزتها حتى عام ٢٠٠٣م (٥) آلاف جنيه، حين ضوعفت لتصل إلى (٥٠) ألف جنيه حاليًا. وكان للحائزين عليها إلى جانب المكافأة (وسام) من أوسمة الدولة إلى جانب ميدالية ذهبية، ويجرى ذلك فى السابق فى احتفالية مهيبة، يحضرها رئيس الجمهورية والسادة الوزراء إلى جانب المكرمين وضيوفهم، وقد كانت ثورة ١٩٥٢م هى التى سنت هذا التكريم؛ ليحظى به عمالقة الفكر والأدب والفن من أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم.

بيد أنه من سوء الطالع أن هذا الاحتفال لم يتم خلال ذلك العام لانشغال السيد رئيس الجمهورية بهموم المجتمع داخليًا والعالم خارجيًا. ومما يؤسف له أيضًا أن الحائزين على هذه الجائزة لم يتسلموا حتى الآن (أبريل ٢٠٠٦م) لا أوسمة ولا ميداليات باستثناء المكافأة، وقد كتبت عدة مرات فى الصحف راجيًا أن يتم تسليمنا لاستحقاقاتنا التقديرية.

وقد زارنى أحد أقربائى المستنيرين فى دارى ذات يوم، وأطلعته على ما أحرزته من شهادات ودروع تقديرية فى مختلف المناسبات. وأخيرًا سألنى أين وسام وشهادة جائزة الدولة التقديرية المصرية.. ساخرًا (أوعى تكون بتضحك علينا) فقلت له (ربما الدولة بتضحك علينا).

وفى جميع الحالات، كان اعتزازى غامرًا بالحصول المفاجئ للحصول على تلك

الجائزة. وكان نبأ الجائزة مفاجأة شديدة الوقوع.. أتلقى خبرها قبل أن يتم الاعتماد النهائى لنتائجها، الذى تأجل لجلسة أخرى لينشر فى الصحف. طرق بابى الأخ الكريم الكاتب الصحفى الأستاذ حلمى نمنم، ومعه حامل كاميرا "معتبرة"، رحبت به، وقبل أن يجلس أخذ يهنئنى بنيل جائزة الدولة التقديرية... فتعجبت أى جائزة، فكرر تهنئته، ولم يكن لى بد من تصديقه، بعد أن أراد أن يدير معى حديثًا حول شعورى بنيل الجائزة لينشرها فى مجلة المصور. ولما سألته عن عدم نشر النتائج فى الصحف، أشار إلى أن جلسة اليوم فى المجلس الأعلى للثقافة حدث فيها بعض الإشكاليات، مما تأجل معه اجتماعها الأول لينعقد فى اليوم التالى. وسألته كيف عرفت نتيجتى، فألمح بأن هذا هو من أسرار الفن الصحفى. ثم أوضح لى بأنه لما كنت قد نلت فى الجلسة الأولى أكثر من ثلثى الأصوات فى أول جولة انتخابية، فقد استحققت الجائزة بهذه النسبة وخرجت من عملية إجراء المجلس التصويت فى عدة جوالات أخرى ومع إجراء التصويت عدة مرات، فإن من يحصل على النسبة فى الدورات الثانية حتى الخامسة أحيانًا يعتبر من الحائزين.

أما الذى يحصل على النسبة المطلوبة من أول دورة كحالتى يتأكد فوزه. وبعد هذا الإيضاح يتفضل بإجراء الحديث وأخذ " التصاوير " المناسبة. وما زلت أذكر للأستاذ حلمى نمنم تفضله بتلك المبادرة كلما التقيت به.

وأذكر فى هذه المناسبة ما دار من حوار مع المفكر والمؤرخ الناقد، د. مصطفى عبد الغنى فى صحيفة الأهرام بتاريخ ١٩٩٥/٧/٩م (بعنوان: شجرة الجهد الطويل) يكتب فى مقدمته (حامد عمار غنى عن التعريف، فهو رائد فى التربية والاجتماع والتاريخ والتنمية البشرية. وهو شاهد من شهود العصر الذى لا يمكن تناول أى قضية تربوية إلا بالعودة إليه. وحصوله على جائزة الدولة التقديرية لم يكن مفاجأة لنا، وقد تأخرت...).

الجائزة العربية التقديرية للمنظمة العربية:

ومع الجائزة العربية التقديرية عام ٢٠٠٠م للمنظمة العربية فى التربية والثقافة والعلوم، التى أشرت إلى بعض معالم الترشيح لها بوضعى فى آخر قائمة المرشحين من قبل الكلية والجامعة؛ فلم أكن مطمئنًا لنتائج هذا الترتيب، خصوصًا وأن فى الجوائز العربية أحيانا محاولات لإيجاد توازن بين الدول العربية. لكن السنارة تصيد وأمنح الجائزة وقدرها (٢٠) ألف دولار، مناصفة بينى وبين أ.د. محمد جواد رضا.

لكن أمتع وأروع ما ارتبط بهذه الجائزة اختيار القاهرة لتوزيع رموزها. ويبدو أن ذلك جاء بترحيب من أ.د. مفيد شهاب وزير التعليم العالى والبحث العلمى عام ٢٠٠١م. وكأنما كانت الجائزة هدية لى، وأنا أبلغ الثمانين فى ٢٥ فبراير من تلك السنة.

وقد نظم الاحتفال فى إحدى القاعات الكبرى بمبنى المؤتمرات جامعة القاهرة. وقد تفضل رئيس الجامعة أ.د. نجيب الهلالى بأن يرجو من الأخ الجليل أ.د. مصطفى عبد السميع عميد معهد الدراسات التربوية بجامعة القاهرة، الإشراف والتنظيم والدعوة للاحتفال بهذه المناسبة. ولم يدخر سيادته جهدًا فى إعداد كافة المسائل المتصلة بالاحتفال، كبيرها وصغيرها، وإنى لأحتفظ له بكل العرفان على ما بذل من جهد إلى جانب تقديرى له لعوامل أخرى كثيرة.

حضر على منصة الاجتماع أ.د. مفيد شهاب، وأ.د. حسين كامل بها الدين وزير التربية والتعليم، أ.د. نجيب الهلالى رئيس جامعة القاهرة، والأستاذ محمد الميلى المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وكان منسق الحفل أ.د. مصطفى عبد السميع، وقد صادف وجود أ.د. محمود السيد وزير التربية والتعليم السورى فى القاهرة؛ إذ ذاك ليشارك فى هذا الاحتفال.

وقبل الاحتفال، وزعت نشرة من عدة صفحات توضح مؤهلات ومبررات اختيار الفائزين للجائزة، وبنص القرار الذى حررته لجنة التحكيم فى تقديرها لكل

منهما. وبدأ الحفل بدعوة الفائزين لإلقاء كل منهما كلمته، بدأها أ.د. محمد جواد رضا بكلمته الموجزة، ثم أعقبته كلمتى التى جاء فيها (وأيًا ما كان، أجدنى غير مبالغ أو متزيد فى الشعور بأن لهذه الجائزة مذاقًا متفردًا، واعتزازًا خاصًا لما تحمله من معان فى بعدها القومى العربى... إن شعورى بالفرح والبهجة الصادقة يتملك شيخًا على أعتاب الثمانين هو شعور غامر، شأنه كشأن فرحى ونشوتى وأنا أستقبل الهدايا والجوائز فى ريعان الصبا ومطلع الشباب... وقد دعانى هذا الشعور لأسائل نفسي: هل تعيد الأيام دورتها من هذا المكان؟... وهل تمتزج أحوال الشباب بأحوال الشيوخ مع هذه اللحظة من الزمان؟ وهل تتجدد من هنا آفاق الحيوية والوجدان؟ أتساءل... من يدري، لعل وعسى...).

وجاءت كلمات من شرفت بهم المنصة، معبرة عن التهنئة والتقدير للمنظمة وللفائزين، وإلى الأهمية البالغة التى ينبغى أن يحظى بها العلماء والمفكرون فى النهضة الحضارية للأمة العربية. ومع كل الاحترام (لكل الكلمات) أجد الكلمة المرتجلة للدكتور حسين كامل بهاء الدين وزير التربية والتعليم، إذ ذاك، ذات طعم خاص، إذ يقول فيها (إن السنين قد عجزت عن أن تلين لحامد عمار قناة، ولم يتخل عن مبادئه، ولم يغير جلده، ولم ينفصل عن أصوله وجذوره.. لقد ظل متمسكًا بالمبادئ والقيم. وشباب حامد عمار أفلح فيما أخفقت فيه السنون، فأعطته قدرة كبيرة على استخدام الأفكار الجيدة، وعلى تفعيل النظريات الحديثة، وظل نموذجًا فريدًا، شيخًا يخرج من السنين، وشابًا فى مقتبل عمره، فى دأبه الشديد على العمل، وفى إخلاصه وحماسه حيال الدفاع عن مبادئه.. إن حامد عمار قيمة تربوية كبيرة، ليس فى مصر، وإنما فى الوطن العربى كله، وفى الأوساط العلمية والتربوية فى العالم).

وبمناسبة هذه الجوائز، تفضلت الجمعية المصرية للدراسات النفسية صاحبة الفضل فى الترشيح لجائزة الدولة التقديرية احتفالًا، ألقيت فيه محاضرة عن

مشكلات البحث العلمى فى العلوم التربوية، وكذلك نظم معهد الدراسات التربوية بجامعة القاهرة لقاء مطعمًا بأطيب الحلوى والمشروبات مع هيئة التدريس بالمعهد، والفضل فيه لتلميذى الموسوعى أ.د. عبد الفتاح جلال عميد المعهد.. أما كلية التربية جامعة عين شمس، فقامت بتعليق لوحات من القماش بمناسبة تعيين أ.د. عبد السلام عبد الغفار مقررًا عامًا للجنة الثقافية والإعلامى بمجلس الشورى، وفى ركن منها تهنئتى بالحصول على الجائزة. ولم يبخل القسم فى هذه المناسبة بالاحتفاء – كقسم لأول مرة – فى عشاء فاخر فى أحد الفنادق مع درع نفيس بهذه المناسبة.

وفى هذه المناسبة، تلقيت برقية من الأخ الوفى الودود أ.د. حسن البيلاوى، والذى كان يشغل عمادة كلية التربية فى الإمارات العربية المتحدة. وكانت برقية سخية كريمة نقتطف منها (فى تكريم حامد عمار يقف المرء عاجزًا عن التعبير أمام هذا الرجل العملاق، هل نتكلم عن الأب الراعى لأبنائه؛ حيث الجميع فى نظره هم أبناؤه، وليس هناك من لم تمتد إليه يده بالرعاية الأبوية... أم هل نتكلم عن حامد عمار، الذى كثيرًا ما يتبنى قضايا شخصية ليس لأصدقاء فقط، بل لأناس لا يعرفهم... أم هل ترانا نتكلم عن حامد عمار صاحب القلم الرصين والفكر الواضح الملتزم بقضايا عروبته ومصر الوطن، وبقضايا العيش لأولئك الكادحين فى الأرض والمصنع.. هو رائد المدرسة النقدية تتلمذت على كتاباته قبل أن أقابله... ثم عشنا فى حنايا عطفه وأبوته حين التقينا...).

بيد أن من بين أجمل وأبقى هذه الاحتفالات أثرًا تنظيم مركز البحوث العربية ومديره المفكر القومى د. حلمى شعراوى ندوة، بالتعاون مع لجنة الدفاع عن الثقافة القومية فى مصر ودار المحروسة للنشر عن (التعليم والهوية القومية "أكتوبر ١٩٩٧م" مهداة إلى حامد عمار) باعتباره شخصية (وهبت نفسها لقضايا الوطن وتعليم أبنائه.. ولا يحتاج علمه فى هذا المجال وخبرته ونضاله فى مواجهة التحديات، التى تواجه قضية التعليم فى الوطن العربى إلى بيان).

ويشرفنى أن اذكر أسماء الأساتذة الدكاترة من الزملاء والأبناء والأحفاد، ممن شاركوا فى هذه الندوة مع حفظ الألقاب، وهم: محى الدين صابر وزير التعليم السودانى الأسبق والمدير العام الأسبق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وعبد العظيم أنيس المفكر والمناضل والأستاذ بجامعة عين شمس، وفوزى منصور الاقتصادى الرصين ورئيس مجلس إدارة مركز البحوث العربية، ومحمد عبد الظاهر الطيب عميد كلية التربية جامعة طنطا، وحسن البيلاوى عميد كلية التربية ببنها جامعة الزقازيق، وشبل بدران وكيل كلية التربية جامعة الإسكندرية، وعبد القادر ياسين الباحث والكاتب الفلسطينى المناضل، ومن الأحفاد الأوفياء: عبد اللطيف محمود أستاذ مساعد بكلية التربية جامعة حلوان، ومحسن خضر أستاذ بكلية التربية جامعة عين شمس، وإلهام عبد الحميد مدرس المناهج بمعهد البحوث والدراسات التربوية جامعة القاهرة، وكامل حامد جاد باحث بالمركز القومى للبحوث التربوية والتنمية، ومحمد عبد الخالق مدرس بكلية التربية جامعة حلوان، وأنور مغيث مدرس الفلسفة بكلية الآداب جامعة حلوان، وكمال مغيث الباحث بالمركز القومى للبحوث التربوية والتنمية والمنسق للندوة ومحرر كتاب دراسات الندوة، بعنوان: "التعليم وتحديات الهوية القومية "، دار نشر المحروسة، ١٩٩٧م.

وفى ختام جلسات الندوة، عقدت حلقة نقاش أسهمت فيها بكلمة، كما شارك فيها الأخ الفاضل أ.د. محى الدين صابر: ذاكرًا (إن حامد عمار الأخ والصديق والرائد، وأنا أعنى كل كلمة صفة أذكرها، قد اجتمعت فى هذه الشخصية العظيمة المعطاءة الفضائل والأخلاقيات والمثل التى يجب أن ترتبط بالعلم والمعرفة، فهو لا يمثل المعرفة وحدها، وإنما يمثل فى الوقت نفسه مثلها وأخلاقياتها... إن هذا التكريم لحامد عمار تكريم للثقافة، وتكريم للتعليم والعطاء لكل أبناء العرب القادمين؛ لأنه رجل قومى بالمعنى الدقيق، فقد ظل زمنًا طويلًا يخدم الثقافة العربية فى مجالاتها المختلفة).

الدروع وشهادات التقدير:

ومع هذه الموجة من الجوائز والاحتفالات، فإن ثمة ما يكملها بنوع آخر من الدروع وشهادات التقدير، وإنى لأعتز بها لما لها من دلالات على حصاد جهودى وإسهاماتي التربوية والثقافية والمهنية، وهى كالآتى بحسب ترتيبها الزمني:

- ميدالية طه حسين، متحف طه حسين، مركز رامتان الثقافي، وزارة الثقافة، ١٩٩٥م.
- مَسَلَّة تقدير، كلية التربية، أسوان، جامعة جنوب الوادي، ١٩٩٦م.
- درع كلية التربية، جامعة الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٦م.
- درع جامعة عين شمس لجائزة الدولة التقديرية، ١٩٩٧م.
- شهادة تقدير وامتياز، وزارة التعليم فى عيد العلم، ١٩٩٧م.
- شهادة تقدير وامتياز، نقابة المعلمين فى عيد العلم، ١٩٩٧م.
- هدية تقدير تذكارية من مركز تطوير التعليم الجامعة، جامعة عين شمس، ١٩٩٧م.
- هدية تقدير تذكارية من كلية التجارة جامعة الزقازيق بنها، للمشاركة فى المؤتمر العلمى الثاني، مايو ١٩٩٨م.
- درع جامعة المنصورة، ١٩٩٨م.
- شهادة تقدير، جمهورية مصر العربية، وزارة الدفاع، إدارة الشئون المعنوية، ١٩٩٨-٢٠٠٤م عن تحكيم مسابقتها الثقافية السنوية منذ عام ١٩٩٨-٢٠٠٤م.
- درع مركز تطوير التعليم الجامعي، جامعة عين شمس، ١٩٩٨م.
- درع كلية التربية، جامعة طنطا، ١٩٩٩م.
- درع جامعة طنطا، ٢٠٠٠م.

- درع جامعة جنوب الوادي، ٢٠٠١م.
- لوحة تقدير من المجلس الأعلى لمدينة الأقصر، ٢٠٠٤م.
- درع كلية التربية جامعة حلوان، ٢٠٠٤م.
- درع المركز القومي للبحوث الاجتماعية ٢٠٠٥م.
- شهادة تقدير من كلية التربية الأساسية، الكويت ٢٠٠٤م.
- درع مركز الخدمة العامة والتنمية الاجتماعية، جامعة عين شمس ٢٠٠٥م.
- درع كلية الآداب، جامعة القاهرة ٢٠٠٥م.
- درع كلية التربية، جامعة الفيوم، ٢٠٠٥م.

- Certificate of Honor, Youth-on The Move, International Educators Hall of Fame, California, U.S.A., 1997.
- International Biographical Centre, (IBC) Who is Who, Certificate of Merit, 1997.
- IBC, Certificate, Outstanding People of the 20th Century, 1999.
- IBC, Certificate for being included in (2000 Outstanding Scholars of the 20th Century in the Field of Education), 1999.



الحكاية الرابعة والعشرون
من آيات الوفاء والتهاني

تأسرني مناسبات التواصل مع تلامذتي وزملائي وأحفادي وأصدقائي في مختلف المناسبات، ومن ذا الذي لا يمتلكه الابتهاج، وتهيج به حلاوة الذكريات حين يقرأ آيات الوفاء والتقدير؛ خالصة لا يشوبها نفاق أو يختلط بها هوى أو تدفعها مصلحة.

* وأذكر من هذه المناسبات صدور (دليل كلية الآداب، ١٩٦٧م- بعض الشخصيات العامة من أبناء كلية الآداب / جامعة القاهرة) وأن من بين من يعتز بذكرهم (أ.د. حامد عمار، شيخ علماء التربية) وقد تخرجت من الكلية عام ١٩٤١م.

* وفي صيف عام ٢٠٠٥م تقيم كلية الآداب، جامعة القاهرة عيد العلم لخريجيها، ويدعوني عميدها الصديق الفاضل أ.د. أحمد زايد لحضور هذه المناسبة، وأتقدم نحو الكلية في هذا اليوم المشهود لأجد زميلة من أعضاء هيئة التدريس تلبسني (روب) الكلية، وأتقدم وسط كوكبة من الأساتذة المكرمين في هذا

العيد إلى قاعة الاحتفال، وفجأة اسمع اسمى مع من أهداهم رئيس الجامعة دروعهم لا تسلم درع كلية الآداب، وأنا خريج الكلية عام ١٩٤١م.

* وفى نفس السنة، أدعى لمؤتمر من مؤتمرات كلية التربية بجامعة حلوان يرأس جلسة افتتاحه رئيس الجامعة إذ ذاك أ.د. عمرو عز سلامة، وبصحبته وزير التربية والتعليم وقتها أ.د.حسين كامل بهاء الدين، وبعد إلقاء كلمتيهما، يقدم رئيس الجامعة درع الكلية للسيد الوزير، ثم أفاجأ باسمى ليقدم لى رئيس الجامعة الدرع نفسه، وكان من الممكن أن أعتذر عن حضور مثل هذه الاجتماعات، كما يحدث عادة.

* وفى معرض القاهرة الدولى للكتاب منذ خمس سنوات، اشترى كتابًا للأستاذ رجب البنا بعنوان (المصريون فى المرآة) يناقش ما جرى من تشوه وتسيب وسلبيات فى حياة المجتمع المصرى خلال العقود القليلة الماضية.. أجد فى أحد أقسامه تشخيص حامد عمار (وهو رائد من رواد الدراسات الاجتماعية، وله رؤية متكاملة فى الإصلاح الاجتماعى).

* وفى مقدمة ترجمة رسالتى للدكتوراه بعنوان (التنشئة الاجتماعية فى قرية مصرية)، التى أسهم فى ترجمتها أربعة من أساتذة علم الاجتماع (والذى لم يتصفحه إلا نفر قليل جدًا من أساتذة التربية) يتحدث أ.د. عبد الباسط عبد المعطي، أستاذ علم الاجتماع بكلية البنات/ جامعة عين شمس - يتحدث عن المؤلف عام ١٩٨٦م: (مؤلفنا الدكتور حامد عمار من الرواد القلائل فى العلم الاجتماعي، الذين تشهد أعمالهم المتعددة وبصماتهم الفكرية والعملية على قدرة نادرة ومتألقة للجمع بين الأصالة وتجدد الفكر بلا افتعال وانفعال، وبين الفكر والممارسة العملية حتى صح وصفه بأنه رجل قلم وعمل.

ولعل من علامات الريادة ما حفلت به أعماله التى تمحورت حول الإنسان: ثقافة مجتمعه وشخصيته وإعداده وتدريبه وتعليمة وإزاحة كل ما يعوق تجسيد

إرادته الواعدة لمشاركة فاعلة فى صنع مستقبل مجتمعه. لقد سعى الرجل، ولا يزال يسعى نحو إبراز الطابع النوعى للعلم الاجتماعى وللظواهر والعلاقات التى يهتم بها هذا العلم. أكَّدَ مبكرًا مخاطر محاكاة العلوم الطبيعية من جانب المشتغلين بالعلوم الاجتماعية وبخاصة تأثير هذه المحاكاة على تفتيت الواقع الإنسانى واغتراب الباحثين عن أبعاده، وبالتحديد أبعاد الزمان والمكان والاتجاه. أكَّدَ مبكرًا ضرورة الفكر والتنظير لكل عمل بحثي، كما بين بتألق يشهد له ارتباط أدوات البحث وإجراءاته بالأطر الحضارية، ومن ثم تنبيهه إلى مخاطر وأخطاء الفعل المسئول عن الممارسات البحثية التى أنجزت فى سياقات مغايرة زمانيا ومكانيا.

إنه... من بين القليلين الذين تعاملوا مع اتجاهات أساسية فى العلم العربى فاستوعبها، وأيقظ والعين والوجدان على واقعهم وإنسانهم وخلفيته الحضارية المتميزة... لقد كانت صلتى فى منتصف الستينيات صلة طالب علم بكاتب مؤلف، ومنذ ١٩٧٩م أصبحت صلة طالب بأستاذه الذى تعامل معه ومع جيله بمنطق الأب والفقيه المثقف الملتزم لقد شاع بين نفر منا فى مصر وفى أقطاره عربية أخرى إطلاق لقب (شيخ الشباب) عليه لحكمته وصداقته وتوجيهه لنا بغير تعال أو تكلف).

* فى مناسبة أحد أعياد ميلادي، يكتب الصديق المريد أ.د. محسن خضر فى (أسبوعيات) صحيفة (الأهرام) بتاريخ ١٤/ ٧/ ١٩٩٥م مقالًا بعنوان (أبانا حامد عمار) نقتطف منه (حامد عمار أستاذ الأجيال وشيخ التربويين ومن رواد علماء الاجتماع فى أمتنا العربية، إنه واحد من البنائين الكبار فى أمتنا، وأحد الذين ساهموا فى تشكيل العقل المصرى المعاصر. وفى رحلته الفكرية انتقل الرجل من بناء الإنسان المصرى إلى بناء الإنسان العربي، عاكسًا بذلك إيمانه الوحدوى الثابت، ومؤكدًا حتى هذه اللحظة قناعته بالعدالة الاجتماعية... وما أشبه حامد عمار بعلماء الحضارة العربية الإسلامية الكبار الذين رفدوا الفكر بالبحث، والتأصيل بالممارسة، والعقيدى بالبشري، حتى أنه يشبه ذلك الصوفى

الذى وقف على طرف الصحراء، ومر به رجل فسأله: فيم وقوفك؟ فأجابه: أبحث عن إنسان. فيجيبه الرجل: سيطول وقوفك. ولا يزال حامد عمار يواصل رحلته فى البحث عن الإنسان العربى وصياغته صياغة عصرية تليق بمقومات العصر وأبجديات التقدم...).

* وفى صفحة (ثقافة) بأهرام الجمعة ٦ مارس ١٩٩٨ يكتب أ.د. محمد السكران أستاذ أصول التربية بجامعة الفيوم، من سلطنة عمان حيث كان معارًا للعمل فيها مقالًا بعنوان: "تحية بمناسبة عيد ميلاده السابع والسبعين " (حامد عمار: مفكرًا مبدعًا) ونقتطف منه (هو البار بأهله وعشيرته حيث خلد قريته الصغيرة – سلوا – فى رسالته للدكتوراه.. والبار بمصريته حيث جعلها كل همه وهمومه، والبار بعروبته، حيث ينشد أن تكون حضارة وثقافة، وهو البار بأستاذيته حيث جعل منها طاقة نور يهرع إليها من يود الاستفادة والاستزادة، ونبعًا يفيض علمًا وقلبًا يتسع لكل مريد، وهو البار بتلاميذه حيث جعل من التلمذة شوقًا ذاتيًا وسعيًا من طالب المعرفة. وهو الملاذ للرفاق عندما تضل بهم السبل وتتباين المصالح والرؤى. وهو كذلك البار بمحافل العلم وتجمعاته فهو الموجود دائمًا، وأول الحضور وآخر المنصرفين، وأول المستمعين وآخر المتحدثين، وفى مجال الإبداع والتميز، يمكن الإشارة إلى المنهجية الفكرية التى يتميز بها وينفرد. ويتلخص فى اتخاذه الواقع الاجتماعى المرتكز الأساسى لكل تحليلاته وتفسيراته ومعالجاته للقضايا التربوية، وبروح نقدية للمسلمات السائدة...).

* وفى عيد ميلاد العام نفسه، يكتب الحفيد الواعد د. كمال مغيث الخبير بالمركز القومى للبحوث التربوية والتنمية مقالًا فى صحيفة العربى مهنئًا بالعيد بعنوان: (وطنيه حامد عمار)؛ مشيرًا إلى أن (حامد عمار يعد أحد الرموز الوطنية المضيئة الفاعلة والحاضرة فى مختلف قضايا الوطنية، التى يتشابك فيها المحلى والقومى والعالمى).

* وفى عيد ميلادى الرابع والثمانين، يكتب الصديق الودود د. حسن شحاته فى صفحة (ثقافة) بالأهرام: (وحامد عمار مولع بالذاتية المستمدة من الموضوعية والعيانية، أو بالتحيز الذى يواجه الحيادية المتكلفة. والكتابة عنده تعنى موقفًا خاصًا يتخذه عن قناعة فى سياق فهمه للوقائع والمعطيات... وكتاباته تجمع بين المنفعة والجاذبية والإمتاع والإقناع... وفى معالجته لهموم التربية يتجه إلى المدرسة النقدية فى مسعاه لتعرف أبعادها ونبش جذورها فى واقع تربتها المجتمعية... ولايزال حامد عمار مناضلًا بالكلمة والفكر... ولا يزال عالمًا ومعلمًا... داعيًا كل القوى الوطنية إلى مقاومة مختلف الضغوط والتهديدات الأجنبية من أجل تنمية ثروتنا البشرية... واستهدافًا لتأسيس مجتمع عربى نبنيه بإرادتنا المنفتحة لكل ما هو عالمى محمود نستعين به لكل ما هو عربى منشود...)..

* وفى صحيفة (الجمهورية) بتاريخ ٢٩/ ٥/ ١٩٩٦م، يهدينى الصديق الفاضل والكاتب المدقق أ. شكرى القاضي، مقالًا تحت عنوان (علماء ورواد) اقتطف من سطوره (حامد عمار المفكر العربى المرموق، يعد صاحب أول محاولة حقيقية لبلورة نظرية عربية فى التربية... ولا يختلف اثنان على أنه أحد الروافد والمفكرين الذين ساهموا فى صياغة عقل الوطن بامتداد نصف قرن تقريبًا. وفى مواقفه ومحاضراته ومناقشاته الأكاديمية والإعلامية، أصبحت هموم بناء الإنسان العربى هى شغله الشاغل...).

* وفى (مؤتمر معلم تعليم الكبار) الذى ينظمه مدير مركز تعليم الكبار بجامعة عين شمس، أ.د. إبراهيم محمد إبراهيم، يكرمنى بإهدائى درع المركز، كما يكرمنى فى مجلة تعليم الكبار بتقديم (السيرة والمسيرة للدكتور حامد عمار) فى مجلة تعليم الكبار (العدد الثالث) ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥، ويشير فى مطلعها (إن شدو الطيور يعلن عن وجودها، وراية الإبداع والعطاء لا ينكرها أحد. وإبداع مفكرنا التربوي، أو شيخ التربويين، كما أحب زملاؤه وتلاميذه أن يلقبوه،

كقطعة موسيقية تتناغم أجزاؤها وتتكامل لتمتع الآخرين. ولم تمنعه المناصب والدرجات العلمية ومسئولياتها من أن يقدم المساعدة، ويعين صاحب الحق على إبلاغ طلبه للمسئولين، ويمكن أن نقول عنه إنه صوت من لا صوت له...).

وباقة الختام يقدمها الكاتب الصحفى المتوهج، والصديق الوفي، الأستاذ محمد الخولي، الذى ترافقنا معه فى العمل مع لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغربى آسيا، وسعدنا بجيرته مع أسرته، سخيًا، وعونا ورفيقًا، ومسامرًا شجيًّا. ومسك الختام ثانيهما التلميذ النابه اليقظ والشاعر المبدع، والكاتب الجاذب، الأستاذ فاروق شوشة.

* وفى صحيفة العربى بتاريخ ٦/٣/٢٠٠٥ يكتب الخولى (إلى الصديق الكبير حامد عمار... فى عيد ميلاده الوضئ نهديه عود نعناع مقطوفًا من جنينة عطائه الذى قدمه بأريج العلم والبحث والوطنية.. ونسترجع من عبق نعناع الجنينة ذكرياتنا المشتركة، وجيرتنا الرائعة، وأيام زماننا فى خدمة الأمم المتحدة، ما بين بيروت وبغداد، حيث كان حامد عمار، وما زال، أستاذًا، وصديقًا، ورمزًا لكل ما هو جليل ونبيل من معانى هذا الوطن).

لقاء فاروق شوشة فى مستطيله الأسبوعى بصحيفة الأهرام ليكون مسك الختام فى حديث الوفاء والتهانى؛ حيث تعكسه مرآتى بأنه ألمع تلامذتى، حين كان طالبًا فى كلية التربية؛ ونظرًا لأن ما كتبه جاء مقترنا فى ذكرى رفيق ربع قرن من الجوار الرائع، وفى العمل المنتج الساطع هو أ.د. محمود رشدى خاطر، أستاذ المناهج وطرق تدريس اللغة العربية، ورئيس قسم الأمية وتعليم الكبار فى المركز الدولى بسرس الليان.. وفى تلك الذكرى والذكريات لعام ١٩٥٧ – ١٩٥٨ يكتب فاروق شوشه.

(مازالت الذاكرة تحفظ مشاهد حية لأساتذتنا الكبار فى ذلك الزمان الجميل.

كان رشدى خاطر وحامد عمار – أطال الله بقاءه – أقرب الأساتذة إلى قلوبنا وعقولنا، على الرغم من اتفاقهما فى أشياء وأختلافهما فى أشياء.. كلاهما فورة فكر جديد ونشاط عقلى متوهج، وأخذا بأيدينا إلى صعيد التطبيق العملي، من خلال رحلات ميدانية إلى مركز التربية الأساسية الدولى فى سرس الليان، وهما خبيران فيه؛ لتمتد جلسات الحوار والمناقشة بعد المشاهدة – ساعات وساعات على ضفاف الحقول وحواف الترع والقنوات، غارقين فى الخضرة المتنامية، ومعانقين لصفاء الطبيعة، منصتين لأصوات الكون، بينما حامد عمار يحدثنا عن ديمقراطية أثينا مدينة الحكمة، ورشدى خاطر بغرس فيينا بذور تذوق الجمال فى الكلمة والتركيب والعبارة والأسلوب، ويصعد بنا سلم اللغوى درجة درجة ومرحلة بعد أخرى.

وعلى مقربة من هذين الأستاذين الجليلين بالكلية، كانت قاعات الدرس تزخر بأساتذة كبار فى تخصصات مختلفة، من بينهم: محمد قدرى لطفي، وأبو الفتوح رضوان، وصلاح قطب (الذى كان عميدًا للكلية فى ذلك الحين)، وفؤاد البهى السيد، وعماد الدين إسماعيل، وزكى صالح، ونجيب اسكندر إبراهيم، ورشدى فام منصور..... وكنا نحن نتحلق حول من نحب، ونجد فيه المعنى الحقيقى للأستاذية والمعنى الدافئ للأبوة. وكان رشدى خاطر وحامد عمار هما الفائزين باستمرار).



أما بعد....
خطى اجتزناها

أحمد الله أننى قد أفرغت شريط ذاكرتى مما جادت به من ذكريات، ويقينى أنه بها من الاحتياطى ما تبخل به أو تدخره لأيام التحاريق؛ حين تنحسر مياه نهر النيل أيام الفيضان، قبل بناء السد العالى العظيم. كذلك كانت تعاند أو "تحرن" فلا تطاوعني، كما كانت تفعل معى البقرة زمان الصبي، حين كانت تشدنى بأقوى مما أشدها لتقضم الزرع. ومع ما كان جريان عملية الكتابة من مد وجزر، وعزق وتهذيب، ويسر ومشقة، إلا أننى استمتعت بحضور ذكرياتها وتداعياتها.

لقد ترددت طويلًا وتخوفت كثيرًا من اقتحام هذه المغامرة، لكنها تجربة فى تحرير الذات، وتقوية العزم، واستجماع الطاقة بكل ما يعينه ذلك من معاناة ومثابرة وأوجاع فى المفاصل والعمود الفقري، ويحضرنى مع هذه العبارة قول الشاعر:

ومن تكن العلياء همة نفسه

فكل الذى يلقاه فيها محببُ

وقد تكون العلياء إنجاز أى هدف، صغيرًا كان أو كبيرًا، يتطلب بذل الجهد وتعبئة الإرادة. وبالعصر واستجماع القوة والمعاناة والتضحيات بالمألوف تتحرر إرادة الإنسان وتنطلق طاقات الشعوب، وبذلك يذكرنا (أنطوان تشيكوف) حين يرد (فلتوقظ هذا الشاب، ولتعتصر من جوفه الإحساس بالعبودية، فيستيقظ صباح يوم شاعرًا بأن دم الإنسان الحقيقى – لا دم العبودية – يتدفق فى عروقه).

(والإنسان ما عاش فى تجريب) كما يقول أبو حيان التوحيدي، وقد تهيأ لى – على غير سابقة فى بيتى أو فى قريتى – أن أخوض تجارب وخبرات بكل ما فيها من جديد غريب غير مألوف، وعايشت ناسًا ومؤسسات ومسئوليات، ولَّدت لدى من القدرة على الاحتمال والمثابرة والصبر والحكمة. ولقد كنت مفعولاً وفاعلاً قدر الاستطاعة، ولم انكص عما استلزمته خطى طريقها، فاشقه ساعيًا إلى اجتيازه بفضل ما اكتسبته من إرادة التحرك وتوقع التغيير فى مختلف مراحله. ولا أمل من تكرار أن هذا الفضل قد تحقق بفضل الله حين كنا نردد كل يوم خميس فى الكتاب قبل الانصراف (مولانا يامولانا لا تخيب رجانا، أنت الرجا والمرتجي) ومع الله الهادى والمعين، ينطلق دعاء الوالدين فى الفرح والأزمات حيث كانت تردد والدتى كاشفة رأسها متجهًا إلى السماء (ياحامد ياوليد نزهة.. ربنا يعلى مقامك ويوَتِّق حزامك، وينصرك على من يعاديك).

ومع التوفيق فى الزواج الذى كان مودة وسكنًا، لم يكن القلق على إنجاب (ولى العهد) منغصًا، فقد كان أول من أطل يتبعه توأم البنات فاكتفينا بهذا الثالوث. كذلك لم نعانِ من أى قلق فى تربيتهم وتعليمهم، لم نقلق يومًا على أى نتائج فى امتحاناتهم ـ كما كان الحال لدى خلال تعليمى فى مختلف مراحله ـ حتى نيلهم درجة الدكتوراه.

وأخيرًا تلك هى الطريق التى اجتزتها من شهادة الفقر، وتقلب طوالع الحظ والمصادفة حتى وصلت إلى حرم الجامعة، وكم كنت أود الاطلاع على رسالة فيلسوفنا المناضل أ. أمين العالم التى تقدم بها لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب

جامعة القاهرة لأتبين رؤيته فى تأثير هذا التواتر من أحداث المصادفة فى فكر الفرد وحياته.

بدأت متعلمًا وانتهيت معلمًا، لكننى مازلت متعلمًا وأنا أُعلم، فليس ثمة عشق كعشق الكتاب، أشعر دائمًا بها لدى من ضآلة ما أعرف وسط آلاف الكتب، التى تتزاحم فى مكتبتي، لاهثًا وراء كل جديد، متعجبًا من الزملاء الذين استرخوا على كرسى الأستاذية يرقبون حركة الفراغ.

وأشعر، وأنا أسطر ختام مسيرتي، أنه من دأب الذاكرة أن تنسى أو تتناسى مواقع العجز والإخفاق والتقصير، لكنى ألفيت أن ما صادفته من توفيق، وأن ذكرياته تظل نابضة مشعة، تحفز على ضمان الاستمرار فى مستويات إنجازها.

ولما كانت كل قاطرة تحتاج إلى وقود، فإن التقدير لما يسمعه أو يقرؤه الإنسان عن جهده وإنتاجه هو الوقود، الذى يحركه نحو مواصلة مزيد من الإنجاز والإنتاج.

وسأظل معتزًا بذكريات ما أنجزت، وبمودات وتقدير زملائى الأعلام من تلامذتي، وبها ألّفت وسطرت، رغم ما قد يراه البعض من أنى أنفخ ذاتي، مع أن كل ذلك الرصيد الذى أشرت إليه هو الذى يقوم بالنفخ. ولا سبيل فى مواجهة أولئك الأقزام من ترديد قول الفرزدق لجرير (مع تعديل بسيط):

أولئك أبنائى فجئنى بمثلهم

إذ جمعتنا يا (بعيد)(•) المجامع

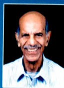
وختامًا: فإن من أطيب أمنياتى فيما تبقى من العمر دقيقة أو ساعة أو يومًا أو أسبوعًا أو شهرًا أو سنة أو سنوات، كما أراد الله فى لوحه المحفوظ، أن تبقى موجات الوفاء والتقدير المتبادل وقدراتنا على العمل والإنتاج، مع كل من أوردت أسماءهم ومع من نسيتها، متواصلة متوهجة دون انقطاع، عامرة بالإخاء والحب

• البعيد والأبعد من الكلمات الشائعة، لمن لا يقم لهم الإنسان وزنا.

لنقيم معًا، غدًا أفضل وأجمل وأعلم، ولنؤسس صرح (أمة عربية نبنيه بالحرية والعلم والمصنع)، كما أراده الشيخ الصعيدى رفاعة الطهطاوي، منذ مطلع تاريخ مصر الحديث.

والله من وراء القصد

ومن أمامه.. ومن حوله.



خُطى.. اجتزناها

بين الفقر والمصادفة إلى حرم الجامعة

فى هذا الكتاب ، لايطالعنا شيخ التربويين كعادته - فى كل كتاباته - بالرؤى التربوية المتسمة بعمق التحليل وتنوع الأبعاد فحسب .. وإنما يترك لنا الفرصة لأن نطالعه نحن .. ونعاود اكتشاف سمات وملامح تفرده ونبوغه .. يرتاد بنا مكنونات نفسه، فى رحلة كشف عبقرية عن صلابة الإرادة .. والتحدى .. والإيمان الراسخ بحتمية النجاح رغم عثرات الطريق الطويل الشاق .. من سلوا إلى ردهات الأمم المتحدة .. وعبر محطات متلاحقة بيروت ... بغداد .. القاهرة .. وكان الحصاد غزيرًا عامرًا .. من إنتاج علمى غير محدود .. واحتفاءات غير مسبوقة .. وجوائز ودروع وآيات وفاء وتهانى..

الكتاب أو بالأحرى الرحلة المعنونة بـ "خُطى اجتزناها" هى دليل لكل عابر سبيل فى رحلته مع الأيام لأن يلتمس منها مواطن القوة ومواضع الاقتداء وجعل المحال فى أفق المجال ... هى رحلة ودرس وقيمة لكل الأجيال لتؤمن بأن الإرادة الفولاذية والإيمان العميق والاجتهاد المتواصل والثقة بالنفس .. هى العوامل الأكيدة والمؤكدة - دون سواها - لأن تمنح الإنسان مكانًا مميزًا تحت الشمس...

الناشر



الدار المصرية اللبنانية

